
التجـاني المـاحي
مقالات مختارة
تحقيق :
دكتور أحمد الصا
دكتور طـه ب

التجـــانى المـــاحى
مقـالات مختارة

المجلد الثــانى

تحقيق :
دكتور أحمد الصـافى
دكتور طـــه بعشـر

النـــاشرون :

دار جامعة الخرطوم للنشر
ص . ب ٣٢١ الخرطوم
الســـودان

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٩٨٤

الطابعـــون : دار الطباعة
دار جـــامعة الخرطوم للنشــــر

ايها العابد فى محرابه
الذى يتغنى بجمال الكون ويصدح فى ملكوته الواسع ينغم الانغام
ويشدو تسبيحا واجلالا للخالق الكريم بادئ هذا الكون ومبدئه
الذى له الاسماء الحسنى جل وعلا سبحانه .

ايتها النفس الانسانية الشريفة التى تعيش فى عالم المثل طليقة
تطل مشرفة على عالم الحس من شاهقها تكشف عن اسرار حكمته
وتنير الافاق لتجتلى بديع صنعه وتراه فى كل آية من آياته وفى
كل نبضة من نبضات الحياة .

الدكتور التجانى الماحى


مسطورات
MUSTORAT
INTERNET ARCHIVE

المحتويـــات

مقدمه

الدكتور التجاني الماحي

٧ ابريل ١٩١١ – ٨ يناير ١٩٧٠

أبو الطب النفسى فى أفريقيا

بقلم

الدكتور أحمد الصافى

○ فى الساعات الاولى من صباح الخميس الثامن من يناير ١٩٧٠ توفى الى رحمة مولاه بمستشفى الخرطوم الملكى استاذ الجيل البروفسير الدكتور التجانى محمد الماحى .

ولد التجانى الماحى بمدينة الكوة بمديرية النيل الابيض فى ٧ يناير ١٩١١ . وتلقى تعليمه فى الكوة ورفاعة والخرطوم حتى تخرج فى مدرسة كتشنر الطبية فى عام ١٩٣٥ التحق بعدها بالمصلحة الطبية السودانية طبيبا وعمل فى مناطق مختلفة من السودان منها امدرمان، الخرطوم ، وادى حلفا وكوستى .

بعد قضاء عامين فى معهد الطب العقلى والنفسى بجامعة لندن نال دبلوم الطب النفسى فى يوليو ١٩٤٩ فكان بذلك أول افريقى يجاز فى هذا التخصص .. بعد رجوعه السودان مباشرة قام التجانى بتأسيس أول عيادة للامراض العصبية بالمصلحة الطبية السودانية بالخرطوم بحرى فى أكتوبر ١٩٥٠ . فى عام ١٩٥٦ تطوع فى الخدمة العسكرية فى حرب القناة بمصر .

من عام ١٩٥٩ الى ١٩٦٤ شغل منصب مستشار الصحة العقلية لمنطقة شرق حوض البحر الابيض المتوسط (منظمة الصحة العالمية) بالاسكندرية .. وبعد ثورة ٢١ أكتوبر ١٩٦٤ اختير عضوا ورئيسا مناوبا لمجلس السيادة السودانى .

وفى سنة ١٩٦٩ عرضت عليه جامعة الخرطوم درجة الاستاذية فى الطب النفسى فقبلها والتحق بالجامعة رسميا . من حينها انصرف لانشاء قسم الامراض العصبية والنفسية بكلية الطب حيث كان يعمل الى ان وافته المنيه المحتومة فى الساعات الاولى من صباح الخميس ٨ يناير ١٩٧٠م .

تزوج التجانى فى عام ١٩٣٧ وانجب اربعة ابناء وبنتين .

التجانــى الانســان

تميز التجانى الماحى بعمق ايمانه وبتفاؤله الدائم بالانسان والانسانية ٠ كان متواضعا ، دمث الاخلاق ، لبقا ومحدثا مثقفا ممتازا تأسرك احاديثه وان استطرد وضاع منك موضوع الحديث وما ضاع منه ٠ كان راق فى دعابته بشوشا هادئ الصوت والحركة ٠٠ ومن ممن عاصروه لم تفتنه جلسات (البروفسير) الطويلة فى كرسيه (الهزاز) امام مكتبة كلية الطب والكتب حوله وتحته وفوق فخذيه ٠

وحين تقف بجانبه ينسى كتبه وما حوله ويحدثك فيما تريد الساعات الطويلة ٠٠ يوجهك لمراجع ما كنت تحلم بمعرفتها لولاه ٠٠ وهنا كانت استاذية التجانى الحقة ٠٠ تمكنه العلمى وعمق المعرفة وذاكرة قوية حاضرة ٠٠ فقد فتح التجانى الدروب الواسعه للعديد من تلاميذه واعطاهم بسلوكه المثال والقدوة ٠

كان لا يفتأ يذكرك فى تواضع بجهله (وبجهلك) حين يكرر لازمته المشهورة (شئ غريب) ٠٠ وحين يعدد العلماء ويسهب فى سرد سيرهم واعمالهم ٠٠ وحين يكرر ويكرر القول ان(الببليوقرافيا نصف البحث) يذكر هذا لكل باحث ٠٠ يعدد اهمية استقصاء مصادر البحث ٠٠ يذكرك بشمس الدين الابهرى صاحب كتاب (الهداية) واحد اعلام الفكر فى القرن الثامن الهجرى ويذكرك بمذهب فلسفة العلوم المنهجى وان الابهرى ومن تبعه من العلماء العرب قد رادوا فكرتها منذ اوائل القرن الحادى عشر الميلادى فعرفوها وعرفوها وشرحوها وطبقوها وحثوا عليها وعدوها اسلوبا لفلسفة العقل او نوعا من الحكمة ٠

وكانت عظمة التجانى أيضا فى سيرته الشخصية طوال حياته ٠٠ فى شجاعته فى الحق ووقفاته التى مازالت تذكر بكثير من الاعزاز والاكبار ٠ فى ارتفاعه عن الصغائر وعن السفه وعن المنافسه على المناصب والتهافت والتكالب عليها ٠٠ وفى كرهه للشهرة وبعده عن الاضواء رغم انه كان من القلائل الذين كانوا دائما فى الساحه ملء السمع والبصر ٠

فكان اذ اجمعت عليه الاراء ٠٠٠ عند اختياره عضوا فى

مجلس السيادة وعند اختياره نقيبا للاطباء . وعندما عرض عليه كرسى الاستاذية بجامعة الخرطوم .. وعندما منح كرسى الاستاذية بجامعة كولومبيا .. وعندما منح درجة الدكتوراة فى العلوم وعندما منحته جامعة الخرطوم درجة الدكتوراة الفخرية فى القانون ... وعند اختياره عضوا بالمجمع اللغوى بالقاهرة ... وعندما اختير مستشارا اقليميا لمنظمة الصحة العالمية فى الصحة العقلية .. وعضوا بلجنتها وعضوا فى اللجنة التنفيذية للاتحاد العالمى للصحة العقلية .. وعندما كان ملء السمع والبصر .. عضوا بارزا فى مؤتمر الخريجين .. يتحدث لعامة الناس فى الراديو والتلفزيون وفى الصحف .. ويتحدث فى المنتديات العلمية داخل وخارج السودان ... كان مكتبه وبيته قبلة المريدين والعلماء من كل حدب وصوب .. لم يعرف منتداه يوما بعينه او ساعه بعينها فقد كان دائما للناس ، بشوشا مرحبا كريما وعنده الاجابة الشافية او النصيحة والتوجيه .

التجانى الطبيب

كان التجانى طبيبا حازقا متفان فى العناية بمرضاه وفى كل حياته كان مثال الخلق المتين والاخلاق النبيلة . فحافظ على كرامة المهنة وسمعة الطبيب حين كان طبيبا ممارسا وحين كان نقيبا للاطباء .. ان الطبيب الذى لا يستطيع ان يخلق من ادراكه للمرض تجربة شخصية له لا يستطيع قياس المرض .. فعاش مع مرضاه همومهم وسهر معهم طبيبا ومواسيا .. كان كثير الاشارة لقول القفطى فى كتابه (اخبار العلماء بأخبار الحكماء) انه (ينبغى للاطباء ان يتفلسفوا فانها (اى المهنه) لا يجب تعاطيها الا لمن كان على سيرة اسقلبيوس) .

التجانى الباحث

كان التجانى مولعا فى كل اعماله باثبات الحق والتنويه بفضل السباقين الرواد .. وقد كان كذلك منذ يفاعته فقد كتب بداخل غلاف كتيب صغير باللغة الانجليزية بعنوان (كتيب علم النفس) قائلا : (ان هذا الكتيب اهدانيه الاستاذ اسماعيل الازهرى

فى عام ١٩٢٥ وانه اول كتاب أقرأه فى علم النفس ٠) عند عودة التجانى اخصائيا فى الامراض النفسية حمل الكتيب لازهرى ليمهره له بامضائه مشيرا اشارة دقيقة المعنى لفضل رجل عليه وعرفانا بفضله ٠

ان اثبات الحق احدى الدعائم الاساسية فى البحث العلمى ومن أوجب صفات الباحث ٠٠ هى الامانة العلمية فى توثيق المنقول وتبيان مصدره واسناد القول لصاحبه لتأكيد السبق ٠٠ هى واجب ادبى وخلقى فى المقام الاول ٠٠

وكتاب (مقدمة فى تاريخ الطب العربى) ثبت علمى جليل حقق فيه التجانى ما لم يحقق من قبل واشاد بفضل العلماء العرب والمسلمين وابرز اسماءهم وعرف الناس بهم فجل مصادر هذا الكتاب هى المصادر الاولى التى تفقه التجانى وامعن فى فحصها ٠ فحب التجانى لجمع المخطوطات لم يكن حب الاغتناء والامتلاك لكنه الجرى وراء الحقيقة فى مظانها الاولى فمخطوطاته (٢٦٥٠ مخطوطا) وكتبه (٨٠٠٠ كتاب) وخرائطه (٧٦٠ خارطه) جميعها لم تغنه عن البحث بل زادته شغفا ٠ تعلم الهيروغلوفيه وبرع فيها ليشبر غور حقيقة حضارة وادى النيل ام الحضارات ٠٠ وتعلم اليونانية والفارسية والفرنسية ولغة الهوسا وغيرها لشعوره باهمية معرفة اللغات فى قراءة النصوص فى اصولها قبل تأويلها ٠٠ يذكرنى ذلك هنرى سقرست الذى درس اربعة عشر لغة قبل الشروع فى كتابة مؤلفة (تاريخ الطب) ٠٠٠ لم تكن ما حوته مكتبة التجانى من كتب ومخطوطات هى كل ما قرأ فقد جاب مكتبات العالم الكبرى بحثا عن ورقات قليلات من مخطوطات تبعثرت بين مكتبات العالم او تحقيقا لمخطوط او اثبات للحق او ضحضا لفرية ٠٠ لم يكتف فى تقصيه الحقيقة بالقراءة والاطلاع الدءوب فليس من قرأ كمن سمع او رأى فقد زار غندار ليرى بنفسه قبر بلاودن اول من وصف الزار وشبهه برقصة التم تم فى كتابه (رحلات فى الحبشة وبلاد القالا) الذى نشر عام ١٨٦٨ بعد وفاته ٠٠ وزار جزيرة كوس اليونانية ليعيش بعض الوقت فى المكان الذى ولد فيه ابقراط ابو الطب ٠٠ اما مصر التى احبها والتى وصفها (بام الحضارة وتاريخها رائد التاريخ وشعبها قائد الشعوب ودليله وحضارتها

اصلا تفرعت منه حضارات الانسانية) مصر هذه جابها شبرا شبرا ٠٠ جال فى فارس وفى الجزيرة العربية وفى غير هذه وتلك وفى كل رحلة كان دائم الملاحظة ٠٠ عند وصوله فى رحلة تفقدية للسعودية كانت احدى همومه ان يتأكد من مدى انتشار (دورة الفرنديت) والتى وجد انها قليلة الانتشار وقد كانت منتشرة ومعروفة فى عصر ابن سينا وهو أول من اشار اليها وسماها (العرق المدينى) اعتقادا منه انها قطعة من عصب الانسان برزت من مكانها ونسبها للمدينة المنورة التى كانت تكثر فيها ٠٠ وكان الرازى أول من اثبت انها دودة طفيلية فى الجسم ٠٠ هذا هو التجانى دائما وراء الحقيقة واثبات الحق ٠

اعمـــال التجانـــى

ان فى حياة التجانى وفى اعماله وسيرته مجالات لا تحصى للدرس والبحث لا نرجو هنا غير الاشارة لبعضها كتب التجانى كثيرا فى الطب وتاريخه وكان يرى ان الطب والصحة (العقلية) مترادفان ٠٠ وكان مغرما باستقراء التاريخ والميثولوجيا التى درسها واستوعبها لمعرفة جذور العلل المستحدثة ٠٠ عنى عناية فائقة بالتغيرات الاجتماعية والحضارية واثرها على صحة الانسان ٠٠ فكتب فى العلاقات الانسانية واثرها فى تربية المواطن العربى٠٠ وفى رعاية الاسرة والطفل وعلاقتها باضطراد العمران ٠٠ وفى أهمية الانسان فى عملية الانتاج وديناميكية الصراع والتحول الحضارى ٠٠ كما كتب اوائل الابحاث المثبته بالعربية عن القات وناقش مشاكل الادمان وكيفية علاجها وكتب عن الحشيش والخمر والقهوة ٠٠ كتب عن عادات الطعام والممنوعات الحضارية ٠٠ وعن العقاقير وكيف يحسن استعمالها وكيف يساء ٠٠٠ كل ذلك باستقراء التاريخ وتحليل الواقع الاجتماعى والحضارى بالشواهد العديدة والحجج الدامغة ٠٠ اما فلسفته وتصوره لخدمات الصحة العقلية فقد كانت متميزة فريدة ٠٠٠ كان التجانى الماحى رائددراسات الطب التقليدى (الشعبى) دون منازع اتصل (بالفقراء) وكان مريدا وصديقا للعديد منهم منذ منتصف الثلاثينيات ٠ كتب عن الزار وعن الاصول العربية للطب الشعبى فى السودان ٠٠ وفى كل مقال من مقالاته العديدة الاخرى كانت هناك اشارة او اشارات

لاهميه الطب التقليدى وامكانية الاستفادة منه وتوظيفه فى طرائق ايصال العلاج للجميع وترقية الصحة .

وكتب فى غير الطب والصحة ... كتب عن الخيل واسمائها فى الجاهلية والاسلام وبعض اخبارها ... ترجم اشعارا لنزار وللتجانى يوسف بشير واعاد صياغة العديد من الاعمال الشعبية الليبية والترانيم والتعاويذ الدينية المصرية باسلوبه السلس باللغتين العربية والانجليزية ..

اما محاضراته وأحاديثه فقد كانت الحجة الثقة الذى تتلهف المحافل الدولية للاستماع اليه .. قدم محاضرة هيرى مودسلى فى معهد الصحة العقلية بلندن فى ١٩٦١ كما قدم محاضرة وليام جيمس ومحاضرة ادولف مايير فى الولايات المتحدة ... فى هذا المجال اطباء النفس وحدهم يعرفـــون اى شرف تكلل هامتك به الاسرة العالمية بدعوتك لالقاء أى من هذه المحاضرات .. وحاضر فى الجمعية الفلسفية السودانية عن فلسفة العلوم ...وحاضر وتحدث فى كل مجال داخل السودان وخارجه الى ان وافته المنية وهو يتحدث .. وعلى صدره كتاب .

التجانـــى الراشـــد

كان التجانى الماحى راشدا للطب النفسى فى افريقيا له مدرسة متفردة ومنهج مبتكر .. تبنى افكاره بعضهم فى اماكن اخرى من هذه القاره وحفظوا له الفضل .. فقد نقل زميل دراسته وصديقه اديو لامبو الى قرية ارو بنايجيريا ما عرف (بنظام القرية) .. ذلك النظام الذى يستفيد من مهارات المعالجين التقليديين ومن ثقة الناس بهم وما يتمتعون به من احترام ورهبة . وفى السودان انشأ اول عيادة للامراض العصبية بالخرطوم بحرى ثم انشأ شعبة الطب النفسى بكلية الطب ، جامعة الخرطوم .. وكان الرائد قبل نصف قرن من الزمان للدراسة العلمية الميدانية للطب التقليدى السودانى . فكان ان عنى بتسجيل ممارسات الزار تسجيلا علميا دقيقا تشهد بذلك المخطوطات القيمة التى تركها .. فقد حلل الانماط الشبحية (مشايخ الزار) وعدد وظائفهم واهمية كل ذلك فى التشخيص وفى علاج بعض الامراض

النفسية • ومقالاته عن الزار فى عام ١٩٤٤ ومخطوطاته التى بدأها فى عام ١٩٣٧ معالم بارزة فى تاريخ هذه الدراسات • كان من اوائل من قرأوا (الطبقات) بعين الطبيب الحصيف ونوهوا بما تحويه من تراث طبى حيث نجد الجذور اليونانية القديمة ونظرية الاخلاط الاربعة كجزء من التراث الطبى التقليدى السودانى ••
وقرأ (مختارات الصائغ) ونوه بفضله وكتب عنه وكان من اوائل الرواد فى الطب النفس العالمى الذين يعطون المرضى النفسيين الذين ينتهكون القانون الحماية الطبية والاجتماعية وكان ذلك فى مصحة كوبر التى أنشأت لعلاجهم ورعايتهم وحماية المجتمع •
وكان التجانى رائدا فى اسلوبه وفى منهجه وكان شيخا من شيوخ المعرفة تصبو للتعلق بهم والتعلم منهم •

جيل التجانـــى

كان التجانى ممثل جيله وحاديه • لم يشذ عنه الا تفوقا وترهبنا فى العلم ••• كان جيل التجانى جيل الاصاله والتسامى جيل الرجولة والفحولة والتواضع ••• جيل النذير وساتى ومنصور وجمال والسلمابى وعبدالله رجب والنصرى ونصر الحاج على وداود• و••• و••• كان ذلك الجيل ولظروف تاريخية جيل الكبت والحرمان من التعلم لذلك كان شعور الذين أوتو فرصة التعليم شعورا حادا وقويا بالمسئولية نحو الوطن والمواطن والنفس • فأنكبوا جميعا على التحصيل والتجويد والمران على الدرس والبحث والخطابة فبان ذلك جميعه فى انتاجهم وسلوكهم • كان جيلا كادحا جيل كلية غردون • يقول جمال محمد احمد (تعلم النابهون على زمان التجانى بكدهم وسهرهم الليالى مع الصحف التى تجىء طريقهم والكتب التى يجدون • فكان المهندسون والاطباء والشعراء وكان الكتاب والادباء الذين اشاعوا الحس القومى والوطنى فى البلاد•• التجانى ظاهرة من ظواهر ذلك العهد •• اشارة من الاشارات الى ان العبقرية السودانية تستطيع ان تزدهر وان عزت وسائل الازدهار •• جيل جاءت بعده (اجيال المصيبة)) كما قال عبدالله على ابراهيم •• اجيال موزعة الانتماءات مشتتة الاهتمامات همها الكسب السريع والتسلق العامودى وبعد ذلك التقاعد الاختيارى فى سن اليأس • كان

التجانى عالما وحده ونسيجا نادرا من العلم والمقدرة والاجادة والابداع .. ما تحدث احد عنه او كتب الا تضاءلت حوله العقول والمقدرات وتباعد البون بينه وبين غيره بل وبينه وبين عصره ومعاصريه . ما وصفه احدهم الا بانت نقائص ما آل اليه العصر وبانت كبوات المثقفين وهفواتهم وتهافتهم ولين عودهم . لم تفت هذه الملاحظة على ذكاء جعفر محمد على بخيت حين وصف التجانى قائلا : (انه من السودانيين القلائل الذين استطاعوا ان يواصلوا رحلة الثقافة بنفس طويل امتد طوال العمر بسرعة كانت تتصاعد فى مجتمع كانت نظرية فائض القيمة المتلاشى تدريجيا هى طابع حياة مثقفيه وسمة وجوده الفكرى) ولم تفت هذه الظاهرة على ذكاء عبدالله على ابراهيم الساطع القاطع .. لم يفت عليه وهو يكتب "فى شكر الرجال" إلا ان يمدح فى مقال أخاذ العظمة الانسانية الآسرة فى انبل تجلياتها فيصف التجانى "بالكاهنّ سادن المعرفة والقائم بامر سقاية طلابها المجهدين المكدودين" ويقول : "سيدى وسندى وملاذى فى هذا المنعطف التاريخى من حياة امتنا الذى انقرض فيه الرجال وانتشرت فيه الجثث ومحق فيه الرشد وصال الغى والغواية وكبرت كلمة من الافواه ان يقولوا الا ادعاء ولجاجة .. فى هذا الزمان تبدو لى ياسيدى التجانى الماحى وكأنك تنتسب الى جيل من الزهد والفحوله والهداية تسمق اشارة بين قمم النخيل واعالى الطلح قبابا واضرحة حافلة بالرايات مطرزة بالنذور تتقطر فيها الدعوات المجابة وتمتد منها اليد العاطية واللاحظة ..)

ثم ماذا بعد التجانى

ان نذكره ونقتدى به ونقتفى اثره .. وان نخلد ذكراه باحياء كل الدروب التى ارتاد وهى كثيرة .. وان نكمل ما لم يستطع ان يكمل فى حياته .. وان نلملم ما تفرق من اعماله التى انشغل عنها بما هو أهم .. وشئ آخر .. ان ندعو مع بروفسير النصرى الذى يرعى مخطوطات التجانى الماحى الى ان يتجه الاهتمام القومى الان لفهرسة ووصف هذه المخطوطات . فمكتبة التجانى ومخطوطاته ليست ملكا للسودان وحده الان بل للعالم

اجمع .. وباضافة مجموعة المخطوطات تلك صارت مكتبة جامعة الخرطوم من اغنى واهم المكتبات فى العالم .. فلنجعل هذه المكتبة قبلة للعلماء والباحثين اكراما للرجل الذى بذل كل ماله وجهده وعرقه وافنى عمره فى جمعها ..

اما عن اعماله الاخرى فقد كان اسهامنا المتواضع فى تجميع اعمال التجانى المشتتة لتحقيقها وقد ظهرت بحمد الله وعونه وتبنى دار النشر جامعة الخرطوم المجموعة الاولى من اعمال التجانى باللغة الانجليزية فى العام السابق ثم مجموعة اعماله العربية التى هى بين ايديكم الان . هذا وتعد دار النشر الطبعة الثانية من (مقدمة فى تاريخ الطب العربى) والذى نشر فى عام ١٩٥٩ ...نرجو ان يظهر هذا الكتاب القيم قريبا ... اخيرا هذا بعض دين التجانى علينا وعلى هذه الامه التى شرفها ...

أحمد الصافى
الخرطوم
١١ فبراير ١٩٨٤

مفهوم الصحة العقلية في التاريخ

لعله من الملائم أن نبدأ هذا البحث عن الصحه العقلية وعن مدلولها فى التاريخ بايضاح لا غنى عنه ، وهو أن الصحة العقلية كتعبير اصطلاحى فى مفهومها اليوم وفى معناها الشائع بيننا انما هى فكرة حديثة العهد، قريبة الاستنباط ، ولعل أول ذكر للصحة العقلية فى مضمونها الذى يشمل فكرة قد تقرب مما تتضمنه اليوم من معان ، جاء فى كتاب لوامع الاشراقى المعروف بأخلاقى جلالى لجلال الدين(١) محمد ابن أسعد المتوفى عام ٩٠٨ هـ • ولذا سوف نجد من الضرورة تتبع هذه الفكرة واستقصاءها داخل نطاق الطب كجزء لا يتجزأ منه ، اذ أنها لم يكن لها وجود مستقل بذاته ، هكذا كان الاتجاه قديما ولعله سوف يكون كذلك ، الى حد ما فى المستقبل أيضا ، كما تشير الاتجاهات المعاصرة • ونسبة لذلك فهنالك ما يبرر تاريخيا وواقعيا استعمال هذين التعبيرين أى : الطب والصحه العقلية كمترادفين لاغراض البحث وفى مضمونهما ، ان لم يكن فى سعة مجالهما •

كذلك لابد من ايضاح آخر ، وهو أنه وان كان البحث سوف ينساق كما نأمل فى تسلسل تاريخى جغرافى ، بيد أن الناحية الاجتماعية لمكانتها من الاهمية قد تضطرنا أحيانا ــ لكى نتقصى أصولها ومقوماتها ونتائجها ــ لان نسلك مسلكا فنيا بحتا لا صلة له بالزمن، بل بالفكرة ذاتها ، زد على ذلك أن الصحة العقلية ، وكذلك المرض ، لاتنشأ بطبيعتها على أساس سبب واحد بل على جملة من الاسباب لاتقوم فى الاصل على صلات زمنية مقررة ، بل على تكامل أحدث وتجارب متفرقه تكون آخرها كالقشة التى قصمت ظهر البعير • وآمل ألا تدعو هذه الضرورة فى المنهج الى خلط قد يؤدى الى الغموض •

ونعود فنستهل بتقرير حقيقة أخرى ، وهى أن الفكرة التاريخية ضرورة لازمة لكل بحث اجتماعى • قال تشرشل :

" The longer you can look backward, the further you can see forward."

---

(١) متصوف فارسى •

أى "كلما أطلت بصرك إمعانا فى الماضى ازدادت بصيرتك خبرة بالمستقبل" والحق أن فلسفة التاريخ قد تسدى معونة صادقة فى جلاء الحقائق وادراكها ، وخلا ذلك فانه للالمام بفن التاريخ ومذاهبه ، ضرورة للطبيب ، لأن لمهنة الطب صلة تاريخية لازمة • فالمرض ظاهرة حية لها كيان تاريخى ينبغى تتبعه واستقصاؤه وفقا لمنهج تاريخى سليم ، فالأطباء الذين يسلكون منهجا اخباريا فى التدوين ربما تفوتهم بعض الحقائق الهامة ، كذلك الذين ينصبون على تقصى الظواهر المرضية ، على أنها ظواهر منفصلة لها نشوء طبيعى يمكن قياسه دون اعتبار للمؤثرات السيكلوجية والاجتماعية ، أولائك وهؤلاء مثلهم كمثل الباحث فى التاريخ الذى لا يستنفد جميع ما لديه من مصادر •

وقد أسدى التاريخ فى مناهجه خدمات جليلة للطب وخاصة المدرسة الحديثة التى كان من روادها الأوائل الفيلسوف الايطالى بندتو كروشيه Bendetto Croce والمؤرخ الانجليزى Callingwood والتى تقول ان مهمة التاريخ لا تنحصر فى سرده وتفصيله للحوادث ولا فى تسلسله لها على نمط زمنى • كذلك لن تكون مهمته كاملة مستوفاة لأغراضه ، الا اذا استطاع المؤرخ استيعاب الحوادت والوقائع ،وتمثيلها حتى تصبح جزءا من خبرته وتجاربه ، بل من كيانه الفكرى • لأن التاريخ فى تدوينه لا يقوم على جمع الحوادث وتوليفها ، ولكنه يقوم على نمط من التجارب العميقة التى يستلهمها المؤرخ والتى يعيش فى خضمها الزاخر على كونها صدى لتجربته • وهذا فى رأيى أبلغ ما أسداه التاريخ الى المنهج الطبى ، لأن الطبيب الذى لا يستطيع أن يخلق من ادراكه للمرض تجربة شخصية له لا يستطيع قياس المرض • وقد وصف أبو الحسن أحمد بن محمد الطبرى فى القرن الرابع الهجرى فى كتابه المسمى بالمعالجات الابقراطية ، وصف نوعين من الاطباء : "الطبيب الذى بفيلسوف" و "الطبيب الذى ليس بفيلسوف" • فقال : ان الطبيب الذى ليس بفيلسوف هو الذى يقتصر عمله وهمته على علاج الداء مع قلة المعرفه والبعد عن الفلسفة ، وأنه يأخذ المعرفة عن طريق

التقليد ـ أما الطبيب الذى بفيلسوف فهو الذى يرتفع بعلمه وادراكه الى طلب الغاية ، ولم يقتصر من كل صناعة على أقل ما يمكن" . والمقالة الأولى من الكتاب التى تحوى أصولا فى الفلسفة والتاريخ ، قال انها لا غنى عنها للطبيب الذى بفيلسوف . وقال القفطى فى كتابه اخبار العلماء بأخبار الحكماء عام ١٢٢٧م : "ينبغى للأطباء أن يتفلسفوا فانها (أى المهنة) لا يجب تعاطيها الا لمن كان على سيرة اسقلبيوس Asculapius " . واسقلبيوس اله الطب عند اليونان ، كان أبوه أبولو الها للشفاء وطبيبا لآلهة الأولمب . وفى الاساطير أن أبولو وتوأمته ارتميس وهبا شطرا من علمهما الواسع الى قنطروس زحل ، فأصبح بفضل الآلهة ذا نباهة فى الموسيقى ودراية فى الجراحة ومعرفة تامة بأساطير الاولين فأوكل اليه أبولو أن يكون رائدا لاسقلبيوس . وأشاد ابن خلدون بفضل التاريخ ، وكان للمنهج الذى جادت به عبقريته فضل فى بحث التاريخ داخل الاطار الاجتماعى ، ومن ثم صار المجتمع عنصرا هاما فى أى بحث علمى .

مصر القديمة : والطب ، كموءسسة انسانية ، له ماض طويل بيد أن تاريخه قصير ورغم ذلك نستطيع أن نتبين فى مصر الطلائع الأولى لمهنة الطب . وهنا تنبغى الاشارة الى أن الطب كغيره من الموءسسات الاجتماعية لا يقوم بذاته فجأة وانما يتطور وينمو مع غيره من الموءسسات الأخرى وفق قوانين اجتماعية ثابتة ، وفى مصر القديمة نشأت العوامل التى تمهد لقيام مهنة الطب ففيها استيقظ الضمير الانسانى لأول وهلة ، وفيها قامت الشرائع الأولى ، وفيها مجد الانسان ، وفى أرضها نشأت الحكمة ، ومن ثم انبثق ضوء العلوم والمعارف ومن بينها الطب(١) . وعلى هذا فيصبح للطب صفة اجتماعية ذات

---

(١) وقد رفع المصريون أمحتب طبيب الملك زوسر من ملوك الاسرة الثالثة الى مصاف الآلهة وقامت عبادته فى سقارة تقديسا للمهنة وتدعيما لمكانتها فى المجتمع لأن القدرة العلاجية للطبيب لا تقوم على كفاءته فحسب بل على كرامة مهنته وعلى مكانته المرموقة فى المجتمع .

« أمنحتب »
الذى يدخل بسلام

طابع ديناميكي (أى متحول) ، وسنرى تبعا لذلك كيف يتبع الطب المجتمع كالظل للسارى • وفى مجال الصحة العقلية فى مصر ، نستطيع تبين ما يلى :ـ

أولا :ـ أشار هرودوتس الى أن الطب فى مصر القديمة يمارس على مبدأ الاختصاص فالطبيب هناك يعالج مرضا واحدا لا جملة أمراض (هذا هو النص) • وأقول ان هنالك ما يدعو الى الظن بأنه ربما قصد أن الطبيب يعالج عضوا واحدا لا مرضا واحدا كما سوف يتضح من بقية الحديث • واستطرد هرودوتس يقول ان بعض الأطباء لأمراض الرأس ، وبعضهم للعيون ، وبعضهم للأسنان ، ثم قال ان بعضهم للأمراض المجهولة التى ليس لها مكان معين (تاريخ هرودوتس الجزء الثانى ترجمة رولنسون) • والفقرة الأخيرة التى تشير الى الأمراض المجهولة التى ليس لها مكان معين فقرة بالغة الأهمية لأنها تتفق مع ما أسماه العرب بالأمراض العامة المتنقلة أى التى تنتقل من عضو الى عضو ، ومن مكان فى الجسم الى مكان آخر ، والتى ينطبق عليها وصف الكثير من العلل التى تنشأ من أثر العوامل النفسية وقد أطلق بيير جانيه P. Janet على هذه الظاهرة " Equivalence " أى التعادل • ونستطيع اذا ، على ضوء ما سبق ، أن نفسر القول بأنه كان فى مصر القديمة أطباء مختصون بعلاج العلل النفسية • وهذا أول ذكر فى التاريخ لهذه الطائفة من الاطباء • ومن المؤسف أن هذه الحقيقة لم تسجل لمصر فى كتب تاريخ الطب لقصورها على تفسير هذه العبارة • وثانيا نجد حقيقة أخرى لا تقل أهمية عما سبق ، وذلك أن مرض الهستيريا قد عرف فى مصر القديمة قبل أن يصفه أبوقراط بعشرة قرون • وهذا النوع من الاضطراب أى الهستيريا يتألف من مجموعة متباينة من الأعراض ليس لها طابع شكلى أو وظيفى مقرر وقد أوحى هذا التباين لابوقراط نظريته التى زعمت أن هذه الحالات تنشأ على اساس اضطراب فى الرحم قد يؤدى الى التوائه ، والى ازدياد حركته أى أن الرحم قد ينطلق من عقاله وهذا هو أساس تسميتها بالكلمة المستعملة الى اليوم هستيريا والتى اشتقت من أصل يونانى معناه الرحم • وهذه الفكرة عرفت فى مصر القديمة قبل

عام ١٥٥٠ قبل الميلاد (١) • نقول ذلك لأننا نجد فى بردية كاهون Kahun أكثر من ثلاثين وصفة لجملة من الأعراض والاضطرابات المختلفة التى تصيب الجسم ، والتى عزاها الكاتب الى ميل فى الرحم • ومن المعلوم أن أبوقراط زار مصر وعاش فيها فترة من الزمن تزود فيها بالمعرفة بين نهاية القرن الخامس وبداية القرن الرابع قبل الميلاد عندما كانت مدينة الاسكندرية منارة العلم والمعرفة • وكان يوءمها الطلاب من كل فج عميق • ولربما قامت النظرية على ملاحظات تشريحية لأن أطباء الاسكندرية فيما بعد – ولربما قبل ذلك أيضا – وجدوا فى كنف البطالسه وظلهم ما يمنع عنهم الأذى والعدوان لمن يقدم على تشريح الموتى ، حتى استطاع علماوءهم أن يسبقوا غيرهم الى وصف بعض النواحى التشريحية والفسيولوجية ، أمثال هروفليس وأريز استراتوس • ولكن أشهرهم كان جالينوس ، ومن الموءكد أن جالينوس قد استمد من تجاربه بمعهد الاسكندرية أكثر ما حوته كتبه فى التشريح التى فقدت بعض أصولها وحفظتها الترجمة العربية • وعلى هذا فالمصريون هم الذين أنشأوا نظرية الهستيريا ، وليس أبوقراط الذى ما زالت تعزى اليه الى اليوم • ثم نجد ذكر الأدوية المفرحة فى مصر القديمة • فقد جاء فى الألياذة "وصبت هيلين قطرات من طيب مذهب للأحزان فى كأس تليماك وكأس صاحبه ، ولا يجد من يذوقها الى الأسى من سبيل ، وهى قطرات عجيبة أهدتها الأميرة بولانداما" (ترجمة دريني خشبة) • ولهذه الأدوية تاريخ طويل عند العرب • وتوجد وصفات متعددة للأدوية المفرحة فى اقرباذين نجيب الدين السمرقندى المتوفى عام ٦١٧هـ •وقد بعثت دراستها بطريقة جدية عام ١٩٣٥ على يد جوتمان • وقيمتها العلاجيه لا شك فيها فى بعض الحالات ، وخاصة فى بعث الخواطر وتداعيها فى مجال الفحص والتحليل النفسى •

وأخيرا ، نجد أن المصريين القدماء أدركوا أن النفس البشرية فى ظاهر اضطرابها وتباين حالاتها وتقلباتها لا بد أن تحوى عناصر مختلفة فى جوهرها ، متضاربة فى غاياتها ، ولا شك

---

(١) كتبت فى عهد الدولة الوسطى ٢١٦٠ – ١٧٨٨ قبل الميلاد •

أن المتصفح للقصص التى جاءت فى أوراق البردى ، يدرك أن تقسيم النفس الى "خات" التى ترمز للجسد الفانى ، والى "با" التى ترمز للروح ، والى "كا" ويرمز لها بذراعين قويين ، يدرك أن هذا لابد أن يدعو للاهتمام . ولا يتسع المجال لذكر التقسيمات الأخرى التى لها أهمية فى السحر وغيره مثل "رن" و "خيبت" و "ساه" وغيرها . وقد وصفت الكا على أنها تعنى القرين Double . هكذا قال ماسبيرو ، وتبعه كذلك ايرمان . غير أن والس بدج يقول انه من الصعب تقرير ما هى هذه "الكا" ، وما طبيعتها ، لأنه مرارا ما يستنتج من صياغة النصوص أنها قد ترمز لأشياء مختلفة ، مثل الطابع الشخصى ، أو الخلقى ، أو العقلى . غير أننا عندما نتصفح مثلا قصة الرجل المكتئب الذى يلتمس الانتحار ، التى جاءت فى بردية برلين ، والتى نشرها ماسبيرو عام ١٨٧٤ ، ومن بعده ايرمان ، نقول عندما نتصفح هذه القصة ، يتضح لنا عن طريق "المناجاة" فى القصة أن "البا" الذى يمثله الطائر المعروف بالأبيس Ibis يرمز لما نستطيع أن تسميه اليوم بالجزء من الذات Ego الذى يعرف عند يونج Jung وأتباعه بالبرسونا Persona وهو الجزء الاجتماعى "للذات" الذى تتمركز فيه وظيفة الشعور ، كما أن "الكا" نجدها تمثل مخلوقا عنيفا فى طبيعته . "فالكا" تطلق اسما للثور عموما ، وترمز كذلك للاله حورس الذى يمثل أحيانا فى صور العجل(١). كذلك نجد أن لفظة "كات" ، من الناحية اللغوية ، تعنى العمل . واشتق منها

---

(١) من المدهش أن الثور الذى يرمز لحورس فى مصر القديمة كثير الشبه بالفصيلة البقرية التى تستعمل اليوم فى أسبانيا لأغراض المصارعه ، والتى تمتاز بالضراوة والشراسه ، وهم يرجعونها الى أصول أفريقية Taurus Africanus

« خات » اجسد الفانى — « با » الروح

« كا » القرين — « رن » الاسم

كذلك اسم السحر "حكا"(١). ولذا فان الكا قد يرمز للقوى الغريزية للعقل الباطن • ومما يؤيد ذلك أن "البا" فى هذه القصة كانت تغرى اليائس بالحياة ، وتبث فيه الامل ، وتمنيه بالسعادة ، وتحذره من عواقب الطيش ، ومن غضب الاله اذا ما انتحر • فكانت تمثل "البرسونا" • وربما تضمنت جزءا من الأنا العليا المعروف بأل Super Ego • كما أن "الكا" فى عنفه وبطشه واستهتاره يمثل جانبا من نزوات "الاد" ID أى العقل اللاشعورى • هذه القصة من أروع ما يقرأ • وهى تدل رغم بساطتها على عمق التأمل الفطرى فى تلك العصور السحيقــه •

قال حنين بن اسحق فى تاريخه (نقلا عن ابن النديم فى مقالته السابعه فى ابتداء الطب فى كتاب الفهرست) "قال ان قوما قالوا ان أهل مصر استخرجوا الطب ، والسبب فى ذلك أن امرأة كانت بمصر ، وكانت شديدة الحزن والهم ، مبتلاة بالغيظ ، والدرد ، ومع ذلك كانت ضعيفة المعدة ، وصدرها مملوءا أخلاطا رديئة ، وكان حيضها محتبسا ، فاتفق أن أكلت "الراسن" شهوة منها له فذهب عنها جميع ما كان بها • ورجعت اليها صحتها وجميع من كان به شئ مما كان بها استعمله فبرأ • واستعمل الناس التجربة على سائر الاوجاع" • وأهمية هذه القصة ، التى لا تخلو من خرافة ، تنحصر فى أنها أول قصة وصلتنا سجلت سيرة المرض (هكذا قال حنين) • والمريضة ينطبق مرضها على وصف المالنخولية (٢). كذلك لأن استعمالها "للراسن" وله خصائص التفريح فى أمراض الكآبة – ذكره ابن البيطار فى كتابه – أذهب جميع ما بها وأخيرا فان هذا النص يشير الى بداية التجربة فى الطب • ونقول ، على سبيل الاستطراد ، ان حنين بن اسحاق شيخ تراجمة القرن الثالث

"حكا"
السحر

(١) وحرف الحاء فى اللغة المصرية القديمة يكتب على هيئة حبل فيه ثلاث عقد ولذا فان "حكا" أى السحر معناها قوة العقد وصلة السحر بالحبل والعقد "والربط" معروفة •

(٢) على هذا تكون المالنخولية أول داء يصل الينا تسجيل وصفه •

الهجرى ، كان يرى قيام الطب فجأة • وهذا بلا شك رأى له ما يبرره فى ذلك الزمن ، لأن المجتمع لم تتبين بعد حقيقته وكنهه وبقيت كذلك الى حين عصر ابن خلدون • ولهذه النقطة أهمية عملية • لأن وسائل العلاج ، وخاصة فى الصحة العقلية ، بدأت تقوم على أساس المجتمع • والطابع الجماعى يميز العلاج الدينى وأساليب السحر منذ أقدم عصور التاريخ • أما فى الطب ، فلم تبرز أهمية المجتمع ، ولم تستغل عمليا لغرض العلاج ، والتأهيل، الا منذ عهد قريب • وقد مهد لذلك انحلال النظام الطبقى التقليدى وقيام "الطبقات الوسطى" الذى كان نتيجة حتمية لانتشار الفلسفة الاشتراكية •

وكان الطب (والصحة العقلية ضمنا) فرعا من فروع الدين وهنا لا بد من ايضاح ، وهو أننا عندما نقول "الدين" يجب الا يتبادر الى الذهن خلو هذا المعنى من وسائل أخرى تمت الى السحر والى الوسائل التجريبية الطبية ، لأن الاشارة تقتصر بالضرورة على الطابع الغالب • على أننا لا زلنا الى اليوم نجد اتصالا وثيقا متبادلا بين الطب و "بين الدين والسحر" كما أن الدين ما زال يستخدم فى وسائله بعض الطب وبعض الوسائل الغيبية ، وكذا نجد السحر تتصل وظيفته اتصالا وثيقا بالعلاج وبمظاهر العقيدة الدينية • وقد ذكر اسحق بن عمران ، الذى عاش بالقيروان فى القرن التاسع الميلادى خلال حكم الأغالبة ، فى مؤلفه المعروف ب "المالنخولية" (داء السوداء) أن بعضا ممن اختاروا المقام داخل الأربطة والزوايا والتكايا واستأثروا بالوحدة وانفردوا طلبا للتأمل والعبادة ، كانوا سوداويين فى الأصل والواقع يؤكد ذلك • والحقيقة أن بعض الامراض قد تختفى طبيعتها المرضية تحت ستار بعض الظواهر الاجتماعية وقد لا يستطيع الباحث ادراك حقيقتها الأصلية اذا كان اتجاهه شكليا (يبحث عن العرض دون الجوهر) وقد أدركت مما سمعته من الباحثة Dr. Fields عند لقائى بها فى الكنغو عام ١٩٥٧ كيف أن بعض أنواع المالنخولية ظلت مستترة تحت مظاهر السحر Witchcraft امدا طويلا •

وقد عرف الكهنة فى مصر القديمة الكثير من القيم

النفسية فى العلاج وأدركوا مدى الطاقة السيكلوجية الكامنة فى العقار فضلا عن قوته الطبيعية • وكانوا يرددون الأناشيد التى تدخل الطمأنينة على النفس وتقوى العزم قبل مباشرة العلاج ، لأنهم كانوا يؤمنون بأن عملية العلاج الناجحة تعتمد فى وظيفتها على انتهاز الفرص الحاسمه ، لا على التطبيق على أساس عشوائى دون اعتبار لظرف الزمان ولصلة ذلك بنفسية المريض • ومن ضمن هذه الأناشيد ما جاء فى بردية أبر Eber (ترجمة ابل Ebell الى الانجليزية) : لقد أتيت من مدينة الشمس ومعى شيوخ المعبد المالكون للشفاء والواهبون للأبدية ، أتيت من صايص فى ركاب الأم المنجبه للآلهة الذين منحونى حماهم ، أتيت وفى حقيبتى وصفات من الاله الأكبر تشفى من كل داء عضال أرادته الآلهة أو الآلهات وتقى من كل سوء سببته أرواح الموتى • وبلاغة هذه الأنشودة وأثرها السيكولوجى فى النفس لا يحتاج لتدليل •

ونستخلص مما تقدم أنهم كانوا يعتقدون أن المرض ينشأ اما من غضب الآلهة أو من تأثير أرواح الموتى ومن المشاهد أن الفكرة الشيطانية Demonology لم تنبعث فى مصر الى عصور متأخرة ولم تكن ذات أهمية واسعة لأن اعتقاداتهم فيما يتعلق بأرواح الموتى قد فسرت كل شىء • وبالتالى أغنتهم عن تلمس نظريات تفسر لهم ما هم فى حاجة لتفسيره •

ولهذه النظرية آثار اجتماعية بعيدة المدى ، نذكر على سبيل المثال الطقوس الجنائزية التى كان من بعض أغراضها حماية الاحياء ، والتى نشأت نتيجة للرهبة القوية التى تثيرها أرواح الموتى ، لدرجة أنهم نقلوا مقابر موتاهم عبر النيل الى الضفة الغربية • وكانت أسس العلاج على صلة وثيقة بهذه النظرية التى تبين "الأسباب للمرض" ولذا اتجه العلاج اتجاها روحانيا يقوم على مبدأ حيوية المادة Animism • هذه الرابطة بين نظرية المرض وبين صفة العلاج لها أهمية كبرى لأننا نجد دواما وفى كل عصور التاريخ ، فيما بعد ، أن سببية المرض تكيف طبيعة العلاج • واكرر أن هذه الصلة صلة أساسية للغاية • وعندما نمعن النظر فى أوراق البردى الطبية نجد أن

الكاهن كان المستنبط لسببية المرض ، وكان المؤلف لأسلوب العلاج على السواء ، كذلك نجد ان بعض الظواهر النفسية المرضية المتولفة الأعراض : Symptom Complexes ، التى تظهر لعاما ثم تختفى ، كانت واسعة الانتشار كانتشار الهستيريا اليوم وفى هذه الحالات نجد أدلة لا يتطرق اليها الشك ، أن الكهنه كانوا يتمتعون بكفاية وجدارة فى علاجها . ومن العجيب أن حالات الهستيريا اليوم بين بعض طبقات المرضى لا تكاد تختلف فى تعبيرها عما كانت عليه منذ آلاف السنين ، كذلك نجد أن توليف هذه الأعراض وقيامها كان من وحى هؤلاء الكهنة وانشائهم ويمكننا القول تلخيصا لما سبق أن نظرية المرض لها أهمية فى تكييف العلاج وتقرير طبيعته ، وسوف نرى أن لهذه النظريات أثرا لا ينحصر فى العلاج فقط بل فى نشوب المرض أيضا لأن لها حدين كالسيف ورغم ذلك فقيام النظريات أمر ضرورى من العسير رفضه ويكفى أن جاليليو فى كتابه المسمى "بالحوار" عند ما وضع الأسس التجريبية للبحث العلمى بدأ بالنظريات ثم مهد عن طريقها للوصول الى النتائج ، فصار ذلك دستورا للمنهج العلمى فى الأبحاث ونجد أن التعبير اليونانى Iatrogeny الذى يتضمن معناه أن الطبيب قد يصبح أداة لاشعورية لبث المرض عن طريق قوة ايحائه اللاشعورى ، نجد أن هذا يعكس حقيقة واقعة وقد استطعنا فى دراسة قمت بها وزميلى الدكتر طه بعشر بالخرطوم استطعنا أن نعثر بين بعض "مدمنى شكوى المرض" المعروفين بال Hypochondriacs ، استطعنا أن نعثر بينهم على طبقات متراكمة من الأعراض لها نشوء تاريخى فى طبوغرافية المرض ، أمكننا تتبع بدئها ونشأتها واستطعنا كذلك ارجاع هذه الطبقات المرضية الى بواعث تمت الى نظم المعالجة ، والى انطباعات لها صلة بفلسفة الطبيب المداوى ، والى اتجاهاته المهنية والعامة ، وهذه أمثلة لقوى ايحاء الآراء والأفكار Potency of ideas وهى ظاهرة لم تدرك قوتها على حقيقتها بعد بيننا معشر الأطباء لأن فلسفة التعليم الطبى لا تزال تقوم على توطيد الفكرة المادية دون ابراز أثر المجتمع فى الصحة والمرض ، ولعل بعض الأمثلة فى هذا الصدد توضح ما نحن بصدده فقد كنا نعتقد الى عهد قريب،بل نغالى

فى اعتقادنا،بأن العادة السرية قد تؤدى الى اضرار جسيمة بالصحة ونتج عن هذا الاعتقاد الخاطىء أن كثيرا من المراهقين قد دفعهم الخوف من عاقبة ممارستهم لهذه العادة الى براثن الوهم والمرض ، ولكن بعد تبين افتراء هذه النظرية التى قامت على أساس "دوافع خلقية" بعد أن تبين ذلك نتيجة للأبحاث التى نشرها كنزى Kinzy ، لم تعد ترى منهم الا العدد القليل ، وانتشار الوهم بالسرطان بين العاكفين على التدخين على نطاق متزايد دليل جديد على أثر الايحاء .

ونتيجة لهذا ولما سوف نجىء تاليا ، يمكننا القول بأن "القوة الفعالة" فى حدوث المرض النفسى قد تقوم على أسباب تتصل بقوة الفكرة وايحائها دون تدخل أى عامل يمكن تفسيره عضويا . واذا كانت هذه طبيعة المرض فما هى طبيعة العلاج النفسى ؟ ما كنهه وما أصوله ؟ هل تقوم كفايته على حقائق نستطيع تعليلها عن طريق العلم ؟ هل هو ظاهرة تخضع لأصول اجتماعية ؟ هل له صفة علمية مقررة لازمة لنجاحه ؟ هل من المحتم أن نجد التعليل العلمى المنطقى لكل نتيجة ؟ وهل فى ذلك ضرورة للاقناع ؟ هل ينبغى أن تكون نظرتنا لكل شىء علمية بحته لا أكثر ولا أقل ؟ ان هذه الأسئلة تكون مشكلة كبرى اذ أننا نستطيع أن نجزم بأن العلاج النفسى الناجع استطاع أن يقوم به فى كل حقب التاريخ رجال الدين ، وقام به السحرة والمدعون والمتجرون والممخرقون والبلهاء وغير العقلاء فضلا عن الأطباء ، وذلك لا يحتاج برهانه الى أدلة تاريخية لأننا نشاهده اليوم بيننا دون أن يكون فى ذلك تحقير لشأن العلم لأن العلم أداة نافعة من أراد استعمالها حملها .

ويمكننا أن نمثل المرضى من الناحية الاجتماعية فى قطاع يتألف من طبقات تمثل درجات متفاوتة من التطور الاجتماعى كما هو الحال فى واقع المجتمع اليوم ، يقابلها نظم من العلاج تمثل أطوارا من تجارب المجتمع فى تاريخه كله ، وتتلائم كل منها ، اجتماعيا وثقافيا ، مع طبقة من المجتمع تماثلها من الناحية التطورية . ورغم أن هذا وصف تقريبى فانا نجده حقا مثال ذلك أن الطبيب الماهر المتأهل فى العلاج النفسى قد لا يستطيع أن يشفى مريضة قد يشفيها الدجال او عابر

السبيل(1) مثلا • وهذا يذكرنا بالكلمة البليغة التى قالها أدولف ماير "اذا ما اتفق الطبيب والمريض على كنه المرض وسببه بدأ التحسن فورا قبل مباشرة العلاج" • على ضوء هذه الحقائق يمكن القول بأن طبيعة العلاج النفسى وفعاليته لا تقوم على مبادىء ثابتة لها قوانين تخضع للأساليب العلمية النوعية ، ولكن ربما تقوم أركانه وطبيعته على مايلى :ـ

قيام نظرية توضح سببية المرض يقبلها المريض والمجتمع تقوم عليها نظرية علاجية تحمل فى مضمونها نظرية السببية • ويمكننا حصر هذا فى ظاهرة واحدة هى قوة ايحاء الأفكار أى أثر الآراء المحكمة ذات الطابع التقليدى التى عبر عنها اسباينوزا Spinoza "بالآراء السديدة" Adequate Ideas وعلى هذا ندرك لماذا كانت وما زالت تنجع أساليب العلم ووسائل الدين وطرق السحر والدجل • ولماذا نجد أمثلة لمعجزات كبرى فى بطون التاريخ • كذلك ندرك لماذا تنجع على السواء طرق فرويد وادلر ويونج رغم تباينها فى الوسائل بين شيعتهم • وقد ذكر "تانزى" Tanzi العالم الايطالى فى صدد وصفه للبرانويا (ذهان التعاظم) فى القرن الماضى ، كيف أن بعضا من هؤلاء المرضى ، فضلا عن ادعائهم للنبوات والألوهية ، قد حققوا معجزات صادقة فى العلاج • وكيف أن بعضهم قد قامت نبوته أصلا على معجزاته فى العلاج • وعلى هذا فليس هناك حاجة ماسة للبحث فى جدلنا عن أصول أولية أو نهايات أزلية للعلاج النفسى • ومما يزيد ذلك توكيدا أننا وجدنا فى جنوب هذا الوادى أن بعضا من المصابين بالقلق وغيره من الاضطربات النفسية قد ينتكسون عند ما يصبح فيضان نهر النيل وشيكا • وهذه حقيقة معروفة أصبحت مضرب الامثال • وقد قمت بتقصى هذه

---

(1) ليست هذه دعوة للنكوص ولكن لابد من فهم الامور على حقيقتها • ومعنى أن "الجاهل لأصول المهنة" قد يزيل مرضا لايعنى بالتالى صلاحيته لممارسة المهنة لأن القدرة على الاشفاء مهما كانت وسائلها لا تفى وحدها بالاشتراطات التى تحمى المجتمع : ولو طبقت مثل هذه القاعدة لاختلت النظم المهنية وحلت الفوضى فى كل مكان •

الظاهرة التى أثبتت تجاربنا صحتها ولم نجد تعليلا لها يقوم على طبيعة عضوية من المرض أو على احتمال يمت الى أسباب ترتبط بعوامل أخرى ، واستبان فى النهاية أن هوءلاء المنتكسين يعانون من الخوف من النكسة عند ما يصبح الفيضان وشيكا لاعتقادهم فى خرافات قديمة • وجلية الأمر أن هذا الخوف من الانتكاس قد يصبح سببا للانتكاس • ولا غرابة فى ذلك لأن النيل اله • ولا تزال بعض طقوس عبادته القوية متفشية بيننا • وليس من شك أنه من أقدم آلهة وادى النيل ، ونجد طابع القدم فى الأناشيد التى تشير الى منبعه من "كرتاى" وهى مدينة كورتى الحالية بشمال السودان • وهذا مما يطابق وصف الجيولوجيين لنهر النيل القديم Protonile قبل اتصاله ببحيرة السد التى كانت قديما تنتهى فى "السبلوقة" شمال الخرطوم • وهنالك طقوس عديدة يتقربون بها اليه ، لا جلبا لنعمته ولكن دفعا لنقمته ، لا تزال لها قوة سيكلوجية • وكان النيل يمثل فى شخص رجل له ثديان Gynecomast يرمزان الى نعمته واخصابه • ورغم هذا فأنهم كانوا يتقربون اليه بالقاء كاعب حسناء يحتضنها بين أمواجه • وكان يوصف النيل بأنه "أب للآلهة" • وأنه "خالق لكل شىء" • ويرجعون أصله الى المستنقع الأزلى "نو" الذى تم فيه خلق "رع" كبير الآلهة • وذكر ماسبيرو أن رع بعد خلقه للكون قام بخلق المصريين ثم الليبيين من بعدهم ، وبعد أن فرغ من ذلك لم يجد ما يكفيه لخلق بشر جديد فاستمنى الاله الأكبر وخلق السودانيين ، فالسودانيون من نسل الالهة وتجب الاشارة الى أهمية الطقوس المتصلة بالنيل فى الزار • وفى مخطوط معزو الى الامام جلال الدين السيوطى يسمى "مجموع الكواكب البهية فى نيل مصر الزهية" نجد خارطة تشبه ملامحها ما تخيله الجيولوجيون قديما

« حعب »
النيل

« كرتاى »
مدينة كورتى

« نو »
المستنقع الأزلى

« رع »
اب الآلهة

كبيرة السد • والقوة السيكلوجية لهذا النهر الخالد فى نفوس أبنائه لا يزال لها بالغ الاثر • وربما تفسر لنا صعوبة المشاكل التى ترتبت على مياه النيل من الناحية الدولية والتى كان الوصول الى حال لها معجزة •

ونسوق أمثلة أخرى لقوة الوهم فى نشوء المرض وفى علاجه أيضا • ففى دراسة مقارنة قمنا بها لبحث العوامل الاجتماعية العامة لمعرفة مدى اسهامها فى خلق المشاكل والاضطرابات التى تصاحب معاقرة الخمر وادمانها • مستثنين حالات الادمان المرضى التى تقوم على عوامل نفسية واضحة المعالم بالنسبة للمدمن ذاته ، أمكن فى النهاية وضع النتائج فى قطاع منحدر الوظيفة يمثل أبعادا ثلاثة من الشرب تختلف اختلافا ظاهرا فى مدى الآثار المترتبة على الشراب •

البعد الأول – يمثل الشرب بين بعض القبائل الافريقية ، حيث يعتبر المشروب الكحولى غذاء أساسيا ويمارس فعلا على أساس ذلك ، وحيث نجد أن الشراب فى بعض أوجهه وظيفة اجتماعية لها شعائر وطقوس والزام • وقد وجدنا أن هذا النوع من الشرب لا يؤدى الى مضاعفات على الاطلاق ، ورغم أنه من الاستطاعة أن نجد بين هؤلاء من يبلغ افراطه حدا يمكن اعتباره ادمانا حقيقيا ، ولكن حتى هؤلاء لا نجدهم يعانون آثارا نفسية شديدة بالنسبة لما يعانيه مدمنو الشراب فى المجتمعات الأخرى ، لا لأن النظام الاجتماعى يقر أو يحتمل البعض من أنواع هذا الشذوذ فحسب ، بل لأن المدمن لا يحس ، ولا المجتمع كذلك يحس بأن الادمان رذيلة اجتماعية ضارة فالخمر غذاء نافع • وقد دفعتنا الضرورة لتبسيط هذه المسألة ولكن رغم ذلك فهى تمثل الحقيقة الواقعة • وأذهب الى أبعد من ذلك فأقول ان الذين لا يعاقرونها على الاطلاق فى تلك المجتمعات ربما يكون بعضهم من طبقات الشواذ ، وتوضيحا لذلك أعيد ملاحظة سبق نشرها فى بحث آخر ، وهى أننا وجدنا فى السودان وبين قبائل البدو الرحل خاصة أن الطفل الذى يسرق من داخل داره يغلب أن يكون مجرما أكثر من الطفل الذى يسرق خارج داره • لأن السرقة خارج الدار من رواسب العادات القبلية

التي كانت تسود هذا الصنيع من الناحية الاجتماعية فى الماضى . ولكن السرقة من الدار كانت فسادا خلقيا وهذا ما لا ينطبق على المجتمعات ذات الذاتية الجغرافية ودراسة الصعاليك والصعلكة عند العرب قد تساعد على فهم طبيعة هذه المشكلة . هذا والطفل الذى يسرق خارج الدار يعيد فى تاريخه القصير تاريخ قبيلته الطويل كما يقول المبدأ البيولوجى المشهور Ontogeny Repeats Phylogeny . وقديما كان الشاب الذى لا يجرؤ على قطع الطريق يعد خائر الشكيمة ولا يجسر على مخالطة الفتيات فى قبيلته - والطفل الذى لا يسرق فى تلك المجتمعات لا يتمتع بالعوامل النفسية التى تسهم فى تكامله تكاملا تاما حسب المقياس القبلى للسلوك . وعودا على بدء ، نقول ان الذى لا يشرب فى تلك المجتمعات الافريقيـــة هـو الشــــاذ .

والطرف الآخر لدراسة الخمر يمثل شرب الخفاء . يمثل الذين يعاقرونها سرا فى المجتمعات التى تحرمها أديانها وعقائدها والتى لا يزال الحكم الأخلاقى فيها قائما على أسس دينية - ففى السودان مثلا - حصلنا على أمثلة من هذا النوع . ومما أدهشنا أن المضاعفات السيكلوجية التى تلازمها لا يمكن تفسيرها من حيث حدتها الا على أساس ظاهرة اجتماعية . ومن العجيب أن فرض اجهزار الشرب لا مندوحة منه فى هذه الحالات لكى ينجع العلاج ، وتلازم أكثر هذه الحالات شكاوى وأعراض تشبه الأعراض التى نراها بين مدمنى المرضى Hypochondriasis . وبعض هؤلاء المدمنين قد ينجون من ادمان الشراب باللجوء الى "التدين" حتى يصبحوا مدمنين بالفعل ، وطابع تدينهم ينحصر فى العبادات لا المعاملات ، وهؤلاء يدفعون ثمنا باهظا للنجاة من براثن الخمر وبعضهم يلجأ لادمان المخدرات ، لأنهم فى تدينهم قد يخدعون أنفسهم بتشككهم فى تحريم المخدر لعدم وجود النصوص الصريحة . والتحول من ادمان الى ادمان ظاهرة طبيعية نسبة الى قيام هذه الظواهر جميعها على أساس سيكولوجى واحد . وقد يحل بعض أنواع الادمان مشكلة أكبر من طبيعته ، كما وجدنا فى التدخين ، وقد يوقع الاقلاع من ادمان

الى نوع من الادمان أشد أثرا ، كما وجدنا فى بعض أنواع القمار • وفى حالات قليلة قد يكون ادمان الخمر علاجا لمشكلة أشد خطرا • وقد يكون محاولة يائسة للاحتفاظ بالبقية الباقية من اتزان العقل • هذا والمشاكل الاجتماعية التى تدمن ويستعصى حلها قد تقود الى الخمر مثلا • وقد ذكر لين Lane أن انتشار الدخان قد خفف من استعمال الناس للمسكرات • وقد وجدنا أن بعض هوءلاء الذين يشربون فى الخفاء والذين لم تنجع فيهم أنواع العلاج التقليدى ، وجدنا أن بعضهم قد أقلع أثر تجربة دينية عميقة صادقة — ولدينا ثلاثة حوادث شفى أصحابها بعد قيامهم بشعائر الحج • والمعروف الآن أن علاج ادمان الخمر قد ينجع فيه العلاج بالأساليب الجماعية التى يقوم بها المصابون أنفسهم مع غيرهم ممن أقلعوا عن الخمر • وتاريخ الحركة التى ظهرت فى أمريكا تحت اسم Alcoholic Anonymous ونتائجها التى تفوقت فيها على نتائج العلاج الطبى ، خير دليل على ذلك •

أما النوع الثالث فهو الشراب الاجتماعى الذى نراه متفشيا فى المجتمعات الغربية الذى لا يحرمه الدين ولا ينكره المجتمع ما دام فى حدود الاعتدال • ولكن نسبة لعوامل كثيرة ، نشأت فى هذا العصر الآلى دفعت الى تغيير نظام المجتمع ، أصبح الشراب مشكلة كبرى بالنسبة للعمل ولعامل الوقت وبالنسبة لازدحام الحياة ولمشاكل المرور — ولذا أصبح مشكلة طابعها اجتماعى أكثر منه فردى • ونجد أن مشاكل الخمر السيكلوجية فى هذه المجتمعات قد زادت بالفعل مع زيادة المشاكل الاجتماعية للشارب وخاصة بالنسبة لقيادة السيارات •

فى هذه الأبعاد الثلاثة ، نجد أن مدى الأعراض يختلف باختلاف الموقف الاجتماعى الذى يكون عاملا مهما فى نشوئها وحدتها • ومن تجارب أمريكا قبل الغاء الحظر على المسكرات ، نجد أنه بالرغم من أن الادمان قليل فان التسمم الحاد كان أكثر انتشارا لأن الشارب ينتهز مثل هذه الفرص ليرضى نزعته المحرومة • وقد وجدنا ان هذه الوظيفة الانحدارية Gradient Function قد تساعدنا على فهم مشاكل

المخدرات أيضا وعلى تحديد الآثار السيكلوجية المترتبة على موقف المجتمع من المدمن. ففى الحشيش مثلا تتوفر الأدلة لدينا أنه كل ما ازدادت صرامة العقوبة والتأديب كلما ازدادت حدة المشاكل النفسية بين العاكفين عليه. ولربما كان للعامل الاقتصادى (ارتفاع الأسعار) بين الطبقات المحدودة الدخل أثر ثانوى.وفى بعض الجهات الاستوائية حيث يزرع الحشيش وحيث ينتشر استعماله وحيث لا نجد مشاكل اجتماعية بصدده نرى أن أضرار الافراط قليلة جدا . ثم فى بعض جهات الشرق الأوسط ، حيث ينتشر نسبيا عادة تدخينه وحيث تكون العقوبة معتدلة ، نجد أن الأضرار السيكلوجية أخف بكثير مما نراه فى البلدان التى يتخذ القانون فيها مواقف أشد صرامة - والحقائق التاريخية تؤيد ذلك . وقد ذكر "بل" Bell صياد الفيلة المشهور فى كتابه Wanderings of an Elephant Hunter

انه فى أحدى جولاته قبل الحرب العالمية الأولى للصيد فى جهات بحيرة رودلف انقطع مورده من الدخان ، فطلب من رئيس قبيلة أن يمده بالدخان الذى يستعملونه ، ولما أمدوه بالدخان أعجب به كثيرا وذكر أنه استعمله سبعة أشهر ووصفه بأنه أحسن دخان استمتع به . ولكنه قال ان له تأثيرا يشبه تأثير العقار . ولم يكن يجول بخاطره أبدا أنه كان يدخن الحشيش طول اقامته هناك ولو علم ذلك حتى بعد الانتهاء منه فليس لدينا من الشك من أن هذا الادراك قد يؤدى الى وهم ربما نشأت عنه مخاوف قد تصل الى حدود المرض . ولكن "بل" كان يتمتع بشخصية ناضجة متكاملة . زد على ذلك أن كتابه لا يفصح عن السجايا الخفية للاستعداد للادمان وهى فى أقل مراتبها تتمثل فى النمط الروتينى فى السلوك وفى النزوع الى التكرار ، وفى ضيق الهوايات وغيرها . وأخيرا فأن طابع الادمان يتنافى مع حياة الرحالين النشطة . ويمكننا انصافا لأنفسنا معشر البشر الكادحين ، أن نقول ان حاجتنا الى المنبه أصبحت كحاجتنا للضروريات فى الحياة سواء كان من الشاى أو القهوة أو الدخان أو غيرها . واختيار المنبه أو المخدر يقوم على عوامل جغرافية أو سيكلوجية أو اقتصادية أو أجتماعية أو

عشوائية أو بعضها مجتمعة • على أن طبيعة الشعوب ، وخاصة فيما يتعلق بالمخدرات ، لها وزن وأهمية • فقد لا يصلح الأفيون مثلا لشعب له طابع فكرى خاص • ولذا قد لا ينتشر على مدى واسع رغم توفر الظروف الحسنة • كما قد ينتشر مخدر آخر، ولهذا فلا مندوحة من القول أن للحشيش طابعا عقليا خاصا وللأفيون كذلك وللقات أيضا ولغيره ، كما أن بعض الشعوب قد لا تكون بطبيعتها وتجاربها المكتسبة عرضة للادمان • وهذا ما لا يمكن تعليله فى حدود ضيقة على أساس البنية فحسب لأن الادمان كظاهرة سيكلوجية لها أصول متعددة يرتبط بالبعض • ولربما تسعفنا فكرة التاريخ فنجد مثلا أن بعض شعوب الشرق القديم الضاربة فى البحار المتجشمة للأخطار فى سبيل التجارة قد لايحتمل أن تكون عرضة للادمان ، ولكن ربما تستهويها كسلعة للتجارة فيها • كذلك نجد أن بعض الشعوب فى كفاحها الطويل وفى اجترارها لالآمها ، قد تعثر فجأة على عقار مستجلب قد تلجأ اليه فى بحثها عن سعادة وهمية • وهنا يكمن الخطر • ولدينا من الادلة ما يؤيد أن تدخين الحشيش كان منتشرا على مدى واسع فى عام ٩٢٤ هـ كما ذكر بن اياس فى "بدائع الزهور فى وقائع الدهور" • كذلك نجد اشارات عديدة الى تحريمه فى فتاوى ابن تيميه (توفى عام ٦١٧ هـ فى قلعة دمشق) والزركشى والمناوى وغيره من رجال الأزهر الشريف • وقد أشار لين Lane الى أن عادة الأفيون قد لا تتفق تماما مع طبائع بعض الشعوب وأشار الدكتور كلوت بك الى أن الحشيش منتشر بين بعض طبقات الشعب وخاصة التى ترزح تحت ظل الفقر والفاقة وقال ان الأفيون كان نادرا بين هذه الطبقات ولكنه كان شائعا بين الحكام الأجانب فى ذلك الوقت "الذين يميلون الى التخدير به وهو فى الحقيقة أليق بهم بالنظر الى ما فطروا عليه من حب السكون والميل الى التأمل • أما الحشيش فأميل اليه من جبل على حدة التصور وسهولة الاختراع وقوة الحركة والميل الى كل مدهش أو مستغرب" • وهذا صحيح لأن الفرد يبحث فى المخدر عما يلائم سجاياه وعن نوع من التجربة تتفق مع أغراض نوازعه وميوله • ومن الصعب أن نفسر فعل العقار على أساس الأثر الظاهر من سلوك

العاكف عليه ولكن هناك اتجاهات سلوكية عامة تميز فعل العقاقير المختلفة تبديها القصة المعروفة عن الثلاثة (صاحب الخمر وصاحب الحشيش وصاحب الأفيون) الذين أرادوا دخول أصفهان ليلا وكانت أبوابها مغلقة قال صاحب الخمر لنحطم الباب ولندخل عنوة . وقال صاحب الأفيون لنضطجع الى أن يصبح الصباح وتفتح الابواب . وقال صاحب الحشيش لندخل من خرم الباب(١).

وربما يمدنا تاريخ دخول القهوة الى مصر وكذلك دخول التبغ عن معلومات نافعة فى هذا الصدد ، وخاصة فى بعض قصص المباهلة بين الشيخ على الأجهورى والشيخ ابراهيم اللقانى ، والتى وصل صداها الى السودان فى ذلك الحين (قرب نهاية القرن العاشر الهجرى) وأسهم فيها الشيخ أدريس بن الأرباب المتصوف السودانى المشهور ووقف الى جانب الشيخ على الأجهورى موءيدا وجهة نظره وكانت بينهما مراسلات ودية أشار اليها الموءرخ السودانى ابن ضيف الله المتوفى اوائل القرن الهجرى الماضى . وهى توءكد ما قاله الاسحاقى فى تاريخه من أن التبغ بدأ ينتشر استعماله فى العالم الاسلامى فى القرن العاشر الهجرى . وقد ترك العالم المصرى محمد قناوى فى أواخر القرن الهجرى الماضى رسالة فى أضرار القهوة والدخان والحشيش "نصيحة الاخوان فى اجتناب القهوة والدخان" وتحدث فى رسالة أخرى عن القات "شاى العرب" وبالرغم من هذا فيجب ادراك أن الشعوب فى حركة دائبة من التطور ، وأن العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدولية لا تخلو من تبديل نفسية الشعب وتغيير أوضاعها التى يقوم عليها الادمان وغيرها من المشاكل وقد أدى ذلك بالفعل فى بعض بلاد الشرق الأقصى الى انتشار أنواع جديدة من العقار المخدر المستنبط عن طريق التوليف الكيمائى Synthesis مما كان له أثر فى خلق مشاكل خطيرة بين طبقات المراهقين من الشباب على الأخص وهذه ناحية تنبغى

---

(١) نوجه الأنظار الى الدراسات القيمة عن مشكلة المخدرات التى قام بها صديقنا العلامة الدكتور صبرى جرجس .

دراستها والعناية بأتخاذ سبل الوقاية منها فى هذا الاقليم لأن بعض هذه العقاقير قد تغنى عن الحشيش بفرض نوع من الادمان أشد خطرا من الناحية الصحية والاقتصادية • وقد أدركنا أن النفوس البشرية ، وخاصة فى صلاتها الجماعية ، لا يمكن وضع حدود لامكانياتها الخارقة وهذا ما حدا الى قيام العلاقات الجماعية العلاجية فى الصحة العقلية • وقد علمتنا تجاربنا أن للنفس البشرية طاقة لا حدود لها اذا استطاع الطبيب أن يدركها وأن يلتمسها فى العلاج • وكثيرا ما اختفت الأعراض واضمحل الداء فى يسر كأن لم يكن • كذلك للكثير منا ملكات يمكن تسخيرها للعلاج ، نحن أقل الناس دراية بها وادراكا ولربما يموت الكثيرون دون ادراك ملكاتهم العظيمة الأخرى ، وتقول حكمة معبد : "ادلفى" اعرف نفسك • ومعرفة النفس أساس لكل أنواع المعرفة ونجد أن فى فترات الثورات من تاريخ الشعوب يستطيع القادة النابهون خلق المعجزات ، لأن الطاقة البشرية تهب من أعماق النفوس ويتجاوب صداها فى القيادة الرشيدة وندرك ذلك من طبيعة سيكلوجية الجماعات الثورية • وفى الثورات نجد أصلح الأزمنة لوضع الأسس الجديدة لكل شئ وخاصة للصحة العقلية التى ـ نسبة لمصمونها ـ ربما لا تقوم تشعباتها الاجتماعية فى فترات الهدوء والكساد لأن البناء قد يضطر للهدم • وهنالك سوءال لابد منه لكل عامل فى حقل الصحة العقلية العامة : مثلا عندما كنت فى خدمة مواطنى فى جنوب هذا الوادى كنت أسائل نفسى دواما كيف وعلى أى وضع يقوم مجتمعنا ؟ لأن فى قيامه ضرورة لقيام الصحة ، لأن الصحة تنبع أصولها من المجتمع ويتطور جوهرها معه تحت ظل الأحداث الاجتماعية والاقتصادية والسياسية دون أن تفقد نواتها الأولى• ثم ان الصحة العقلية فى أى بلد لا تقوم الا على حضارته وماضيه وتجاربه وتاريخه وكفاحه وآلامه وآماله ، والصحة العقلية فى الغرب تقوم على أسس تختلف فى جوهرها ، وهذا طبيعى لأن الناس يختلفون فى كل شئ حتى فى القيم والمبادئ دع عنك البيئة • وتبعا لذلك فان الصحة العقلية لن تقوم لها مقومات الا على أساس مجتمع عربى فى كل بلد عربى • وفى هذه

الناحية يجب أن أقول ان الخدمات التى تسديها الهيئات الدولية لها مغزى كبير لأنها فى عملها فى حقل الصحة تخلق الروابط والأهداف الموحدة بين بلاد الاقليم التى تساهم حتما فى وحدة المجتمع بين أقطاره ٠

السـحر :-

ونتطرق الآن الى الحديث عن السحر ٠ نجد أن الطب فى بابل أضحى فرعا من فروع السحر (وسحر بابل ما زال مضرب الأمثال) ولابد من الايماء الى أن صنوف الكهانة والعرافة وأساليب السحر لها أهمية بالغة لأنها كانت طليعة الطب النفسى ، ولأن آثارها العلاجية لها أصول سيكلوجية محققة يستطيع المتأمل أن يتبين فيها النواة الأولى للتحليل النفسى والمسرح العلاجى وصنوف الاثارة والتفريغ Abreaction - ولصلة السحر كذلك بالعقاقير نسبة الى أن ظواهر السحر فى بعض مظاهرها تشبه ظواهر وأعراض بعض العقاقير ، ولأن السحرة كانوا بالفعل يستعملون الأدوية فى سحرهم وخاصة المخدر منها كالحشيش والمسكالين Mescaline والاتروبين ٠ ومن بين ما استعمل فى السحر أدوية اتضح للعلم قيمتها العلاجية ٠ كذلك كان لالمام السحرة بنفسية الجماعة الفضل فى استغلال الموسيقى والحركات الايقاعية من فروسية ورقص وغيرها من الحركات المضطربة التى تشبه نوبات الصرح لقصد العلاج ، وجميعها وسائل لا فرق فى جوهرها بينها وبين ما نمارسه اليوم سوى اختلاف الأساليب والطرائق والنظريات ٠ والأثر السيكلوجى للسحر قوى نافذ فيمن يوءمنون به وقد لمست من مشاهداتى نفاذه وقدرته على قلب الأحوال النفسية بين طبقات خاصة ٠ وقد وصلت الينا حالات من التهيجات العنيفة نتيجة لاستعمال خواتيم السحر المستقاة من شموس الأنوار للتلمسانى ومن شمس المعارف الكبرى للبونى - وكان المصابون فى حالات من الهياج والعنف واضمحلال الوعى نتيجة للخوف مما يشبه ما وصفه "مـــيرا" Mira فى كتابه عن الخوف الذى جمع فيه تجاربه خلال الحرب الأهلية بأسبانيا ، ولا غرو ففى الحروب الأهلية نجد أن

الصلات العميقة بين المحاربين قد تؤثر فى مفهوم الشجاعة والجبن والنصر والهزيمة مما يجعل الأمر مختلفا عما هو مشاهد فى الحروب العالمية ، ومن المهم أن نقول انه قد وجدنا فى السحر بعض الأفكار التى تنبع أصولها من العقل الباطن مباشرة وفى وضوح تام دون أن يعترى مضمونها أى تبديل لذاته . ونسبة لأسباب لا محل لذكرها نجد أن فى مضمون ذلك ما يؤيد نظرية يونـج Jung القائلة بأن العقل الباطن هو مصدر الأشباح والأفكار الشيطانية .

وقد ساعدتنا النماذج الشبحية Archetypes فى السحر وما ترمز اليه قواها وما تعبر عن طبيعتها من نزوات غريزية الى الوصول الى نتائج جدية لا تتأتى عن طريق نبذ دراسة السحر والوقوف منه موقفا أخلاقيا يهدف الى تحقير جدارته بالبحث ، لأنه ليس فى نطاق الحياة والعلم ما لا يجدر تحقيقه على الاطلاق . وفى الزار مثلا ، توصلنا بدراسة هذه النماذج التى تعرف "بالمشايخ" الى نتائج لها صفة تحليلية هامة فى التشخيص والعلاج – أغنت عن تفسير الأحلام – لقدرتها على التعبير المباشر لنزوات النفس وحاجياتها الفطرية والمكتسبة . ووجدنا أن كل نماذجه أو جلها تعبر عن حاجيات نفسية نوعية وتحكى أيضا عن سنة تطور هذه الحاجيات والرغبات تمشيا مع تطورات الحياة . ويبدو أن الخوف من السحر ومن السحرة انما هو الخوف من العقل الباطن ، وربما أن الحذر من أطباء الأمراض العقلية يرجع الى هذا بعض الشئ . والذين يقولون ان الزار نشأ منذ القدم لا شك مخطئون ، لأن للزار خصائص نوعية انفرد بها رغم مشابهته لبعض أنواع السحر . والزار أثيوبى الأصل وكلمة زار تعنى بالأمهرية الأرواح والأشباح وأول من وصفه بلاودن Plowden فى كتابه :–

Travels in Abyssinia and Gala Country الذى نشر عام ١٨٦٨ بعد وفاته وقال عنه بلاودن انه أشبه برقصة التم تم Tom - Tom مما ينطبق على "الروك أندرول الحديث" . كما أشار الى حالات التقمص .

ومات بلاودن فى مدينة غندار وقد رأيت قبره فى العام

الماضي عند زيارتي لأثيوبيا ـ ثم أشار اليه اشارات عابرة عدد من الرحالة الفرنسيين الذين زاروا أثيوبيا • ومن بعدهم العالم الهولندى Hurgronje فى عام ١٨٨٨ فى كتابه عن مكة الذى ترجم الى الانجليزية عام ١٩٣٧ • واستطاع هرجرونجي أن يرجع أصول الزار الى أثيوبيا • ثم وصفه الأمريكي Mc. Donald فى كتابه Aspects of Islam عام ١٩١١ وأشار الى رسالة كتبتها مدام رشدى عام ١٨٨٤ لم نعثر عليها(١)• ولم يصفه "لين" مع دقته وغزارة علمه ، ورغم أنه خصص فصولا للسحر والشعوذة • وقد وصل الزار الى السودان عام ١٩٠٥ ودراسة النماذج المتفشية فيه تؤكد مصدره الأثيوبي • وطبيعة الزار تقوم على ظاهرة التنويم المغناطيسي ونستطيع ادراك حقيقتها التنويمية بالاطلاع على ما كتبه مسمار Mesmer عن المغناطيسية الحيوانية ، وكذلك شاركو Charcot عن حوادث الهستيريا الكبرى Grand Hysteria وكذلك بيير جانيه Pierre Janet وبرنهايم وليبو Bernheim ; Liebault فى وصفهما للايحاء والاقناع ولكن أهم المصادر هو كتاب العالم الأمريكي مورتن برنس M Prince المسمى تعدد الشخصية Multiple Personalities وفى حلقات الزار وسائل من الترفيه فهو مسرح غنائي راقص وناد ومطعم وقديما دعت اليه حالة المرأة الاجتماعية ولا تزال تدعو اليه حالات المرأة بين بعض طبقات المجتمع ـ ولا تزال تتخذه النساء من كافة الطبقات نوعا من الترفيه وقد يلجأ اليه اليائس من يأسه • وقد ترك مورتن برنس فى كتابه المذكور وصفا دقيقا للحالات المتعددة التى كانت تتقمصها مريضته "سالى" Sally والتى هى أشبه بحالات الزار • وقد وصفت هذه الحالات فيما بعد على أنها جميعها من خلق "برنس"

---

(١) انه لمما يسرنا جدا أن المؤرخ الكبير أستاذنا الدكتور محمد شفيق غربال استطاع أن يدلنا على موضع الرسالة فله منا جزيل الشكر والثناء •

وايحائه فى مريضته التى كانت تمثل لا شعوريا ما يوحى اليها وأنها لم تكن ظواهر طبيعية • كذلك وصف جلسبى Gillespie حالات الهيستيريا الكبرى التى اختفت بعد وفاة شاركو على أنها من صنعه His Pygmalion

الاسلام: وفى عصور الاسلام نجد أن المجتمع أصبح العامل الأساسى فى الصحة • وكان لتدعيمه للأسرة وفرضه لحسن الجوار وبثه للمبادىء القويمة لربط المجتمع فضل وأى فضل • وقد حث الاسلام على المساواة ودعا لمكارم الأخلاق وهدى الفرد الى القيم الايجابية للمجتمع ، مما لا يمكن تفصيله فى هذه العجالة • كذلك نجدفى العصر الأموى ، وفى العصر العباسى أيضا ، أن الطب أضحى فرعا من فروع المعرفة العامة وخاصة الأدب • وكان بين الأطباء من هم وزراء وكتاب – وقد أسدى المؤرخون الجغرافيون والرحالة والكتاب وأصحاب المعاجم يدا جليلة وخاصة فى الصيدلة • ولا نريد الاسهاب فى أثر الأدب والشعر وغيرها من الفنون فى رفع الهمم وايقاظ العزيمة وبث الوعى فى المجتمع وفى بعث الأمل فى النفوس اليائسة التى ملت كفاح الحياة • وقد وصف ابن جزلة طبيب المقتدى بالله الخليفة العباسى فى كتابه "تقويم الأبدان"، أثر الموسيقى فى النفس فى حالتى الصحة والعلاج ، مشيرا الى أثرها الوقائى فى الصحة بقوله "الموسيقى من الأدوات النافعة فى حفظ الصحة وردها وتختلف بحسب اختلاف طباع الأمم وقديما وضعت هذه الصناعه لحث النفوس الى السنن الصحيحة ثم استعملها الأطباء فى شفاء الأبدان المريضة • فموقع الألحان من النفوس السقيمة موقع الأدوية من الأبدان المريضة وأفعالها فى النفوس ظاهرة من مشى الجمال عند الحداء ، وشرب الخيل عند الصفير ومرح الاطفال لسماع الغناء • وهو يحدث أريحية ولذة ويعين على طول الصلاة والدراسة • والأطباء يستعملونه فى تخفيف الآلام على مثال ما يستعمله الحمالون لتخفيف الأثقال " • وفى تذكرة السامع للمتكلم يقول ابن جماعة : "بقدرة طلب العلم على الاشفاء " • وقد أصبح العلاج بالفنون أمرا لا غنى عنه ، لما

يترتب عليه من أثر عاطفى فعال له فضل فى تدعيم العلاج وفى بعض الحالات المرضية نجد أن الفنون اذا كان اختيارها مرفقا ربما تنقذ المريض من شعوره بتفاهة الحياة مما قد يؤدى للانتحار . ولكن المريض الذى لا يتذوق الفنون ربما كان فرضها عليه مدعاة للملل والسأم بل النكسة فيجب تقصى ذلك . والفولكلور أقوى أثرا فى حالات المرض من الفنون الكلاسيكية نظرا لأصوله الاجتماعية العميقة . ولذا كان واجب الأدباء والفنانين كبيرا فى توجيه انتاجهم لخدمة المجتمع . وفى القرن الرابع الهجرى ، بدأت تباشير عهد التأليف ، وصار للطب شخصية اعتبارية . وكان طابعه يتأرجح بين الأدب والفلسفة لقدرتها على التعبير عن الحياة كما كان الدين فى مصر القديمة والسحر فى بابل . ولعل الرازى قد بز معاصريه فى ادراكه لأهمية العوامل النفسية فى المرض ، وهنالك قصص عديدة تدل على اتجاهه فى هذا الشأن أشار اليها التنوخى فى كتابه "الفرج بعد الشدة" . وذلك رغم أن وسائله تبدو أقل كرامة من غاياته اذا ما قيست بالقيم العليا ، ولكنها فى الواقع اكثر كرامة مما هو متفش بيننا اليوم . كذلك برزت قدرته واضحة فى كتابه المسمى "برء الساعة" الذى يقول فيه الرازى "ان من العلل ما تجتمع فى أيام وتبرأ فى ساعة" . ووصفها ينطبق على الاضطرابات النفسية . وقد وردت فى أقواله حكم كثيرة تؤيد ذلك كقوله : ينبغى للطبيب أن يوهم المريض أبدا الصحة ويرجيه بها وان كان غير واثق بذلك فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس . الأطباء الأميون والمقلدون والأحداث الذين لا تجربة لهم ومن قلت عنايته وكثرت شهوته قتالون ..... الخ.

وكان الرازى واقعيا لا يؤمن بالنظرات العقيمة ولا يحتمل السفسطة . وكانت فلسفته تتجه الى تقييم التجربة والملاحظة وقد ترك قصصا أكلينيكية رائعة توضح هذا الاتجاه العملى من بينها قصة عبدالله بن سوادة المصاب بخراج الكلية . ولعل هذا الاتجاه المستمد من صميم فلسفته العلمية المنطقية Rationalistic ما دعا صاعدا الأندلسى فى كتابه "طبقات الأمم"

لوصف الرازى بأنه توغل فى العلم الالهى وما فهم غرضه الأقصى فاضطرب لذلك رأيه وتقلد آراء سخيفة . وكتب ابن سينا فى علم النفس : ولكنه لم يهتم بتطبيق ما كتبه عمليا لخوضه فى الفلسفة النظرية ولاتجاهه الفكرى العام المؤيد لذلك . وقد توسع فى وصف العشق كعلة نفسانية . ولعله استمد أكثر ما وصف فى هذا الصدد من أبقراط ومن جالينوس الذى يشابهه فى الخلق والسجايا . وقد وصف ابن سينا تشخيص الحب عن طريق جس النبض وهى قصة بدأها جالينوس ووصلت الى قمتها عند رشيد الدين أبى خليفة الطبيب المصرى (مولده عام ٥١٩ هـ) الذى كان يستطيع معرفة شخص الملك الكامل بجس نبضه متخفيا بين الناس . وذكر الراغب الأصفهانى قصة مشابهة عزاها الى سلمويه طبيب المعتصم - ووصف ابن سينا تدبير العشاق بالتنويم والتغذية وبالمسرح العلاجى وبايقاعهم فى خصومات وأشغال ومنازعات وبالجملة أمور شاغلة Diversion وقال ان ذلك ربما أنساهم ، أو يحتال بتعشيقهم غير المعشوق أو باشتراء الجوارى والأكثار من مجامعتهن . وقد اختصر صاحب "كتاب طب أبقراط وجالينوس وأفلاطون المثلث بالحكمة آراء ابن سينا ومن تقدمه ومن تبعه فى هذا الصدد . ومن المهم أن الرازى فى رسائله الفلسفية أعرب عن رأيه الخلقى قائلا بأن : "المخنثون من الرجال والغزلون والفراغ والمترفون والمؤثرون للشهوات لا يكادون يتخلصون من هذه البلية (الحب)" .

ولعل موسى بن ميمون القرطبى (ولد عام ١١٣٥م) طبيب الملك العادل صلاح الدين الأيوبى ، وطبيب ابنه الملك الأفضل من بعده ، كان أعمق ادراكا من غيره فى ذلك العهد فى معرفته للحالات النفسية المختلفة كالغضب والحزن والسرور وفى مدى أثرها فى الصحة والمرض ، والى علاجها برياضة النفس وتقويمها بممارسة الأخلاق مما جعل اتجاهه أشبه باتجاهات Paul Dubois السويسرى فى القرن الماضى وترجع فلسفته الى ماقاساه فى صدر حياته بالأندلس تحت حكم الموحدين قبل نزوحه الى مصر . والرسالة الأفضلية التى بعث بها للملك الأفضل "تلبية لأمره"

من أهم الرسائل فى الطب "النفسى البدنى" وكان الملك الأفضل "كثير الأسقام عصبى المزاج منقبض النفس" وتدل هذه الرسالة على أن موسى بن ميمون كان عالما نفسانيا محنكا وقد اشتهر بذلك فعلا • فقد جاء فى أبيات مدحه فيها القاضى سعيد شاعر صلاح الدين ، وشاعر الأفضل من بعده :

أرى طب جالينوس للجسم وحده وطب أبى عمران للعقل والجسم

وقد نشرت هذه الرسالة الهامة بمصر عام ١٩٠٨ تحت عنوان عام (١) مع غموض اسم المؤلف وأشار الى أهميتها ولفنسون فى كتابه عن موسى بن ميمون •

ونرى فى القرن التاسع الهجرى اشارات هامة للمالنخولية، ففى شرح "كتاب الأسباب والعلامات" لنفيس بن حكيم الكرمانى (٨٢٠ هجرية) الذى كتب متنه فى الأصل نجيب الدين السمرقندى الذى مات قتيلا فى سمرقند عندما افتتحها جنكيزخان • نجد فى هذا الشرح وصفا دقيقا لهذا الداء يشمل بحث أسبابه الاجتماعية وربما كان هذا البحث أقيم بحث الى مستهل هذا القرن • وقد أشار الكرمانى الى جملة من العلماء الذين تفردوا بأنفسهم وتركوا فجائية الناس فاحترقت أخلاطهم وحدث بهم الى الملنخولية وقال أن الافراط من سبيل التردى • وقد سبقه الى مثل هذا القول الطبرى فى المعالجات الأبقراطية وقد أشار الى ذلك الكرمانى • ورغم أنه لا يسمح لنا المجال لبحث الصلة بين العبقرية والاضطراب النفسى • فأننا يجب أن ندرك أن القلق والتوتر النفسى قد يكونان علامة للصحة اذا ما توفرت أسبابها الفعلية ـ والصحة لا تعنى الخلو المطلق من الهم أو القلق فى جميع الأحوال ، بل قد يكون الخلو من القلق أو الهم عندما تتوفر دواعيه من العلامات غير الطبيعية وقد قال المتنبى : وربما صحت الأجسام بالعلل •

ثم أصبحت الصحة فرعا من الأخلاق والتصوف ـ وقام مبدأ تعريفها على قول أرسطاطاليس "الصحة هى الفضيلة" ونجد فى كتب

---

(١) نشرت عام ١٩٠٨ تحت عنوان "الطب القديم" لموسى بن عبد الله القرطبى ، وأعيد طبعها عام ١٩٣٢ ، وقد قام بجمعها وتصحيحها وطبعها عوض واصف (مطبعة المحيط) الفجالة •

المتصوفة تفسيرا للصحة باعتبار أنها فضيلة تابعة لأخلاق النفس تنبعث أصولها من الدين . وقد حدا هذا ببعضهم الى ادعاء الطب والى تأليف الكناشات الطبية ومن ضمن الكتب الهامة فى التصوف والأخلاق التى توضح هذا المنهج احياء علوم الدين للغزالى ، والفتوحات المكية لابن عربى ، وكشف المحجوب للهجويرى ، والذريعة فى مكارم الأخلاق والشريعة للراغب الأصفهانى والأخلاق لابن مسكويه والرسالة القشيرية ، والطبقات الكبرى والصغرى للشعرانى . ورغم ذلك فقد استطاع هؤلاء المتصوفون ادراك الكثير من الحقائق السيكولوجية للنفس كحالات "القبض والبسط والرجاء والخوف والعزل والوجد والصحو والسكر" ... الخ ولا شك أن من أقيم الكتب التى تنير الطريق لمعرفة بعض الأحوال النفسية هو كتاب "لطائف المنن" للشعرانى ، لأنه يحكى فيه عن تجارب شخصية عميقة . ويقول القشيرى فى صدد القبض والبسط "وهما حالتان بعد ترقى العبد عن حالة الخوف والرجاء فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستأنف(1) والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنف وهذا قول يؤيده كارل ابراهام Karl Abraham حينما قال بصلة القلق مع الكآبة ، والخوف مع الحـــزن والأحوال الصوفية تجارب تحليلية Analytic فى الأصل . يتضح ذلك من وصف الصوفية "للأحوال والمقامات" التى تنطبق على وصف درجات التعمق النفسى الذى يصل اليه السالك فى سلوكه وصلة ذلك بالتجربة الوجدانية . وقد وجدنا بالفعل أن العواطف التى تنطلق من التجارب الصوفية تنطلق من طبقات نفسية مختلفة الأغوار تزداد عمقا مع توغل السالك فى طريق السلوك أشبه بمراتب التحليل النفس فى بعض أوجهه . والتجربة الصوفية قد تؤدى الى تغيير حاسم لا ينحصر أثره على ظاهرة محدودة فحسب ، بل على الاتجاه والسلوك الشخصى جملة وتفصيلا ، بل قد يكون مولدا لنمط جديد من الحياة . وقد كتب سارجنت Sargant عما يسمى بغسل المخ Brain Washing . وتنطبق بعض نواحى سيكلوجيته على بعض ما رأيناه فى هذا الصدد . وقد تحل

---

(1) والمستأنف هو المريد عند بدء سلوكه .

التجارب الصوفية فجأة ودون سابق انذار ظاهر كما هو معروف فى حياة بعض المتصوفة كفريد الدين العطار مثلا • ورغم ذلك فان لها أصول خفية يمكن تقصى نموها قبل انطلاقها • وحالات الوجد التى تميز بعض التجارب الصوفية قد تكون حاسمة فى بعض أنواع العلاج لمن لهم نزعة التصوف وقوتها ظاهرة فى حالات القبض والخوف مثلا • ويمكن تقريب فهم هذه الأحوال على أساس المقارنة بينها وبين ظواهر التحليل النفسى التى هى فصيلة منها تختلف عنها فى نوع التجربة وطابعها وغايتها القصوى وفى كمها وكيفها الوجدانى وفى انفصامها عن حيز الزمان والمكان • وتعاريف الصوفية لمصطلحاتهم هامة ويجب معرفتها لأهميتها فى تعميق فهمنا لسيكلوجية النفس • ويجد القارئ الكثير منها فى كتاب "اصطلاحات الصوفية لكمال الدين الكاشى ، وفى منازل السائرين لأبى اسماعيل الأنصارى ، وفى الفتوحات الملكية لابن عربى وفى التعريفات للجرجانى ، وفى غيرها • ونجد فيما كتبه المستشرقون شروحا وافية كشرح المستشرق نيكلسون Nicholson لديوان ترجمان الأشواق لابن عربى ، الذى يذلل كثيرا من صعوبات فهمها(١)• وقد لا يكون من الملائم أن يترك هذا البحث دون أن نشير الى المعجزات والكرامات وعما هى وعن طبيعتها وعن أثرها فى الطب والمعالجة ، وتوجد كثير من الأمثلة لهذه الظاهرة فى كتب الشعرانى والنبهانى وكذلك فى كتب الغزالى وابن عربى وغيرهم •• وقد حاول الباقلانى فى كتاب البيان أن يفرق بين المعجزات والكرامات ، وبين الحيل والكهانة ، والسحر والنارنجات ، كما حاول الشعرانى بعده فى كتابه "أسرار العبودية" التفريق بين الوحى والرؤية والالهام • وبعض العلماء المعاصرين يعتقدون أن الكرامات ظاهرة أزلية وصك من صكوك الألوهية تعريفا لقدرة خالق هذا الكون الذى بعثه ، وأن حصول الكرامات ظاهرة تؤيدها النظرية الداروينية Darwinism (نسبة الى دارون) التى تقول بتطور الكون من النقص الى الكمال

---

(١) كذلك شرح "أربرى" لتائيه ابن الفارض وشرح "ماسينون" لديوان الحلاج •

• ويقولون ان المعجزة عمل من عمل الخالق فى تطويره دوما لمخلوقاته •

ونتحدث باختصار عن الرؤية ما حقيقة تفسيرها وما قيمتها العلاجية • وأود قبل أن استهل الموضوع ، أود الاشارة الى ابن سيرين والى القيمة العلمية التى لا تقدر لكتابه فى التعبير • والحق أن ابن سيرين قد سبق فرويد وقد بزه عبقرية وعلما • ويتضح لنا ذلك مما قاله عن آداب المعبر وعن تعبير الرؤية ومعرفة أصولها التى جمع فيها أصول التعبير التى وصل الى بعضها فرويد فى كتابه الذى نشره فى آخر القرن الماضى وقد وصفها ابن سيرين وصفا يكاد يشكك الذى لا يعرف عبقرية فرويد فى أنه نقلها عن ابن سيرين • وقد ارتفعت عبقرية ابن سيرين الى أوجها فى تحقيقه لرموز الرؤيا تحقيقا لم يصل اليه أحد بعد وبوضوح لا يسمح بحال للشكك فى صدقها • وقد كان لكتابه أثر كبير فيمن تبعه من المعبرين كالظاهرى والنابلسى وابن الوردى وابن غنام وغيرهم • والحقيقة أن سر تعبير الأحلام لا يدرك الا على أساس معرفة قويمة لعلم البلاغة لأن الخواطر الأولى التى تبعث الأحلام والتى تتجسم فى رؤى الحالم ، تقوم على أساليب الادماج والكناية والمطابقة والمبالغة والاستعارة وغيرها من أساليب البلاغة • ولذا فأن كتب البديع ككتاب ابن المعتز ، وكتاب الكناية والتعريض للثعالبى ، وكنايات الأدباء واشارات البلغاء للجرجانى والتشبيهات ، ومفتاح العلـــوم للسكاكى ، والبديعية للصفدى ، من أهم الكتب التى لا يستغنى المعبر اليوم عن معرفتها • وربما نستطيع أن ندرك قيمة كتاب النابلسى فى تفسير الأحلام عند تحس بقدرته البديعية فى قصيدته التى مدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم المسماة "بنفحات الأزهار على نسمات الأشعار" • وقيمة الأحلام أنها تساعد على فهم المريض ومشكلته التى هى أول خطوات العلاج كذلك لما لها من أثر سيكلوجى عميق فى النفس • والمقام لا يسمح بذكر بعض الظواهر الهامة جدا فى الأحلام وخاصة الرؤيا الصادقة •

ونجد وصفا رائعا للمستشفيات وعما وصلت اليه تلك العصور فى كتاب فقيد العروبة الدكتور أحمد عيسى (البيمارستانات فى

الاسلام) ، نجد فيه أن وسائل العلاج السيكلوجية فى المستشفيات العامة حينئذ ـ وكان يطلق عليها البيمارستانات : بيمار = مريض واستان = محل بالفارسية وكانت تطلق على المستشفيات العامة ولكن مدلولها تغير فيما بعد لأسباب لا محل لذكرها ـ نجد أن وسائل العلاج والترفيه كانت تعكس فى مداها وتنوعها معرفة عميقة بالأصول السيكلوجية للعلاج • وفى القرن الماضى بدأ عهد جديد بأنشاء أول مدرسة طبية على النظم الحديثة عام ١٨٢٧ بمصر وقد ألحقت بالمستشفى العسكرى "بأبو زعبل" ومن العبرة لنا الرجوع الى كتاب كلوت بك لنرى كيف أن الترجمة من الفرنسية الى العربية التى كانت لغة التعليم لم تكن مشكلة كبرى الا فى اختيار الوسائل لا فى اللغة ذاتها • وقد تصفحت أكثر من خمسين كتابا نشرت ببولاق بين عام ١٨٤٦ الى عام ١٩٠٠ كانت لغتها سليمة وتعابيرها جيدة ونصوصها مفهومة • ومن بين هذه الكتب كتاب المنحة فى سياسة حفظ الصحة ترجمة الحلبى من الفرنسية وصححه محمد الهروى عام ١٢٤٩ هـ وهو ثالث كتاب يترجم وللكتاب اتجاه عسكرى يبحث فى المشاكل الصحية للجنود من ضمنها مشكلة "العزوبة" و "الأحوال النفسانية للرجال البحريين والأوصاف النفسية للمجرمين" ومنها "وسائل الابتهاج فى الطب والعلاج" تأليف سالم سالم بك مدرس الأمراض الباطنية ، وقد تخرج فى ألمانيا عام ١٨٥٣ بعد نيله للدكتوراه • قال فى مقدمته "ليس كلمة أضر بالعلم من قولهم ما ترك الأول للآخر شيئا" وفى كتاب "كنوز الصحة" ١٢٦١ هـ للدكتور محمد الشافعى اشارات للعقل و "التولعات النفسانية" والى أثر هذه التولعات فى الصحة • وقد كتب من بعده ابنه الدكتور أحمد بك بن محمد الشافعى كتابه المسمى "بلوغ الأمنية للحصون الصحية" وهو كتاب هام لأنه تحدث فى اسهاب عن جغرافية المرض وعن تاريخه • كذلك اهتم ببحث واجبات المجالس البلدية والحكومات فيما يتعلق بالصحة ـ كذلك الدكتور عبدالرحمن اسماعيل فى كتابه المعروف "طب الركة" جزء أول ١٣١٠ هـ جزء ثانى ١٨٩٤ بحث أنواع السحر وأساليبه المستعملة فى الصحة فى عصره كالزار والمشاهرة والتنزيل ومواخاة الجن والقرين وضرب الودع والمربوط ••• الخ

مما يجعل للكتاب من الناحية الانثروبولوجية قيمة لا تقدر .
ولكن أهم هذه الكتب على الاطلاق هو كتاب "أسلوب الطبيب فى فن المجاذيب" قام بكتابته الدكتور سليمان نجاتى مدرس الأمراض العقلية ، ومدرس ثانى الأمراض الباطنية بمدرسة الخديوية ، وحكيم ثانى الأمراض الباطنية بمستشفى القصر العينى عام ١٣٠٩هـ والدكتور سليمان نجاتى خريج مدرسة الطب بمصر وجامعة باريس ، وهو أول من درس الأمراض العقلية وتخصص فيها بمصر ، قال "ان هذا الفن لم يطرق لمصر بابا وقد هزتنى أريحية الغيرة الوطنية على أن أكون أول من اشتغل من المصريين بهذا الفرع ، فصرفت فى الحصول عليه أنفس أوقات الشبوبية" ، وتحدث عن رجوعه الى مصر فقال "وما لبثت بادارة الصحة العمومية غير قليل الا وجىء بى الى مدرسة الطب مدرسا للأمراض العقلية" .
وأشار الى عدم تدريس الأمراض العقلية قبله ، والى اصراره على اعطاء دروسه للطلبة بالمستشفى ببولاق (ورشة الجوخ) ، وفق منهج عملى ، والكتاب فيه الكثير من خبرة هذا الرائد الأول .
ونسبة لأهميته فقد عزمت وزميلاى الدكتور أحمد وجدى والدكتور صبرى جرجس على الكتابة عن هذا الرائد العظيم تعريفا به وتشريفا له وليكون ذلك مساهمة منا للاحتفالات هذه السنة بحلول العام الدولى للصحة العقلية .

وقبل أن نختتم ، أرى أن البعض سوف يسأل ما هى الصحة العقلية اذا ؟ ونقول انه من الضرورى أن ندرك ادراكا تاما أن الصحة العقلية ليست مفهوما طبيا محضا ، بل ان بعض جوانبها الهامة تمت الى الانطباعات الاولى فى الاسرة والى وسائل التربية والتربيب ، والى ظروف العمل والكسب ، والى الحياة الزوجية ، والى المجتمع فى مبادئه ونظمه وتاريخه وفلسفته وعقائده ، والى ظروف اقتصادياته ، والى صحة البدن . ولهذه الناحية (أى الصحة البدنية) وظيفة كبرى تدخل فى تعريف النظم العلاجية النفسية فى المجتمع ، وفى تقييمها حسب الاتجاهات الحديثة التى تتجه نحو وحدة العقل والبدن . كل هذه وغيرها تدخل فى مفهوم الصحة العقلية . وقد تختلف مقوماتها باختلاف الزمان والمكان . ولذا فلا مندوحة من أن نفسرها تبعا للظروف

الزمانية والمكانية • وللصحة العقلية جوانب لا يسمح الوقت بالتطرق اليها خاصة فى المجال الدولى •

ونختتم بقول جبران فى كتاب "النبى" :
كيف أستطيع يا صاح أن أجلب السكينة الى نفوسكم القلقة
كيف أستطيع تبديد ما بها من نفور وشقاق •
قل لى بربك ، كيف أستطيع ذلك ان لم تكونوا أنتم حريصين على ذلك •
بل ان لم تكونوا محبين لذاتكم ولعناصركم جميعها •

مفهوم الصحة العقلية

(فى اقليم شرق البحر الابيض المتوسط)*

لعله لا يزال بعيدا عن ادراكنا ، حتى الآن ، انه لكى نستطيع تحديد مجال الصحة العقلية وتبيان طبيعة المفاهيم التى ينطوى عليها كيانها ، وطبيعتها ، واتجاهاتها ، ان تكون الفكرة الزمانية والمكانية ذات ضرورة قصوى لتكييفها وصلاحية معانيها ٠ اذ ان ظواهر الصحة العقلية كانت واضحة التغيير فى الماضى ، وما زالت تتغير ، ولعلها ستواصل التغير كذلك فى المستقبل ٠ بل انه ينقصنا الادراك لنقطة هامة هى ان الصحة العقلية ليست فى مضمونها مفهوما طبيا خالصا ٠ كما ان مدلولها لا تحده ظاهرة اجتماعية محضة ، او فكرة دينية مجرده ، أو أثر اقتصادى بحت ، كما انها ليست عشوائية فى مسبباتها او ضربا من ضروب القضاء والقدر ٠ بل هى ظاهرة متكاملة متناسقة الاطراف تشمل ، فيما تشمل ، هذه الاجزاء المختلفة جميعا ، وتخضع فى جوهرها ونعوتها لتأثير الزمان والمكان ٠ بيد ان هذا الوصف قد لا يخلو من بعض التبسيط ٠

ونحن ، بوصفنا الواضعين للخطط الصحية ، العاملين فى الميدان الاجتماعى للصحة ، اعتقد انه من الجوهر ان يكون لدينا بعض الدراية الواضحة والمعرفة بأصول الصحة العقلية وطبيعتها وأطوارها وتقلباتها ، فى ضوء الفكرة التاريخية والاجتماعية الحديثة ، بعيدا عن قيود مناهجنا الطبية التقليدية ، لفترة وجيزة ٠

ولعله من الأوفق ان نستهل هذا البحث بترديد العبارة المأثورة عن "ونستون تشرشل" ، ألا وهى : "كلما اطلت بصرك امعانا فى الماضى ازدادت بصيرتك خبرة بالمستقبل" ٠ والحق ان فلسفة التاريخ قد تسدى معونة صادقة فى جلو الحقائق وادراكها بل أنها قد تهبها مفاهيم جديدة يمكن ان تعاوننا

* من وثائق الهيئة الصحية العالمية ، المكتب الاقليمى لشرق البحر الأبيض ٠ ١٥ مايو ١٩٦٠ (الأصل بالانجليزية) ٠

على تفسير تلك الحقائق التى قد تبدو مشوشة لولاها • وكذلك الحال بالنسبة لعلوم الفلسفة وفنون الادب والعلوم الاجتماعية الاخرى بغير استثناء • ويجدر بنا ان نشير فى هذا المقام إلى أن أبا الحسن الطبرى ، وهو طبيب كاتب عاش على شطآن بحر قزوين فى القرن الرابع الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، وصف فى كتابه الموسوم ب"المعالجات الأبقراطية" نوعين من الاطباء • "الطبيب الذى بفيلسوف والطبيب الذى ليس بفيلسوف" • واستطرد فقال "أن الطبيب الذى ليس بفيلسوف هو الذى يقتصر عمله وهمته على علاج الداء مع قلة المعرفة والبعد من الفلسفة ، وأنه يأخذ المعرفة عن طريق التقليد • أما الطبيب الذى بفيلسوف فهو الذى يرتفع بعلمه وادراكه الى طلب الغاية ولم يقتصر من كل صناعة على أقل ما يمكن" • وبالمثل ذكر "على بن يوسف القفطى" الوزير والعالم والكاتب المصرى من القرن السادس الهجرى (القرن الثالث عشر الميلادى) ، فى كتابه المعروف ب "اخبار العلماء باخبار الحكماء" انه ينبغى للأطباء ان يتفلسفوا ، فانه لا يجب تعاطيها (يعنى مهنة الطب) الا لمن كان على سيرة "اسقليبوس" •

أما "ابن خلدون" المورخ الاجتماعى الذى عاش في القرن السابع الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، والملقب بأبى علم الاجتماع ، فقد ذهب نفس المذهب المنهجي وزاد عليه مما ادى به الى ان يبتدع فى مقدمته انماطا للمناهج الاجتماعية فى التاريخ • وكان للمنهج الشامل الذى جادت به عبقريته فضل فى بحث التاريخ داخل الاطار الاجتماعى ، ومن ثم صار المجتمع عنصرا هاما فى اى بحث علمى • وهذه هى الاسس والانطباعات الاولى للتأملات الخاصة بالنظام الاجتماعى فى الطب ، وبالطب نفسه كموسسة اجتماعية •

ولعله من الجوهرى قبل ان نسترسل فى بحثنا ، ان ننوه بأن الفارق الموجود فى عصرنا هذا بين مفهوم العقل والجسم ، وبين حدود النفس والبدن ، ما هو الا فكرة حديثة العهد قريبة الاستنباط نسبيا • كما ان هذه الفكرة الثنائية لم يكن لها وجود على الاطلاق ضمن المبادىء الاساسية التى كانت تتضمنتها

النظم الطبية قديما • وفى الواقع ، نجد فى حدود المجال الزمنى والمكانى للثقافة الاسلامية ، ان اول "ذكر للصحة العقلية" كتعبير اصطلاحى ذى صفة اعتبارية قائمة بذاتها - بخلاف المرض العقلى - قد جاء فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ، على لسان المتصوف الفارسى "جلال الدين محمد بن اسعد (المتوفى في عام ١٥٠٢م) فى كتابه "لوامع الاشراقى" المعروف ب" اخلاقى جلالى" • بيد ان هذا التعبير الذى يحمل معانى الوقاية ، بقى مهجورا لغرابة فلسفة مدلوله فى ذلك العهد ، ولم يحظ بتفسير أو متابعة لكنهه •

ونتيجة لما سبق ، وتجنبا للحذلقة وتفاديا للمبالغه فى التدقيق ، فانه كلما وردت اشارة الى "الطب عموما" فى هذا البحث ، فان الصحة العقلية تكون مضمنة كذلك ، وبمعنى آخر انه يجب ان ينظر الى التعبيرين على انهما مترادفان لأغراض البحث ، فى مضمونهما ان لم يكن فى سعة مجالهما • وهذه ضرورة منطقية تبررها الحقائق التاريخية •

والطب ، كغيره من المؤسسات الانسانية له "ماض طويل بيد ان تاريخه قصير" ورغم ذلك نستطيع ان نتبين فى مصر القديمة الطلائع الاولى لمهنة الطب ولفكرة الصحة ومدلول المرض • فهناك ، فى مصر القديمة كان الطب فى أول عهده فرعا من فروع الدين ••• والكهنة كانوا الطليعة بالنسبة لطقوس العلاج ، وان قدرة سببية المرض كانت فى اتجاهها روحانية تقوم على مبدأ حيوية المادة ، اى ان المرض كانت تعزى اسبابه الى تدخل الالهة او ارواح الموتى • وكان انعكاس العقيدتين كلتيهما شديد على الاتجاهات فى مصر القديمة • نذكر على سبيل المثال اثر ذلك فى تطور الطقوس الجنائزية •

كذلك نجد ايضا ان نظرية العلاج قد بنيت جملة على اساس مضمون سببية المرض ، (دون ان نشير الى بعض الوسائل المنطقية التجريبية ذات الأثر الثانوى فى ذلك الحين)•

ان هذه الرابطة بين نظرية المرض وبين صفة العلاج لها

اهمية كبرى اذ اننا نجد دواما وفى كل عصور التاريخ ان سببية المرض تكيف طبيعة العلاج ، وسوف نرى ان هذه الصلات او الروابط تشكل نمطا ثابتا تأثر به طابع الطب فى جميع مراحل التاريخ دون استثناء . وعندما نمعن النظر فى اوراق البردى المصرية القديمة مثل بردية ابرس ، أو ادوين سميث أو كاهون وغيرها من الوثائق القديمة ، نجد ان الكاهن كان المستنبط لسببية المرض وكان المؤلف لأسلوب العلاج على السواء . كذلك نجد ان"توليف" وقيام بعض الظواهر المرضية الشبيهة بالهستريا كان من وحى الكهنة وانشائهم . وعلى ذلك يصبح من الواضح كيف تقوم نظرية سببية المرض ، وكيف ترتبط اصولها بمفاهيم العلاج. ولابد لهذه الرابطة الاصولية ان تظل واضحة فى اذهاننا ، اذ ان النظريات والاراء المعاصره التى تتضمنها سببية المرض لا تزال تقوم فعاليتها على نفس تلك الاسس . كما انها لا تزال قوية الأثر فى تحقيق العلاج وفى نشوء الاعراض على السواء (١).

وان التعبير اليونانى الذى يقوم على فكرة "الياتروجينية" والذى يتضمن معناه ان الطبيب قد يصبح اداة لا شعورية لبث المرض عن طريق الايحاء ، لما يقوم خير شاهد على ما ذهبنا اليه . زد على ذلك اننا نجد بين مدمنى شكوى المرض المعروفين بالمراضين (الهيبوكندرياكس) طبقات متراكمة من الاعراض لها نشوء تاريخى فى طبوغرافية المرض من المستطاع ارجاعها الى بواعث "ياتروجينية" تمت الى نظم المعالجة المختلفة التى تعرض لها المريض .

وهذه الامثلة والشواهد على "قوة الافكار" ليست ظاهرة مميزة للازمنه الغابرة فحسب ، بل هى حقائق ملموسه فى عصرنا

(١) فى جميع الميادين العلمية يتوقف مصدر الخبرة وصحتها على المشاهدة التجريبية المبنية على النظريات الافتراضية . وقد بين "جاليليو" فى كتابه المسمى "الحوار" اول عرض للاسس التجريبية للبحث العلمى التى تبدأ بفرض النظريات ثم تمهد عن طريق الاستدلال والاستقراء للوصول الى النتائج . ولا زالت طريقته هى دستور المنهج العلمى للابحاث .

هذا . وما افسح مجال ما تنطوى عليه من مضمون . بيد اننا لكى نعبر عن ذلك بلغة ابسط ، نقول انها تعنى ان قوة النظم السيكولوجيه وفعاليتها بالنسبة لوسائل العلاج لاتعتمد على الحقيقة العلاجية ذات الطبيعة العلمية ، بل تقوم على الصلة الوثيقة بين هذه النظم وبين النظريات الصحية السائده فى المجتمع . وبما انه ليس لهذه الصلات طبيعة علمية مقررة ، فما هى طبيعتها اذن ؟ لعلنا نستطيع القول بان اصولها تمت الى طبيــــعة المشاركة الوجدانية اذا استعملنا التعبير الاصطلاحى "لفرويد" والذى نعترف بانه غير دقيق . وعلى كل حال فهذا مما يعيد الى اذهاننا عمق حكمة "ادولف ماير" ونفاذ بصيرته اذ يقول "اذا ما اتفق الطبيب والمريض على كنه المرض وسببه ، بدأ التحسن فورا قبل مباشرة العلاج" . وفى ضوء هذه الحقائق يمكن القول بأن طبيعة العلاج النفسى أو فعاليته لا تقوم على مبادئ ثابته لها قوانين تخضع للاساليب العلمية النوعيه بل تقوم آنفا على نظرية توضح سببية المرض يبشر بها الطبيب ويعتنقها المريض والمجتمع ، ولا حقا على الاثار السيكولوجية الناجمة عن ذلك . ومن ثم ، فليس هنالك حاجة ماسه الى الجدل والنقاش فيما يختص بأصول اوليه او نهايات ازلية للعلاج النفسى . ولا مفر اذن من ان نعزو هذا الاثر الى طبيعة القوة السيكولوجية الكامنه فى "الاراء السديده ذات الطابع التقليدى" التى عبر عنها "اسباينوزا" الفيلسوف المشهور . وهذه "الآراء السديده" التى تستمد اصولها من اذهان معتنقيها لا يمكن تفسيرها وجلو حقيقتها الا عن طريق فهمهم وادراكهم ، وبمعنى آخر ان اصولها تنبع من ثقافة المجتمع وتاريخه وتجاريبه . وعلى هذا ندرك لماذا كانت وما زالت تنجح اساليب المعالجات - فى محيطها الخاص - بغض النظر عن النظم والقواعد والمذاهب والعقائد سواء اكانت غيبية او دينية او مستمده من السحر او العلوم التجريبية حديثها وقديمها . كما ندرك ايضا لماذا ينجح اليوم - كما فى عصور التاريخ الغابره - دعاة العلاج الدينى ، والسحرة ، وأرباب الشعوذة ، والممخرقون ، والدجالون ، والافاقون بل والمصابون بالبرانويا (الذهانيون) فى انتحال صفة القدرة على الاشفاء من

الادواء والامراض • وهناك ما لايدع مجالا للشك فى انهم اظهروا قدرة على الاشفاء فى بعض الاحايين •

ويبدو أن العامل الاساسى ذا الأثر فى نجاح هذه العمليات ينحصر فى شئ واحد هو قبول المريض للفكرة وايمانه بها سواء كان ذلك بالطرق الذهنية التى تقوم على الاقناع او الوسائل السحرية التى تقوم على الايحاء أو غيرها مما يقوم على الاستجابه العاطفية او التحول المذهبى • ويمكن اذن ــ والحقائق تؤيد ذلك ــ ان اى مذهب ايديولوجى تفسر على هدية سببية المرض بشكل مقنع معقول ، يمكن ان يستخدم كأداة علاجية • وهذه الامثله وغيرها تلقى الضوء على اللغز الذى حير العقول لفترة من الزمن فيما يتعلق ، مثلا بالسبب فى ان ممارسة عادة الاستمناء (جلد عميره) كانت تؤدى قديما الى اضرار جسيمة بالصحة بين المراهقين ، نتيجة للآراء الخاطئة التى دفعت كثيرا من هؤلاء المراهقين الى الخوف من عاقبة ممارستهم لهذه العادة • وبالتالى الى براثن الوهم والمرض • وكيف ان نتيجة للابحاث التى نشرها "كنزى" والتى قوبلت بالرضى ، تضاءل حدوث الهم والقلق ، ولا نقول الانهيار • ونستطيع ان نتبين هذا اكثر عن طريق ابراز صور اخرى ل "قوى الافكار" اذا ما استشهدنا ببعض النتائج ذات الصفه الانحدارية التى برزت اثناء دراستنا لآثار ادمان الخمر ومعاقرتها • فالشراب كوظيفة اجتماعية مثلما هو شائع بين بعض القبائل التى تشترك فى تعاطى الخمر فى نطاق جماعى وتضع لتلك الممارسة طقوسا وشعائر والزام ، ليست له آثار سيكولوجية جدية ضارة ، تستحق الذكر • والطرف الآخر لدراسة الخمر يمثل معاقرها سرا الذى يعيش ، فى مجتمع يحرم تعاطيها على اساس تعاليمه الدينية ففى هذا المحيط الذى ينادى بالتحريم نجد ان تكامل الانفعالات التى تتولد باضطراد قد يكون ضارا بالصحة العقلية ، بل ان ضرره فى الواقع لبليغ • وتجنبا للخوض فى مزيد من التفاصيل ، نقول انه بغية انقاذ هذا المدمن المستتر اثبتت التجربة ضرورة تحويله من معاقر فى السر الى معاقر فى العلن ، اولا ، قبل بدء الوسائل التقليدية • ومن الناحية الاخرى ، فان العواقب

السيكولوجية للمعاقر بالقدر الاجتماعى كما فى البيئات الغربية مثلا ، تقف موقفا وسطا ، من حيث صفته الفردية ، بين معاقرة الخمر بوصفها وظيفة جماعية ، وبين تعاطيها فى الخفاء . وعلى اساس هذه الدراسات المقارنه ، يمكننا القول بأن طبيعة بعض الاعراض القوية الاثر بين مدمنى المخدرات ربما تكون احدى وظائف هذا القطاع الانحدارى التى تعكسها درجات العقوبة المختلفة التى تمثل القوة الرادعة للقانون . ويبدو ان لهذا المسلك الجزائى اثرا هاما فى تحديد انواع الانحدار . اما الاراء والافكار السائده المتضمنه لمفاهيم الصحة فى المجتمع فتأتى فى المرتبه الثانية .

وبينما كان الطب عموما فرعا من فروع الدين في مصر القديمة ، كان فى بابل وظيفة من وظائف السحر . وان بعض وسائل العلاج بالسحر فى ذلك العصر – مما لا زال قائما بعضه الى الآن – تكون مزيجا هاما من العناصر العلاجية البداثية من وسائل التحليل المغناطيسى والتحليل النفسى ، والمسرحية العلاجية ، والاشاره والاستفراغ العلاجى . وفى مقدورنا أن نتعرف فى اساطير السحر على الصور الفكرية المنعكسة التى تنبع اصولها مباشرة من اللاشعور دون ان يعترى مضمونها اى تغيير ، والتى تؤيد نظرية يونج القائلة بأن العقل الباطن هو مصدر الآراء والاشباح الشيطانية ، وان دراسة معالم السحر قد تمكن الباحث من تبيان وكشف اللاشعور .

ودراسة حالات التقمص المعروفة بالزار ، مكنتنا من استخدام النماذج الشبحية – دونما تغيير لذاتها أو مضمونها – لغرض الحليل النفسى فى جميع اشكاله ، وفى رأينا ان صلاحيتها قد وضعت موضع الاختبار الكامل ، مما جعل دراسة الظواهر التقليدية ، مثل الاحلام ، زائدة غير ذات جدوى . ودلت المشاهدات المترتبة على ذلك ، على ان الخوف من السحر هو فى جوهره خوف من العقل الباطن نفسه . كما ان الرهبه من اطباء الامراض العصبية قد ترجع اصولها الى نفس الاسباب .

ولعل مما يثير الاهتمام ان نذكر المزيد عن تطور فكرة الصحة العقلية . ففى القرن السابع الميلادى ، بعد ظهور الاسلام

بقليل ، اصبحت الصحة العقلية فرعا من فروع الادب والمعرفة بوجه عام ، وليس هذا بمستغرب نظرا لأن الادب كان افصح التعبيرات الفنية تفسيرا للحياة وتمجيدا لها بالنسبة للاتجاه الدينى حيال الفنون التصويرية والتمثيلية التى تعالج مظهر الحياة والروح .

ويكفى ان نذكر ان ابن جماعة (من القرن السبع الهجرى - الرابع عشر الميلادى) فى كتابه المسمى"تذكرة السامع والمتكلم" اكد"قدرة العلم على اشفاء طلابه" ، وبعد بضعة قرون اصبحت الفلسفة معيارا للطب وقامت نظريات الاخلاط الاربعة التى نادى بها فى الاصل الفلاسفة الايونيون بوصفها النظرية الفلسفية الباثولوجية المختارة التى يقوم التعليل الطبى على اساسها . ويرجع اصل وصياغة كلمة الملانخولية (الخلط السوداوى) الفاشية الاستعمال الى تلك النظرية . وقام على انقاض هذه النظرية فيما بعد بعض النظريات الصوفية - الخلقية التى قامت اساسا على ما ذهب اليه قديما "ارسططاليس" من ان "الصحة هى الفضيلة لا اكثر ولا اقل" ، كما جاء فى كتاب الاخلاق لابنه "نيقوماخوس" . وقد ادى ذلك الى استعمال التبرير الاخلاقى فى العلاج بشكل يشبه الى حد كبير الوسائل التى كان يتبعها "بول ديبوا" السويسرى ، فى اواخر القرن الماضى ... وكتاب "النيسابورى" (المتوفى فى عام ٩٢٩ ميلادية) المسمى "السعادة والاسعاد" يمثل طابع ذلك العصر خير تمثيل .

وبأفول عصر النهضة وتضعضع مستوى البحث اصبح الطب بأكمله فرعا من فروع الصيدله ، وبنى مفهوم العلاج على مجرد المعرفة بقوى العقاقير مما قد لايختلف كثيرا عما نراه اليوم فى هذا العصر الذى طغت فيه "المهدئات والمسكنات" التى استنبطت عن طريق "التوليف" .

وفى انحاء كثيرة من العالم ، نجد اليوم ان ظهور النظم الاقتصادية والاجتماعية الحديثة وأثرها البعيد المدى على انماط الحياة العامة ، بالاضافة الى اختفاء النظم التقليدية باعثا على تبديل حالة الصحة العقلية وميلها فى الاتجاه الذى تمليه الضرورات الاجتماعية والاقتصادية التى اصبحت اقدر العوامل ذات

الاثر فى توجيه الصحة العقلية ٠

ولعله من الاوفق ان نختتم بحثنا هذا باستعارة قول "الدكتور كران" عندما طلب اليه ان يعرف حالات الانحراف السيكوباثى ، فى عبارة وجيزه : " ليس فى مقدورى ان اصف لكم الفيل ولكن فى استطاعتى ان اتعرف على الفيل عندما اراه" ٠ ولعل هذا مما لا نستطيع ان نتمثل به حقا فى هذا الموقف بالنسبة لمفاهيم الصحة العقلية ٠ بيد اننا عندما نخطر الى تعريف الصحة العقلية يجب علينا ان نأخذ فى الاعتبار تعدد جوانبها وقدرة طبيعتها على التحول بالاضافة الى ان تقديرها يقوم بالضرورة على حكم تفرضه القيم والمعايير الانسانية فى المجتمعات بوجه عام ٠

الخدمات المساعدة وكيف يرتبط تعريفها وتحديد مداها
مع مستوى تطور الخدمات وتنظيمها*

" الطب كالقدر يجري في مسالك خفية "

التطور عملية ارتقائية تهدف الى تمييز الاصول وتوضيح الانواع للفصل بين دورها ووظائفها ، وهو فى جوهره عملية تحكى تنازع البقاء ، وبقاء الأنسب . كما انه يمثل الطبيعة فى ميدان تجاربها وما وصل اليه الانسان عن طريق التجربة والخطأ ، فى سعيه لضمان بقائه وفى بذله الجهد للارتقاء بما هو كائن من شؤون ، ولتحقيق هدف افضل لما سوف يكون . والذى يبدأ كتجربة عابرة لابد ان يصل الى مستوى الخبرة الكاملة .

وتاريخ الفكر الانسانى ، ونشأته الأولى ، وكيف بدأ فى صيغة اخبارية ، وكيف تناوله التنسيق والتنظيم فى صيغة العلم ، وكيف ينتشر ، وكيف يضمحل ، يتجه فى جملته نحو تبيان وتصوير نفس النسق لأسلوب الارتقاء واتجاهاته . وما اكثر ما يصدق هذا بالنسبة لقيام الطب وتطوره . فالطبيب البدائى فى غابر القرون هو الذى انشأ المدرسة الأولى التى يمكن وصفها بأكاديمية الفرد التى تفرعت منها على مر الأزمان والاجيال فروع الطب واختصاصاته المختلفة التى نراها فى عصرنا هذا .

وتمشيا مع اغراض بحثنا ، يمكن تقسيم هذه الخدمات جميعها ، الى نوعين رئيسيين ، اولهما ما يمكن ان نطلق عليه اسم الخدمات الاساسية أو الجوهرية أو سمها ما شئت مما يطابق

* المؤتمر المشترك بين الاقاليم عن تدريب الموظفين الصحيين المساعدين . الخرطوم ١٤-٢٠ ديسمبر ١٩٦١م . نظمه المكتب الاقليمى لشرق البحر الابيض . الهيئة الصحية العالمية . (الاصل بالانجليزية).

نوع الخدمات التى تبدأ بالطبيب وتتمركز حوله ، وثانيهما الخدمة المساعدة التى هى هدف بحثنا هذا ٠

ولعله من الأهمية بمكان ان نؤكد انه منذ القدم الى هلم جرا ، يبدوا انه كلما تطور ت الخدمات وتفتحت براعمها، واضطرد نموها ، كلما انتقلت الخدمات المساعده من صفتها المساعده لكى تصبح جزء ا لا يتجزأ من الخدمات الضرورية الاساسية ٠ وهذا التدرج من الصفة المساعدة الى الصفة الأساسية للخدمات هو خير دليل ومقياس لمدى درجة تطور تلك الخدمات ، والشاهد كذلك على تقدمها ٠ وفى بعض الدول التى ظهرت حديثا ، لا تزال تعتبر الممرضة على انها مجرد مساعدة ذات دور ثانوى ليس الا ٠ ومن ثم ، فان كل الخدمات التى لا يؤديها الطبيب نفسه ، مازالت تفسر فى هذه الدول ، على انها خدمات مساعدة* تأتى فى المقام الثانى ٠ وفى ضوء هذا الاعتبار وغيره من الاعتبارات ، يمكن القوم ان المفهوم الذى يشمل الخدمات المساعدة من ناحية ، والمفهوم الذى يشمل الخدمات الأساسية من ناحية أخرى ، لا يمكن تحديد تعريفها الا فى ضوء ما وصلت اليه الخدمات فى تطورها من مستوى ٠ فالتعريف يحده عامل الزمان والمكان والتطور ٠

وقد عرفت الخدمات المساعدة فى الطب منذ القدم وقبل عهد ابقراط ٠ ولا من حيث استخدامها فى ميدان العلاج فحسب ، بل من اجل ما تقدمه من امكانيات بوصفها وسائل لنظام تعليم الطب بالتلمذه خارج الفصول وكان هذا النظام اذاك بمثابة الطابع المميز لتعليم الطب ٠ زد على ذلك ان العلاقات والروابط التقليدية بين التعليم خارج الفصول كنظام اصطلاحى لتعليم الطب وبين الاعمال المساعده كنظام اكلينيكى خارج الجدران ، هيأت امكانيات واسعه ذات شمول للربط بين التعليم النظرى والتعليم العملى ٠ ففى نطاق هذا النظام التدريبى

---

* كلمة "مساعده" فى النص القديم الوارد فى هذا البحث مستخدمة بمفهومها القديم وليس بمعناها الاصطلاحى المعترف به اليوم ٠ والمقصود بها فى النص القديم دور أو موقف ثانوى فقط بدون اى اشاره فنية دقيقة ذات مغزى اصطلاحى ٠

يجد طلاب الطب انفسهم فى مواجهة المرض فى مجاله الطبيعى المرتبط ضرورة بمفهومه الاجتماعى ، مما يوضح الجانب الانسانى فى المرض واعتبار المريض انسانا فى محنة لا مجرد نسمة فحسب. وهناك دليل تاريخى يفترض ، بل يؤكد ان مجال التدريب ومداه فى هذه الخدمات قد اتسعا بحيث شملا فيما شملا الناحية الانسانية العامه التى انحصر فيها مفهوم المرض فى ذلك الحين ومن ثم تشعبا خارج نطاق المرض وحدوده الفنية الضيقة . كما ان التأهيل الاجتماعى كخدمة مساعدة تشكل بروح العصر وقيمه ، واصبحت نماذج التطبيقات الفنية المساعدة هذه جزءا لا يتجزأ من مضمون العلاج فى شموله . وقد اشار أبو الحسن الطبرى الذى عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى الى هذه الفلسفه فى كتابه الموسوم "بالمعالجات الابقراطية" بقوله ، ان هناك نوعين من الاطباء : الطبيب الذى بفيلسوف والطبيب الذى ليس بفيلسوف . والطبيب الذى ليس بفيلسوف هو الذى يقتصر عمله وهمته على علاج الداء مع قلة المعرفة والبعد عن الفلسفه ، وأنه يأخذ المعرفة عن طريق التقليد . فمجال ادراكه ينحصر فى رقعة كرقعة الشطرنج ، يبدأ وينتهى فى حدود الجسد . أما الطبيب الذى بفيلسوف فهو الذى يرتفع بعلمه وادراكه الى طلب الغاية ولم يقتصر من كل صناعه على اقل ما يمكن ، فالعلاج لديه عمليه تعنى بتهيئة المريض وملاءمته للكون الذى يعيش فيه . وفى هذا المبدأ الفلسفى يكمن سر حكمة اليوم التى تتمركز حول المريض لا حول المرض . ونجد ان تعدد وتباين النماذج المبتكرة للخدمات المساعدة ، فى ذلك الحين ، قد احدث حالة من البلبله والفوضى دعت الرازى ، وهو الطبيب الكبير ، الى ان يعتب على طبيب شاب بلغ مبلغ الحماس فى ابتكار هذه الاساليب دون مراعاة بقوله : "ان وسائلك اقل كرامة من غاياتك" .

وليس من قبيل الصدفة ان نذكر فى هذا المقام ان المفهوم الزمنى للصحة ، أذا ما استخدمنا تعبير اليوم "التعريف الحركى" للصحة ، يتضمن ان العوامل الصحية فى مجموعها لا تنشأ عن أسباب طبية محضة بل ان منها ما يكون ذا

صيغه اجتماعية او اقتصادية هامة لا تقل اثرا عن المسببات الطبية الخالصة •

ولسنا نود ان نثقل على القارئ بمزيد من الايضاح اذا ما استشهدنا بما قاله "ابن جماعه" الذى عاش فى القرن الرابع عشر الميلادى ، وكان من كبار اساتذة عصره ، من انه من بين القيم المحوريه العظمى التى يضفيها المعلم على طلابه ، "قدرة العلم على الاشفاء" • وكان ابن جماعه بغير شك رائد المثقفين الصحيين وامامهم • وفيما عدا ذلك كانت المسئولية القانونية للممارسين لهذه الخدمات المساعده ليقع تحديدها على كاهل الطبيب ، ويعتمد مداها ـ الى حد كبير ـ على ما للطبيب من منزلة ونفوذ وسمعة وكذلك على عدد من يرعاهم من المرضى • ولم يحن الوقت بعد لاثارة المشاكل القانونية المتعلقة بذلك • وقد كان الايمان بالقضاء والقدر كعقيدة دينية اعمق اثرا من اى وسيلة آدمية طارئة • فالمرض ما هو الا قدر مقدور ، والدواء قد يكون معاندا للقدر أو حليفا له ونصيرا •

وينبغى الا يغرب عن البال ان نظم الطب وتقاليده كانت تقوم اصلا على اساس الخدمات المنزلية • فرغم قيام نظم المستشفيات فى اوائل القرن الثامن الميلادى قد ترتب عليه ان اصبح المستشفى رمزا للصحة ومعبرا عنها فى كافة ارجاء العالم الاسلامى ، فان نظام الطب بقى ، مع ذلك ، منزليا ، وكان افراد العائلة يقومون بشؤون التمريض ، ولا نبالغ اذا ما قلنا بانه حتى نهاية القرن الثانى عشر ، بل وبعده ، كانت الخدمات التى تقدمها المستشفيات لصحة المجتمع رمزية فى مضمونها ليس الا • وكان من الواضح الجلى عدم وجود الخدمات المساعدة "داخل الجدران" (فى المستشفى) •

ومهما كان الأمر فى هذا الصدد ، فأن اول مناسبة لادخال الموظفين الذين يقومون بالاعمال الادارية فى المستشفى ، قد حققت فى القرن الثامن فى مستشفى ابن طولون بالقاهرة • وتبع ذلك ان العناية المنزلية بالمرضى داخل المستشفى اصبحت منظمة ، حيث ادخل اليها الطهاة ، والحجاب ، والقهرمانات

(للخدمات الشخصية والاجتماعية) ، كما ادخلت قوارب الاسعاف على النيل ٠

ولما كان التاريخ بلا نهاية والتجربة لاتعرف الحدود ، فلعله من الجدير بنا ان نترك الماضى فى هذا البحث لكى نتمشى مع الحاضر ٠ بيد انه قد يبدو – وهذا بغير شك هو من علامات العصر – ان الطب يمر بمرحلة تطور فريدة فى التاريخ ٠ فبعد الحرب العالمية الأولى بل وحتى بعد الحرب الثانية ، وجد الطب نفسه فى مفترق الطريق حيث لم يعد فى الامكان تنمية قدراته مستقبلا داخل نطاقه فحسب ٠ واصبحت هذه الحقيقة اكثر وضوحا تحت تأثير القوة المضطرده لمناهج العلوم الاجتماعية التى اطلقت الشرارة الاولى فكانت شارة البدء لانطلاق الطب الى آفاق الميدان الاجتماعى ، حتى انتهى به الامر ، آخر المطاف ، الى ان يربط مفاهيمه بالمجتمع والانماط الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ٠ وبالتالى انحلت المعضلة التى كانت اعقد من ذنب الضب ٠

وبالاضافة الى ذلك ، فان التصنيع بتعجيله فى تجمع وتقطب الافراد وتبلورهم فى طبقات متحده الاغراض والاهداف قد اثار وأيقظ شعورا شديدا يتسم باكتشاف الذاتية وادراك الهوية ، وهما من العوامل ذات الاهمية العظيمة بالنسبة للسياسة الصحية ، كما كانا – ضمن غيرهما من العوامل – اول بشائر ومظاهر ما يطلق عليه "عقدة الطبقات المتوسطة" المميزة لسيكولوجيتها ٠

وخلال الأعوام المائة والستة والخمسين الاخيرة التى تلت الثورة الصناعية فى اوربا ، مر المجتمع الأوربى بسلسلة من التطورات المتدرجة التى لم تنطو فى سرعتها على تهديد خطير لاستقرار نماذج الحياة وانماطها المألوفة ٠ ومن ناحية اخرى، فان الدفع الثورى القوى المباغت للنظم الاجتماعية والاقتصادية فى هذا الاقليم ، ادى الي سرعة اضطراب القيم الاجتماعية والثقافية كما ادى ايضا الى حالة تتطلب اعادة البناء بشكل حيوى لكى يماشى المجتمع روح العصر وخطاه فى اسرع وقت مستطاع دونما ابطاء ٠ وقد انطوى ذلك بالضرورة على

اللجوء الى نظم مستعارة دونما اعتبار لضرورات التراث الاجتماعى والثقافى .

وربما كان تاريخ الصحة العقلية وما انطوت عليه قصتها اكثر تشويقا وانه لحق ان نقول ان الصحة العقلية هنا وهناك وفى كل مكان كانت من اواخر فروع الاختصاص التى بزغت فى مجال الطب . فهى ما زالت تعانى من مشكلاتها الأولية كما انها لا تزال تناضل فى سبيل افساح المجال لذاتيتها الخاصة وكذلك وضعها الخاص فى كلا الميدانين الفنى والاجتماعى . وفى غمرة هذا النضال وجد الطبيب الاخصائى نفسه فى خضم هذه المشكلات التى نشأت مع بزوغ مهنته . وفى ذلك الوضع النضالى الذى كان من محاسن الصدف قد اختفى واندثر الى غير رجعة ، كان لطب الامراض العقلية جاذبية ينحصر اغراؤها بين افراد طبقة محدودة من شباب الاطباء ممن يتصفون بحب العزلة والانفراد ، وقلة المرونة . وهذه صفات لها وزن بوصفها اعتبارات ثقيلة العبء على كاهل الجماعة والعمل الجماعى ، ولا يحتاج المرء الى ان يكون فطنا حاضر البديهة لكى يصل الى معرفة جذور هذه الاسباب اذ ان الظروف المهنية المتعلقة بها تكمن فى مجال طب العقول وفى علاقاته الجوهرية والطارئة بالمهن الطبية الاخرى، وهنا مربط الفرس وبهذا امكن استخلاص الاسباب من النتائج . وليكن واضحا ان هذا الاستعداد الكامن فى المهنة وفى صاحبها لا ينحصر فى مجال هذه المهنة فحسب .

ولا نجانب الحق اذا قلنا ان الوظائف الادارية والتنفيذية كانت فى الماضى تتجه على العموم اتجاها قويا لاستهواء طبقة خاصة ممن يتميزون بالتطاول والعنت والشدة . ولعل هذه الخلال كانت فى الماضى اكثر مما هى عليه الآن بين القائمين على الشئون الادارية والتنفيذية ، منذ ادراك الاهمية التى للقيم المتصلة بالعلاقات الانسانية التى نشأت من التصنيع .

وفى الظروف الحاضرة فانه ما زال بعض بلدان الاقاليم يجد نفسه فى وضع مماثل يتسم بضيق نطاق الخدمات الاساسية فى الصحة العقلية وباعتبار الكثير منها خدمات مساعدة فى

وظيفتها ومستواها . بل ان اخصائى الامراض العقلية ذاته كان، الى سنوات قليلة مضت ، يعتبر دوره ثانويا بالنسبة لممارسى السحر والعلاجات التقليدية . اما اليوم فان قوى التطور السريعة قد غيرت هذه الصورة تغييرا جذريا .

اما سياسة تدريب المساعدين التى يتبعها المكتب الاقليمى فى برامجه فمبنية على الاهتمام بعوامل البيئة والتاريخ المؤثرة فى الصحة واعتبارها جزءا لا يتجزأ من مفهوم الصحة الذى تقوم على اساسه برامج التعليم من الناحية العلاجية والتأهيلية والوقائية ، وحسن اولئك رفيقا . كما يجرى كذلك دراسة مؤهلات بلاد الاقليم المختلفة من الناحية الواقعية والتاريخية لكى تسهم فى بعض البرامج التعليمية لغيرها من اقطار الاقليم . اما العاملون فى الخدمات المساعدة والذين نالوا قسطا من التدريب المنظم فلديهم مزيد من الفرص للدراسة فى الخارج .

وفى الختام ، نذكر فيما يلى ما يجب ان يكون عليه تكوين الفريق الشامل (الاساسى/المساعد) . الا ان نظام الاسبقية ابتداء من الفئة الثالثة الى الاخيرة فهو مسألة اختيار فى ضوء الاحتياجات البادية :

١/ اخصائى امراض عقلية ونفسية
٢/ ممرضة
٣/ اخصائى اجتماعى
٤/ اخصائى علاج مهنى
٥/ اخصائى نفسانى
٦/ هيئات متطوعة ومؤسسات رعاية اجتماعية
٧/ مثقف صحى ، خبير انثروبولوجى ، خبير لتنمية المجتمع يستعار من الادارة الصحية أو الادارات الاخرى المتصلة بها .

وفى اوربا وشمالى امريكا ، ما يزال يرى البعض ان رجل الدين يجب ان يكون ضمن نطاق هذه الهيئات المساعدة نظرا لأهمية العقائد الدينية فى هذا المجال . ويرى ناثان كلاين ان

الحالة فى بعض البلاد الافريقية تتطلب ان يكون لرجل السحر التقليدى دور فى هذه الخدمات المساعدة • اما فى البلدان الآخذة باسباب التطور ، فقد يكون من الانفع مزج اثنتين أو اكثر من هذه الخدمات ليقوم بها شخص واحد فمثلا اعمال الممرضة والاخصائى الاجتماعى والاخصائى المهنى قد تهيىء اندماجا نافعا فى شخص الممرضة تبعا للحالة التطورية للعمل • وقد رأت فلورنس نايتنجيل فى عام ١٨٧٥م ، ان الضرورة والواقع كانا يلزمان ان تكون الممرضة هى الباحثة فى الحقل الاجتماعى • وقد هداها الى ذلك ثاقب بصرها وعبقريتها النفاذة التى كانت تستشف المجتمع وحالته التطورية من وراء الخدمات الطبية له •

وختاما ، نرى انه من الصعب علينا ان نتنبأ جازمين بما سيكون فى ضوء ما كان وما هو كائن فى اتجاه سير الخدمات الطبية الا فى نطاق فترات محدودة قصيرة ، اذ ان "الطب كالقدر يجرى فى مسالك خفيه" •

حاشيـــــــة

كان تشارلز جورج غردون ، ذو صفات عسكرية وادارية ودينية ممتازة وكان حاكما للسودان فى القرن الماضى (قتل فى عام ١٨٨٥ عندما اقتحمت الخرطوم كتائب الثوار الوطنيين المعروفين فى كتب التاريخ باسم الدراويش) ، وكان غوردون ملهما استطاع ادراك فكرة العلاج المهنى وقام بادخاله فى مستشفى الخرطوم اثناء فترة الحصار عام ١٨٨٤ - ١٨٨٥ ، وقد وصلنا انه اثناء احدى زياراته المتوالية للمستشفى لرؤية الجرحى من جنوده احس كيف ان جو السأم والفراغ قد يفضى بالمريض الى ان يصبح فريسة الهموم والمخاوف والشكوك • وعندما استفسر من كيفية شغل وقت المرضى ، اخبره الطبيب بان الراحة قد تكون اجدى من اى نشاط فأجاب غوردون : لا ••• ان

الانشغال بما هو مقيم لخير من البطاله بلا عمل • وأمر الطبيب ان يجلب فورا من يعلم المرضى بعض الحرف المحلية •

(من يوميات غوردون وخطاباته • وايضا من كتاب "السودان بين غوردون وكتشنر" لفوزى ، احد كبار ضباط غوردون المرافقين له اثناء الحصار ، ومن مذكراته الخاصة) •

أهمية الإنسان فى عملية الإنتـاج

بحث مقارن فى ديناميكية الصراع والتحول الحضاري*

مرشد البحث

كان شمس الدين الأبهرى صاحب كتاب "الهداية" علما من أعلام الفكر فى القرن الثانى الهجرى وامام عصره فى المنطق والفلسفة غير مدافع . وكان من كبار الشراح واصحاب المناهج . درج على مناقشة موضوع ابحاثه فى نسق فريد ذى ثلاث مراحل او شعب :

المرحلة الاولى

المقدمة (بفتح الدال وتشديده) بالمعنى اللغوى للوضع والمكان وكان وكأنه يقول هذه فاتحة البحث وما يجب ان يتقدم غيره من قضايا البحث فى الزمان والمكان لا ما يقدمه بالمعنى الاصطلاحى . وكان يخصها لبحث فلسفة البحث . ولا غرو فقد كانت الفلسفة فى زمانه والى عهد قريب معيار العلوم وأصلها والتى تفرعت منها ، وعلى هذا الاعتبار كان لها من الصدارة شأوا شاءته وشاء مؤلفوها . وكان يرى ان بعض قضايا العلوم قد تنير بعضها الأخرى . وبعض معضلاتها قد تستقيم وتسترشد بها معضلات لعلوم أخرى . وان مناهجها قد تضئ وتلهم مناهج الأخرى

* هذا جزء من مقال طويل مخطوط فى كراسة بلغت صفحاتها سته وخمسين . لم نجد النسخة المطبوعة التى قرئت فى احدى المؤتمرات بالخرطوم نيابة عن التجانى الماحى الذى توفى قبل المؤتمر بوقت قصير . لم نستطع فك جميع رموز المقال المخطوط الذى بين ايدينا لنثبته هنا كاملا كما لم نستطع ضبط بعض الكلمات والجمل التى قد تبدو مختله .

وبهذا وبذاك وغيره نستطيع ان نتفلسف .

وهذا ما يطابق مفهوم وأسلوب فلسفة العلوم بالمعنى الأصطلاحى . ان مذهب فلسفة العلوم المنهجى له ماض طويل غير ان تاريخه قصير خاصة فيما نجده بين ايدينا مما كتبه موءرخو العلم وعلماء المنطق والفلسفة الغربيون الذين يسيطرون على كتابة التاريخ .. والحق أن العرب قد رأو فكرتها قبلهم منذ أوائل القرن الحادى عشر الميلادى . فقد عرفوها وعرفوها وشرحوها وطبقوها وحثوا عليها وعدوها أسلوبا لفلسفة العقل أو نوعا من الحكمة وكان الفارابى من أوائل القائلين بوحدة العلوم وكيف ان هذه تفرض صلات مفروضة . ومن أقوى دعاتها فى عصرنا برتراند رسل وهوايتهد. وكان ابن الربيع (القرن الرابع الهجرى) أول من عرفها وعرفها فى كتاب (سلوك المالك فى تدبير الممالك) الذى كتبه بأمر الخليفة العباسى المقتضى بالله اذ قال : "الحكمة هى ادراك أفضل المعلومات بأفضل العلوم" . هذا ماينطبق على تعريف برتراند رسل وهوايتهد وهما من اكبر دعاتها وموءسسى منهجها وهى تعد اليوم من فروع المنطق ولاغرو فقد كان الابهرى من أكبر ائمة المنطق والفلسفة فى عصره . وطبقها ابن سينا فى ميدان العلوم وخرج منها بافضل النتائج فى كتاب (الشفا) وتبعه ابو الحسن الطبرى فنوه بذكرها واستعملها فى الطب فى كتاب (المعالجات الابوقراطية) . وفصلها وشرحها شرحا وافيا ابن خلدون وطبقها ورفع من امرها فى كتاب (المقدمة) واستطاع على هديها ان يسلط حقائق علم الاجتماع على التاريخ وتوصل بها الى نتائج حاسمة وكان المنشئ لفلسفة التاريخ .

المرحلة الثانية

المقدمة بالمعنى الاصطلاحى هى المرحلة الثانية لديه . وكان يخصها لبحث أدب البحث والباحث كما يسميه وهو قاصر على التعريفات واستعراض المنهج وأسلوب البحث . وكان الجلوكى العالم الاندلسى فى الكيمياء والفلك وعلم (الحساب) وموءلف فى علم الطوالع والغيبيات يناقش الطريقة تحت عنوان أدب الفكر والمفكر .

المرحلة الثالثه هى بحث البحث .

وقد رأيت أن احذو حذوه وانهج نهجه وأطرق طريقته مما اتخذه طابعا لفلسفته وأدب الفكر والمفكر لديه .

ان تطور هذا البحث واضطراد موضوعه ونمو فكرته قد استوعب فى مراحل ثلاث :

المقدمة ، لبحث الفلسفة العامة للبحث

أن الاتجاه الفلسفى للموضوع ينحصر فى طبيعته التاريخية التطورية التى تفرض بالضرورة نهج الدراسات المقارنه لاغراض البحث . وهذه تتطلب أولا وقبل كل شئ دراية تحليلية لموضوع مقنن يكون اساسا معيارا للمقارنة . يستطيع فى ذاته وصلاته جمع شطرى الموضوع (الانسان والانتاج) وتمثيلها تمثيلا متعادلا فى ظروفها المتماثلة ومتغايرا فى حالها المتغاير حتى تكون موازنه لأطراف الموضوع ككفتى الميزان فما هو هذا المعيار وأين نجده ؟ نجده في العمل . فان صلة الانسان صلة أصدار وصدور ومصدرية فالعمل فى صدوره ومصدريته يرجع للانسان والانتاج فى مصدره وصدوره يرجع للعمل الذى يصدره الانسان . ولنسر قدما فى تحليل وظائف العمل وماهيته ويكون هذا ما يعول عليه فى دراستنا المقارنة .

ماهية العمل وما ادراك ما العمل

عرض لوظائفه وأغراض الانسان والحياة والأنتاج .

نحن جميعا ندرك أغراضنا من العمل وغاياتنا منه ومن منا لا يدرك او لا يستطيع ان يدرك ذلك لان معرفة لماذا نعمل او ماذا نعمل لأجله معرفة لانحتاج لمعرفة تعرف بها او تعريف يعرفها او عرافه ولكن بعض الناس قد لا يعرف شيئا عن أغراض الحياة من العمل ومن لا يعرف يجب ان يعرف لكى ما يجل أغراض الحياة من العمل أغراضا له منها مع أغراضه منه فى مستقبله . وموجز القول .

(١) ان العمل مصدر الكسب وضمان للحياة من الفاقه والفقر وهذا مايتساوى الناس فى معرفته .

(٢) نشاط حيوى لابد منه للكائن الانسانى الحى • يحقق تعادلا بيولوجيا (حيويا) وسيكولوجيا (نفسيا) للطاقة يتم به اعتدال قوائم الجسم والعقل وقيام الصحة واستقامة المزاج وهما من عناصر السعادة والاسعاد •

(٣) انه ضد مقومات استغلال الشخصية ونموها وتكاملها • يرفع القابلية والوجدان والفاعلية التى تثمر النضوج •

(٤) يخلق اهدافا وغايات وجذورا للحياة ويهيأ للانسان وضعه وموضعه من أوضاع هيئته الاجتماعية وتصبح وظيفة من وظائفها • وهذا ينمى مشاعر الانتماء عند الفرد والاحساس بان للحياة أغراضا وأهدافا فى حياته ووجوده •

(٥) يخلق بيئة وصلات عاطفية يأتلف معها الانسان ويأوى اليها وروابط أخويه يعول عليها •

(٦) العمل طريق الاسرة والاستقرار • والاسرة موءسسة ضمانية تأمينية فى لحمتهــا وسداها •

والانتاج ثمرة العمل • فيه تحقيق الذات الجماعية والفردية وثمرة الرضا وازدياد التعاون والأخاء والرخاء • ه يتجاوب مع عاطفة العمل طردا وعكسا لان النجاح من ثمرات الانتاج وان الانتاج يرفع من كرامة الانسان لانه يرفع من كرامة العمل •

ولا جرم فبالعمل بنى الانسان المجتمع وشيد الموءسسات الانسانية وبالعمل اسس الحضارة وصنع التاريخ وبالعمل والانتاج سوف يطلق أعنة خيله الذريه المطهمة شاقا طريق النجوم لترد بين الجوزاء والمجرة ثم يربطها الى قرون السماك والشعرى • أن الاستقرار فى العمل وحسن آدائه واضطراد الخبرة والكفاءة فيه تكون أحسن مقياس لسلامة العقل والسلوك وهذا ما أثبتته تجارب العاملين فى ميدان الصحة العقلية والعلوم الاجتماعيه والمعيارية (الاخلاق)•

وأسمحوا لى بالقول ان سلوك الانسان لايقوم على سبب واحد نستطيع تعليله على ضوئه • أن سلوك الانسان يقوم على أسس أسباب وعلل متعددة فطرته وخاصه فطرة طباعه وتطبعه ، تجارب الطفوله الاولى ، وتجارب حياته الاجتماعية •••

ان الصحه والسعادة ليس لها سبب واحد فى الانسان بل لها أسباب متعددة تكتمل بها ٠ وعلى سبيل المثال نأخذ الاستقرار فى العمل ماهى مقوماته العامه ٠

(١) البيئه الداخليه : أى الانسان ذاته ويشمل فطرته وتجاربه ونزعته وحالته من النشاط الى غيره ٠

(٢) بيئة العمل بمعناها الشامل ٠

(٣) بيئته المنزليه ٠

(٤) البيئه الاجتماعيه بأوسع معانيها ٠

وقد كان سببا واحدا أبلغ فى تأثيره من الاخرى ولكنها متجاوبة فى النهاية ٠ أن هذه العوامل شأنها كشأن المؤسسات الانسانية والظواهر الاجتماعية تتفاعل مع بعضها على نهج ديناميكى لاعلى أساس عملية حسابيه بسيطه ٠ أى تتفاعل مع بعضها البعض كما وكيفا ومع ما ينجم منها بطريقة هندسية أو جبرية ٠ ولذا قد يكون حاصلها مختلفا عن مظاهرها الفرديه أشد الاختلاف لانه أشبه بالعملية الكيميائية ٠ وقد أدرك ذلك ابن الربيع فى القرن الرابع الهجرى وقال فى (سلوك المالك) ان تركيب فضائل مع فضائل قد يخلق غيرها من الفضائل أو الرزائل ٠ وقال :"ان من يجتمع فيه السخاء والاخاء يكون وهابا نهابا" ٠ أن البخل وحب المال وجمعه قد تكون الامانة معه وان الشجاعة وعفة النفس معها شدة الغيرة على الحرم وأن شعور الضعه (مركب النقص) قد يرفع الهمم ولابد أن نكرر ان تعدد السببيه والديناميكيه يجب أن تكون دستور الفكر لدينا فى دراستنا وسنرجع الى موضوعه فى مكانه ٠

بحث عنوان البحث وتبضيع موضوعه

يقول عنوان البحث "أهمية الانسان فى عملية الانتاج " ونحن نقوله معه ونقبله ونقره ونقرره وسوف ندعمه ونؤيده بالرأى والبرهان ما وسعنا واياه الحق ٠ لنتأمل هذا البحث

ولنسأل أنفسنا ما مفهوم هذا الانسان وما مضمونه ؟ وهل للانسان مفهوم واحد او مفاهيم تصلح لما يأتلف معها من أنواع البحث ٠ أن علم الانسان وهو اصطلاح حديث لمجموعة مؤلفة من العلوم (المألوفه) المؤتلفه التى يحتل فيها الانسان وموضوعه موضعا اساسيا من أغراضها منها العلوم الطبيعية والبيولوجية والاجتماعية والمعيارية وغيرها ٠ وقد قننت مفاهيمها للانسان بما تتطلبه ومناهج البحث فيها وما ينسجم من أغراضها وما يتفق مع حقائقها ونظرياتها وتصوراتها حسب مايمليه علم المناهج من اشتراطات وفلسفة العلوم من توجيه ٠ والمناهج وفلسفة العلوم اصبحت فرعا من المنطق ٠ ثم ما مفهوم الانتاج ؟ آليس هو ظاهرة أجتماعية جماعية تطورية فى جوهره يخضع للعوامل الانسانيه ؟

ولربما قائل يقول ماذا يقصد بكلمة مفهموم ؟ ماذا تعنى ؟ لقد شاع استعمالها ادبيا حتى أصبح مفهومها اشبه بجبة الدرويش او جراب الحاوى ٠

ان كلمة مفهموم اصطلاح تجريدى من اصطلاحات الفلسفة وعلم النفس وان المفاهيم ليست اسماء او اوصافا او صفات مما يدخل فى باب المحسوس وحقيقة حقيقتها انها من ضرورات الفكر والتفكير وليس من ضرورات الموضوع والواقع فهى صور فكرية للنوع يؤلفها الفكر ينتزعها من صور الافراد منها التى عرفها وألفها ٠ فكلمة أخضر مثلا وصف يفيد شيئا محسوسا ٠٠٠ نبات اخضر ٠٠٠ قماش اخضر ٠٠٠ سلعه خضراء ولكن قولة خضرة اى المصدر ليست الا تجريدا للأخضر فى كل ما شاهدناه ٠ انتزعناها من الاشياء الخضراء وطرحنا ما تبقى منها وبقى المجرد ٠ فالعدالة والجمال والرضا ما هى الا مجردات والمفاهيم نوع من المجاز العقلى لان العقل يريد ان يذكر نوع الشئ دون ان يتقيد باختلاف الافراد فى تفكيره ٠

مفهوم الانسان

ما هو مفهوم الانسان الذى يستقيم مع هذا البحث ؟ يقول اورتيقا الفيلسوف الاسبانى ان مفهوم الانسان لا يشمل مجرد

ذاته فحسب بل انه يشمل كذلك بالضرورة وفى حقيقة الامر دوافعه (ذاته مع بيئته فى حيزها الكامل من المكان والزمان والحركة وان الزمان الوجودى لا ينفصل عن الحركة التى تعنى التطور وحال الانسان من النشوء والارتقاء لان الزمان هو التطور أو وعاؤه وهو والمكان مع الانسان وحدة وجودية ٠ ويلح اورتيقا على ان مفهوم الانسان لا يتجزأ ولا يتبضع ٠٠ أو يتقسم وانه حتى اذا ما كان الانسان كما يقولون نسمة وقال انه لا يدرى معناها فاننا لا نستطيع تجريده من حيزى الزمان والمكان والحركة واختتم بقوله ان الانسان المجرد من خرافات العقل والنقل ٠

أدب الفكر والمفكــر

منهج البحث :

وغرضنا الان ان نوضح المنهج وعلينا ان نعين ونبين طريقته وأسلوبه الذى سوف نسلكه فى تقصينا وتتبعنا لقضايا البحث بغية الوصول الى غاياتنا من عرض وتحليل وما قد يلهمه من حلول فى النطاق الذى يسمح به مجاله ٠ ان طبيعة الموضوع وماتوحى به مفاهيمه تشير الى ان المذهب التطورى التاريخى الذى ذكرناه لاغراض المقارنة هو خير المناهج واصلحها لانه سوف يساعدنا بالقاء أضواء الماضى وتجاربه وخبراته التى تنير لنا البحث وسوف يكون تصورنا لموضوعنا عن طريقه فى صور متحركة تمثل فى بؤرتها أطوار مفاهيمنا نخص بها المؤسسات كحواشى لها فى زمانها ومكانها ٠

المذهب التاريخى التطورى

كان دارون اول من استعمل المذهب التطورى فى نظرياته فى التطور وأصل الانسان وقد استعمل فى كل الابحاث التطورية التاريخية وبرهن على كفاءته واستطاع ان يتوصل عن طريقه الى نظريات وقوانين ثبتت صلاحياتها فى العلوم البيولوجية والاجتماعية والمعيارية وهو من المناهج المختارة فى فلسفة العلوم ٠

توضيحات موضوع السببية

اسمحوا لى ايها الساده ان أقول بكل صراحه ودون ما قيد او شرط ان أساس الحاضر وأصوله ومشاكله لا توجد فى الحاضر وان للماضى علل وان الحاضر معلولات لتلك العلل توشك ان تنقلب عللا للمستقبل. ان كثيرا مما نراه من أسباب الحاضر فى الحاضر قد تكون أعراضه لا أسبابه - وان الاسباب التى قد نجدها فى الحاضر لمشاكل الحاضر لا تعدو ان تكون أشبه بالقشه التى قصمت ظهر البعير وكان العرب يسمونها الاسباب الفاعلة اما الاسباب الموجدة فهى الاسباب التى تجعل ظهر هذا الجمل عرضه للكسر . وذكر مفتى الاسلام ابن حجر الهيثمى فى كتابه (الفتاوى الكبرى) بصدد ذكره للبدع نوعين من الاسباب :-

الاصولية التى تهيىء للفاعلية

الوصولية التى كالقشة

وقال ان البحث لا يتم الا بمعرفة الاصولية منها .

وحدة المؤسسات وطبيعة الظاهرة الاجتماعية

يقول سيقرست : "ان تغير أى وضع من الاوضاع الاجتماعية يحدث قرعا وصدى فى كافة المؤسسات الانسانية فلها وحدة وظيفية لا يمكن فصمها" .

ان الاطار الاجتماعى لا يضم قطعا من الفسيفساء نستطيع ان نخرج الواحدة ونضع أخرى غيرها بل لابد من تغيير النمط كلا لتلائم الجديد مع القديم ، كذلك يجب اعتبار الظاهرة الاجتماعية مهما كانت طبيعتها ظاهرة حركية ليس لها ذاتية منفصله او استقرار داخل نطاقها . ان الظاهرة قد تنتقل فى مسيرها فتكون ظاهرة من نوع آخر وفى مصيرها قد تنقلب الى حال آخر وهكذا دواليك .

ان هذه الكلمة "اجتماعى" سوف تستعمل لأغراض البحث فى صورتها الشاملة التى تشمل النواحى الجماعية الاقتصادية السياسية والطابع الحضارى والقيم والصحة والتعليم وغيرها .

ان وحدة الظواهر الاجتماعية من ضرورات الواقع والمنهج

فالظاهرة الاجتماعية قد تنقلب لظاهرة صحية تنقلب الى اقتصادية .

كنا نقول ان الطب كالقدر يجرى فى مسالك خفية لاننا كنا نبحث عن ذاتية الظواهر فى تقلباتها ونوء من باستقلالها فى تطورها .

بحث البحث : انطلاقة :-

(١) ان الثورة الصناعية هى خير نقطة ينطلق منها البحث تاريخيا وواقعيا واجتماعيا .

(٢) كانت بداية الصناعة ومشاكلها لمفهوم اليوم .

(٣) كان الانتاج أهم أسبابها ووسائلها وأغراضها .

(٤) جاء التغيير الحضارى فى أثرها وكان أول تجربة للانسان من نوعه .

(٥) لان احداثها ومشاكلها تمثل نمط الاحداث فى اى مجتمع تقليدى (زراعى) يدخله التصنيع .

(٦) لأن تطور مفهوم الانتاج وتجاربها فيه فيها الادراك والمعرفة لبعض مشاكله فى الانتاج وسوف نمهد لها بصورة مستمده من احداثها وتجاربها فى أوائل القرن التاسع عشر ثم تنتقل الى عصر الادارة والتنظيم من بداية فكرته فى أواخر القرن الماضى الى ما بعد الحرب العالمية الثانية وأخيرا وليس آخرا الى بحث عوامل الثورة الزراعية التى اطلقها القطن بالسودان ونتائجها والى مشاكل التبصير الحضارى وبدأ الصناعة والتصنيع بالسودان وأثر ذلك فى السودان .

اوروبا ما قبل الثورة الصناعية :
استقرار الحالة الاجتماعية

(١) كانت اوربا تعيش تحت الاقطاع الزراعى وكانت الزراعة هى قوام الاقتصاد منذ القدم .

(٢) كانت الصناعات الى ذلك الحين يدوية تنحصر بين الافراد والاسر أو مجموعات صغيرة لأغراض التجارة الداخلية .

(٣) كان الناس قد ألفوا الاقطاع وكانت الحياة فى أستقرار لا يشوبه الا مشاكل اى حياة تقليدية وكانت مواكب الحياة تسير سيرتها الاولى . ففى حال السلم والهدوء . لم يقلعوا من بيئتهم . لم يتركوا قراهم ومدنهم . لم يألفوا مشاكل الحياة والسكن والازدحام واضطراب الحياة الا ما ألفوه .

(٤) راضين بحياتهم لم يشرهم ما يثير الطموح والمنافسة ولم يظهر شبح العطالة رهيبا .

وهكذا كانت تسير الحياة اشبه بما كانت عليه حياتنا التقليدية قبل الاصطدام الحضارى .

....

....

....

....

ولما فرغا من بناء منزل لهما بوادى الارز قالا لمرشدهما : يا أمنحات يابن طيبة هلم اقترب والينا استمع • ما اسعد مرتين من فرغ من عمل يومه واصبح يترقب غده لبدء عمل جديد • بورك العمل وبورك فينا •

العلاقات الإنسانية وأثرها فى تربية المواطن العربــى

قدمـــه

الدكتور حســين طابـا
المدير الأقليمى للهيئة الصحية العالمية
لمنطقة شــرق البحــر الابيــض المتوسط

كتب استجابة للدعوة الكريمة من المجلس الأعلــى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعيـــة برئاسة الجمهورية (ج٠ع٠م) للمساهمـة فـــى حلقة اسس التربيـة للعـــالـــم العربـــى

(مقدمـــة)

انه لمن دواعى سرورى أن أقدم هذا البحث عن العلاقات الانسانية وأثرها فى تربية المواطن العربى ، لا لان كاتبه الدكتور التجانى الماحى وهو المستشار الأقليمى لشئون الصحة العقليه بالمكتب الأقليمى لشرق البحر الأبيض المتوسط فالبحث قد يرى فى الظاهر خارجا عن نطاق العمل الرسمى لمثل هذه المؤسسة الدوليه ، بيد أنه فى الحقيقه يتناول موضوعا يرتبط كل الأرتباط بالمجال الحيوى لأوجه النشاط التى تمارسها الهيئه الصحيه العالمية وغيرها من الهيئات الدولية والقومية العاملة على توثيق عرى الصلات بين بنى الانسان بغية تحقيق الرفاهية الهادفه فى مختلف مجالات العمل من أجل اسعاد البشر اجمعين .

والعلاقات الأنسانية - وهى الزم ما ينبغى للمجتمع العالمى ان يرعاه - تربط بين السلوك الأجتماعى ، وهو دستور الجماعة وبين القيم الأنسانية الكبرى التى تحمل الطابع الحضارى للمجتمع الأنسانى وتعكس قدرته على الحياة والأرتقاء . ومن ثم ، يتم بها اقرار التعاون الوثيق بين مختلف المؤسسات التى تؤمن فى سداها ولحمتها العمل على بسط ظل السلام على الأرض .

ولما كان تعريف الصحة كما ورد فى دستور الهيئة الصحية العالمية هو انها ليست مجرد الخلو من المرض بل هى حالة من التمتع بكامل العافية الجسمانية والعقلية والاجتماعية ، فلا غرو اذن أن تكون العلاقات الأنسانية هى القاسم المشترك الأعظم بين الوظائف التى تمارس لصقل مفاهيم الحياة الجماعية وجعلها وسيلة لبلوغ الآمال فى عيش رغيد .

ومما لا شك فيه ان الفرد ، فى وظيفته داخل المجتمع ، هو محور العلاقات الأنسانسة فى تشكيلها ووظائفها ، ولذا فان صحة الفرد ذات اثر فى تكييف تلك العلاقات فى تفاعلها مع المجتمع . ومن هنا كان مفهوم الصحة متلازما فى كمه وكيفه مع ما حواه هذا البحث من افكار وقيم تلقى الضوء على ما كان

يكتنفه من قصور فى تحديد مفهومه . فسلوك الفرد والجماعة قد يضطرب نتيجة لأضطراب يطرأ على سلامة الجسم والعقل . ولربما كان الأدب وحسن الخلق عنوانا لسلامة العقل ، فالصحه وثيقه الصله بالعلاقات الأنسانية التى هى مقياس التآلف والتآخى والتعاون فى مختلف الآفاق والمستويات .

وهذا هو ما حدا بى ان اصدر البحث بكلمة موجزة مؤيدا ما ذهب اليه كاتبه من أن العلاقات الأنسانية وظيفة من وظائف الصحة فى بعض مجالاتها .

دكتور حسين طابا

المدير الاقليمى للهيئة الصحية العالمية

لمنطقة شرق البحر الأبيض المتوسط

العلاقات الإنسانية وأثرها فى تربية المواطن العربـــى

١ـ توطئــــــة :

المجتمع كائن حى له صفات الكائنات الحية ، يولد كما تولد الأجنة ويشب ويشتد ، ويقوى ويكتمل ، ويوهن ويضطرب ، ويفنى ويندثر ، وقد يبعث بعثا جديدا .

وفى تاريخ المجتمعات الأنسانية نرى مراحل الحياة وأطوارها تتوالى فى نسق ووضوح من عجز الطفولة وعرامة الشباب ووهن الشيخوخة ، ويعود الفضل فى ادراك هذه الظاهرة البيولوجية فى كيان المجتمع الى المؤرخ العربى الأشهر ورائد رواد علم الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون الذى اشار فى مقدمته لكتاب العبرالى " ان الدولة لها اعمار طبيعية كما للأشخاص .. وأن العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزيد الى سن الوقوف ثم الى سن الرجوع ويكون الهرم حاصلا مستويا..ولهذا كان انقراض الحسب " وقال أيضا : أن العمران ظاهرة جماعية غايته الحضارة .

فالمجتمع وظيفة حية من وظائف البقاء للجماعات ، لها طابع الحياة فى نشوئها وتقلبات اطوارها . والعلاقات الأنسانية وليدة السلوك الاجتماعى الذى يقره المجتمع دستورا لسلوك الجماعة الذى يقوم على أساسه تجريد معانى القيم الأخلاقية وبالتالى تقييمها وتقنينها الأصطلاحى . والقيم الأنسانية تحمل الطابع الحضارى للمجتمع فى مظهره وجوهره ، وفى حديثه وقديمه . وتعكس مدى قدرته على الحياة والأرتقاء لأنها مقياس للتآلف والتآخى والتعاون بين الأفراد فى مختلف وظائفهـــــم .

والعلاقات الأنسانية قامت ضرورة بقيام المجتمع الأول ولا زال بعضها يقوم قهرا لاطواعية فى كثير من المجتمعات . وكلما ارتقى المجتمع أصبحت جزءا من طبعه وطبيعته وانتفى منها مظهر الأكراه والألزام . ولهذه العلاقات آفاق ومستويات تتفاوت فى حدودها وتتدرج فى أهدافها . تبدأ محدودة فى الأسرة ويتسع افقها فى المؤسسات التربوية ويضطرد عمقا واتساعا فى مجال

العمل وفى الروابط الأجتماعية جميعها التى تشمل العلاقات السياسية والدينية ٠

والعلاقات الأنسانية تتمثل فى المبادئ، والقيم التى يقوم عليها الخلق وطابع السلوك بين الأفراد والجماعات ٠ ولذا فان ماهية العلاقات الأنسانية وبحثها تنحصر فى بحث ماهية الأخلاق وطبيعة السلوك الأجتماعى السائد فى المجتمع ٠

٢ـنشأة السلوك الأنسانى (الأخلاق والسجايا) "١"

وتتمثل القيم فى الخلق والسجايا وأنماط السلوك بين الأفراد والجماعات ولربما لا يستقيم مفهوم هذه القيم الا على هدى الزمان والمكان ٠ لأن معانيها تتصل بحياة المجتمع فى شتى نواحيه اتصالا وظيفيا ولذا كان تقييمها بالضرورة نسبيا٠ فالضرورات الاجتماعية والاقتصادية وغيرها مثلا قد تكون حافزا على انشاء قيم جديدة تقوم على انقاض قيم سابقة استنفدت حيلتها وأغراضها ٠ ولا جدال فى أن القيم نفعية فى غاياتها بالنسبة للمجتمع ، تبدأ بالتجربة وتكتمل بالممارسة والخبرة

"١" قال ابن الربيع فى سلوك المالك " اختلف العلماء في الفرق بين السجايا والاخلاق فذهب قوم الى ان السجايا ما لم تظهره الطباع ٠ والأخلاق ما أظهرته ٠ وذهب قوم الى أن السجايا ما لم يتغير بطبع ولا بتطبع والأخلاق ما تغير بهما ٠ وذهب المتدينون الى أن الله تعالى ركبها فى النفوس بحسب ارادته ... "فالسجايا أو الطبع هى ما نسميه الان (Innate Disposition) والاخلاق او التطبع (Socialized Behavior) واسترسل الى قول آخر أن " الطبع والتطبع كل منهما يحتاج الى الآخر ولا يستغنى عنه لأن الأخلاق لا تنفك عنهما فهما بمنزلة الروح والجسد" ٠

كتاب"سلوك المالك فى تدبير الممالك"تأليف العلامة شهاب الدين احمد بن محمد بن ابى الربيع ألفه للخليفة المعتصم بالله العباسى ٠

وترسخ بالعقيدة ومن ثم تصبح هدفا في ذاتها ، قال الأبهرى فى كتاب الهداية " الواجب فى ذاته واجب من جميع جهاته " .
والمجتمع يمارس ما يؤمن به فى حاضره وما يصله من ماضيه العتيد . والناس من كافتهم الى كافتهم ، ومنذ القديم الى هلم جرا يؤمنون بما يواجههم فى واقع بيئتهم مما تلزمه ضرورات العيش والكسب وغيرها من الضرورات التى تمليها دوافع الغرائز الأنسانية والتى تتجاوب مع تجارب الحياة المكتسبه طردا وعكسا ، فتتمدن وسائلها فى التماسها السبيل رغم أن أغراضها الغريزية لاتفتأ باقية على ماهى عليه من فطرة ساذجة أولى . والأهداف الغريزية لم تتغير أزليتها ،ولكن استطاع الأنسان صقلها ضرورة عن طريق التجربة والخبرة حتى اصبحت تجنح الى سلوك جماعى مكتسب . فهى ابدا موجودة بذاتها وبغيرها اصلا ومظهرا. وفى سلوك المالك " أن الطباع اذا اهملت ولم ترض بالتأديب والتقويم نشأ كل انسان على شوم طباعه وبقى عمره كله على الحال التى كان عليها فى الطفولة "وان الطبيعة البهيمية تنزع نحو مصادفة اللذات العاجلة الشهوية " وقوله هذا يتضمن مفهوم مبدأ اللذه والألم فى اتجاه السلوك الانسانى .

ورغم أن المجال لا يسمح بالخوض فى الفلسفة الاخلاقية عن الفضيلة وعن معانيها وعن مقاييس للخير والشر ، فانا نجد ان هذه القيم التى تصبح فصائل بالتقنين تختلف فى تقديرها باختلاف الزمان وحيز المكان ، بل قد تختلف فى تقييمها بين طبقات المجتمع الواحد . وفى كتاب "الميسر والقداح" يقول ابن قتيبه وأما نفع الميسر فان العرب كانوا فى الشتاء عند شدة البرد وجذب الزمان وتعذر الأقوات على أهل الضر والمسكنه يتقامرون بالقداح على الأبل ثم يجعلون لحومها لذوى الحاجه منهم والفقراء فاذا فعلوا ذلك اعتدلت احوال الزمان واخصبوا وعاشوا واستراشوا "ثم ذكر بيتا من الشعر للأعشى يمدح الذين يجعلون اقوات الفقراء منهم على الياسر واسترسل قائلا" وكانوا يمدحون بأخذ القداح ويسبون بتركها ويسمون الموسر الذى لا يدخل معهم فى الميسر ولا يحتمل الغرم لصلاح احوال

الناس البرم ، وكانت العرب تقول ايضا للرجل البخيل ابرما قرونا يريدون أنه لا يدخل فى اهل الميسر لميسرهم ويأكل تمرتين تمرتين • فالقبيح ليس قبيحا فى ذاته بل بالاضافة الى فاعله أو فعله •

وهذا يدل على أن الفضائل فى مفهومها نفعية كما أنها فى تقييمها نسبية • وبعض الكتاب ربما ينجح للأعتبار بان الفرد هو محور العلاقات الأنسانية فى تشكيلها ووظائفها • وأن ظاهرة الجماعات فى طبيعتها وفى وجودها ووجوبها ما هى الا تفاعل جزرى فى كمه وكيفه ، لا اكثر ولا اقل ، ويرى آخرون ان الظاهرة الأجتماعية وظواهر التجمع لا يمكن تعليلها على أساس الطاقة الفردية دون اعتبار لمظهرها التجمعى فى خروجها من القوة الى الفعل لأن لها صفه تستمر فى ذاتها •

على أنه لا طائل تحت نقاش يقود للألغاز والمطارحة • وللبحث عما اذا كانت البيضة اصل الدجاجة أو أن الدجاجة اصل البيضة • ومهما يكن الأمر فالعلاقات الأنسانية باعتبار مصدريتها وصدورها امر جماعى نشأت بنشوء الجماعات وفى قبولها وممارستها – وبالتالى انتشارها وتقنينها – ناحية اجتماعية لا فردية وغايتها تهدف لمصلحة الجماعة لا لمصلحة الفرد وحده • وهذا يقودنا للسوءال التالى : ما هى اسس هذا السلوك ؟ ونشأة هذه الأخلاق فى جماعيتها واجتماعيتها ؟ •

٣ أسس السلوك :

يقوم السلوك الانسانى على عاملين أساسيين :–

أ) الوراثة

ب) البيئة بأشمل معانيها

وفى سلوك المالك "أن الخلق حال للنفس ••• منها ما يكون طبيعيا من اصل الخلقة وما يكون مستفادا بالعاده • وما يكون طبيعيا من اصل الخلقة كمن يحركه ادنى شئ نحو الغضب وكمن يجبن من ايسر شئ ••• وما يكون مستفادا بالعاده مبدأ

ذلك بالفكر والرويه ثم يستمر عليه أولا فأولا حتى يصير عادة أو ملكة يقارب الطبيعى" .

أ) الوراثة : وقد يطول الكلام عن الوراثه والبيئة وقد يشتد الجدل ، غير أن هناك ما يدعو للأخذ بالرأى القائل بتكافوءهما فى الأهمية وبتكاملهما فى الفعل والنعت لأن كلا منهما يتمم الآخر فى المجال والوظيفة والموارد والاسباب . والوراثة قد تسهم فى تكييف البيئة عن طريق السلوك تكييفا حصوليا . كما أن البيئة قد تسهم فى تكييف الوراثة تكييفا حضوريا سواء كان عضويا او سيكولوجيا . والرأى السائد ان هذا التكييف عن طريق البيئة امر عهدى لا جنسى كما يقول الفقهاء . اى طارئ لا لازم من حيث انتقاله من جيل الى جيل .

والعامل الوراثى ذو اهمية فى مستقبل السلوك وطبيعة اتجاهه ، رغم ان انماط السلوك (الأخلاق) لاتورث وراثة نوعية لأن الوراثة تعمل عن طريق الاستعداد الموجه الذى قد يتكيف مظهره بفعل البيئة تكيفا قد يفقده اصوله الفطرية . ولذا فليس من المستطاع فى النهاية فصل ما للوراثه للوراثة وما للبيئة للبيئة الا من الناحية النظرية التى تفرضها اغراض التبسيط . وتوسعا فى شرح اغراض البحث نقول على سبيل المثال أن التسول فى السلف قد لاينتقل حلوله بحرفيته فى الخلف . ولكن قد تنقل الوراثة استعدادات عامة موروثة تتحدد فى مسلكها على ضوء البيئة . وقد تنجو الاستعدادات جملة من فعل الوراثة وقد لا تنجوء ويصف الميبدى فى شرح الهداية للأبهرى نوعين من الكيفيات الأستعدادية الاستعداد القابل للأنفعال والاستعداد القابل للانفعال . كما يصف الأستعداد الذى يكون "شديد الدفع" والذى يكون "بدون صلة به" وفى هذا الصدد قد تتخذ هذه الاستعدادات القابلة للأنفعال فى افصاحها اساليب اخرى من السلوك اللا اجتماعى كالتسول والنصب والسرقة والمقامرة لانها كلها تقوم على اساس سيكولوجى واحد (الدافع لأن يكسب المرء ويستخلص شيئا من لا شئ أو شيئا بأقل شئ)

وقد تتسامى هذه الاستعدادات اللا اجتماعية فتفصح عن طريق الابتكار • وقد تسهم فى خلق العبقرية لأن العبقرية فى طبعها مزاج من المتناقضات التى تعتمل وتسخر طاقتها القوية لخدمة الذكاء الثاقب الذى هو أحد مقوماتها • ومن ثم كان سلوك العباقرة مسرحا للتناقض والفوضى •

ومن الصعب تقرير اتجاه السلوك اللا اجتماعى على اساس نظرى لأنه قد يفصح عن نفسه بوسائل لها صلة بالمواهب العامة للشخص ذاته (وخاصة فى فطرته من الذكاء وفى طبيعته من الجرأة والاقدام) • كذلك لهذا الأفصاع صلة بتجارب الحياة وبما تمهده الفرص التى تمكنه أياها طبيعة مواهبه لاستغلال المجتمع بطريقة فعالة مجزية •

قال ابن الربيع فى كتاب "سلوك المالك فى تدبير الممالك" • "قد يحدث من تركيب مع فضائل غيرها من الفضائل" أو غيرها من الرذائل وسوف نفصل هذه الناحية الدينامية الهامة من السلوك فى مكان آخر • وقد اشرنا اليها نسبة لأهميتها • لأن المواهب المختلفة للشخص فى تفاعلها مع بعضها قد تحدث اتجاهات ثانوية ربما تطغى على ما هو فطرى أو مكتسب •

وليس من المستطاع التحكم فى عوامل الوراثه لكى نوجه طبيعتها الفطرية توجيها اجتماعيا • كما أن سبل الوقاية قد لاتكون كفيلة فى جدواها لغموض عوامل الوراثة التى تنطوى عليها عوامل الانحراف • وغاية ما يمكن عمله فى هذا الصدد ينحصر فى نطاق الأرشاد وحسن اختيار الزوج بتقصى الحالة المدنية والصحية وثبوت الخلو من الامراض والانحراف السلوكى فى الشخص وفى تاريخ الاسره رغم ان هذا التقصى قد لا يتيسر مع طبيعة العواطف الطاغية التى تقرر دون سواها عوامل الاختيار فى الزوجية • كما انها قد لا تحقق فائدة كبرى لأن ظاهرة الوراثة تحمل اسرارا لا يزال العلم من امرها فى حيرة • ومن هذا فان مصلحة المجتمع تتطلب قيام هذه الخدمات لأرشاد طالبى الزواج بوضع تشريعات تهدف الى ضمان صحتهم رغم أن هذا كما قلنا — لا يجدى كامل الجدوى الا من الناحية السيكلوجية التى قد تكون عاملا قويا فى توطيد أركان الحياة الزوجية • ففى

حالات التعرض للصرع مثلا قد تخلق الشكوك والريب ، التى قد تقوم على اساس بعيد الاحتمال ، ظلا يهدد الحياة الزوجية بين الذين يقدمون على الزواج دون التأكد من أن هذه الظاهرة قد تكون عارضا لا يحتمل انتقاله بالوراثه • والوراثة كالصوفية لا تؤمن بالتواتر والنقل بل بالالهام والشطح •

وقبيل الحرب العالمية الثانية قامت تشريعات فى المانيا تفرض التعقيم الاجبارى للاسر التى تنحصر فيها بعض العلل الموروثة بالتزاوج مثل بعض انواع البله والتخلف العقلى ، وقد اتخذت هذه الخطوة استنادا الى اسس نظرية دعت الى التشكك فى قيمة هذا التعقيم من الناحية العملية زيادة على أن هذا التعقيم قد يحرم هذه الاسر من فرص انجاب اطفال اذكياء متمتعين بموفور الصحة • ويؤيد ذلك ما كتبه كرشمر فى كتابه عن تاريخ العباقرة ان عددا منهم قد نشأ اصلا فى اسر كان بينها بعض المتخلفين والشواذ •

وفى الدانمرك طبق نظام الأخصاء (استئصال الخصيتين) الجراحى على عدد من المجرمين العتاه المتميزين بطابع الاجرام الجنسى الذى ظن أولا أنه تابع لأنحراف الغريزة الجنسية من حيث ارتباطها بوظيفة الخصية باعتبارها احدى الغدد الصماء • ولكن عندما اطلق سراح هؤلاء انتكسوا وارتكبوا أشنع الجرائم ، ونعزو ذلك الى تعدد أسباب السلوك سواء الطبيعى أو الشاذ منها على أساس تكامل من الناحية البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية • وتعقيبا على ذلك نقول أن مشكلة السلوك الأنسانى من ناحية الوراثة امر معقد غاية التعقيد وبالتالى فان توجيه الوراثه توجيها ايجابيا امر عسير • ورغم ذلك فللوراثة صلة جوهرية بالبيئة تجعل من الممكن تحقيق اصلاح السلوك عن طريق البيئة •

ب) البيئة : وتشمل البيئة بوجه عام البيئة الجغرافية والاجتماعية مع ما قد يتفاعل معها من أسباب سيكولوجية أو عضوية تؤثر على الوظائف التشريحية والفسيولوجية التى تكون اساسا عضويا للسلوك ، نضرب مثلا لذلك الالتهابات التى تصيب

المخ والمجموع العصبى وغيرهما من اعضاء الجسم ، وكذلك ما ينشأ من اثر العاهات وغيرها .

ولكى نستوفى أغراض هذه العجاله نقوم ببحث البيئة تحت ما يلى :-

الأســـرة :

الأسرة حجر الزاوية فى تربية السلوك وهى أول مكيف للعلاقات الأنسانية تبدأ فيها تجارب الطفل الأولى ، ويقوم فى محيطها تلقينه ، ويتأثر فيها بفعل القدوة وما يتكامل من تفاعل بيئة الأسرة بعكسه الطفل فى سلوكه الاجتماعى بوجه عام مستقبلا ، رغم أن السلوك يتكيف باضطراد نتيجة للاحداث والتجارب الشخصية فى كل اطوار العمر . ويقول اليسوعيون أن القيم نشأة وعقيدة وأن طابع السلوك يتقرر فى مرحلة الطفولة الاولى . وهم يلتقون بهذا الرأى مع فرويد الذى يرى أن النمو العاطفى تكتمل اطواره الأولى وتتحدد اتجاهاته فى الطفولة الباكرة . وان اعاقة هذا التطور لسبب من الأسباب قد لا يؤدى الى انحراف فى السلوك فحسب بل الى اضطرابات نفسية أو عقلية خطيرة . ويعتقد فرويد أن هذا النمو العاطفى ليس وظيفة من وظائف السلوك الاجتماعى فحسب بل يذهب مغزاه بعيدا الى مضمون يؤثر فى الصحة العقلية ذاتها من حيث السلامة والمرض . والحقيقة أن مدرسة فرويد لاتقيم وزنا للوراثه ولم يكن من أغراضها اساسا بحث السلوك الاجتماعى على ضوء تطور العاطفة ، بل كان منهجا يهدف الى ربط التطور العاطفى بمدلول السلامة وصحة العقل على اسس طبية . ولهذا الأتجاه أهمية خاصة لأنه يربط المعنى الأجتماعى للسلوك والقيم بمفهوم الصحة لأن الصحة فى مفهومها الشامل ضرب من السلوك .

ويقرر فرويد أن عقدة اوديبوس هى نواة السلوك الأنسانى وعليها يقوم مستقبل النضوج العاطفى الذى يتقرر على ضوئه طابع السلوك الاجتماعى وطابع الصحة العقلية . وأن اضطراب عقدة اوديبوس لايؤدى الى انحراف فى السلوك فحسب بل الى اضطراب فى صحة العقل . ومضمون هذه النظرية أن الذكور من

الأطفال يميلون بفطرتهم ميلا ايجابيا الى امهاتهم وأن هذه العاطفة التى تتركز نحو شخص الأم قد تثير فى نفوسهم مخاوف تجاه الأب قد تحمل على الكراهية • كما أن الأناث من الأطفال تدفعهن طبيعة فطرتهن لتقديس الأب (كل فتاة بأبيها معجبة) وبالتالى الى موقف يتسم بالغيرة تجاه الأم ، وهذه ما يسمونها بعقدة اليكترا • وخلاصة القول يرى فرويد ان هذه العاطفة فى صورتها المحدودة تكون ظاهرة انسانية أساسية لا تقبل الجدل فى موضوعيتها ونفاذها • بل انه يضعها فى شمولها موضعا أشبه بوضع الغرائز من الأنسان رغم أنه لا يقول بذلك صراحة •

على أننا نرى أن عقدة اوديبوس دون تشكك فى اعتباريتها من ناحية الوجود لا تخلو من أن تكون حدثا من الاحداث الأزلية فى تجارب الخليقة ، نشأت وما زالت تنشأ نتيجة لاختلاف طبيعة الصلات البيولوجية والعاطفية بين الطفل وأمه من جهة ، وبينه وبين أبيه من جهة اخرى ، دون أن يكون لها هذا الأثر المزعوم فى مستقبل حياة الطفل من الصحة والسلوك لأن التجارب الحديثة تثبت بما لايدع مجالا للشك أن السلوك يشمل المفهوم الأجتماعى والصحى يقوم على أسباب وعلاقات كثيرة متعددة لا على اسباب مصدرية واحدة — ونظرا لاستقامة هذا الرأى من الناحية العلمية والتجريبية فانه يجب علينا أن نجعل فى اعتبارنا أن تعدد الأسباب قد أصبح حقيقة مقررة فى أى بحث يشمل السلوك • وهذه نقطة ينبغى توكيد كفايتها وجعلها لأى بحث يمت الى السلوك بصلة •

ولعل عقدة اوديبوس فى حقيقتها وعينها لا تعدو أن تكون احدى التجارب الأولى للجنس البشرى رغم اننا لازلنا نجهل طبيعة التجارب للطفل فى السنة الأولى تجاه الأم مثلا • وتجد مضمون عقدة اوديبوس فى الملاحم الكبرى للشعوب المختلفة كافة • فى قصص أبى زيد الهلالى ، وعنتره ، وحمزه البهلوان ، والزير سالم ، وموسى الكليم • كما نجد التعبير عنها فى الفنون وغيرها من التراث الأنسانى ولعلها اكثر وضوحا فى وقائع التاريخ وقصصه وخاصة فى تاريخ العروش والأسر الحاكمه • ودون

أن نلجأ الى ادلة اخرى نقول ان بطلان هذه النظرية يقوم على التعليل لا على النعى وكما يقول الاستاذ العقاد أن هذه النظرية يجب الا تؤخذ جملة ولا ترفض جملة .

ونجد فى واقع حياة الاسرة ما يؤثر كذلك فى اتجاه الطفل تأثيرا فعليا وخاصة فى مجال الصلات العاطفية بينه وبين اخوته والطفل الوحيد نتيجة لاستئثاره بحب أبويه قد يشب على نمط يتسم بالأثرة والفجاجة وعدم النضوج . كما أن سيكولوجية الطفل الاخير قد تتخذ طابعا يختلف عن سيكولوجية الطفل البكر وسيكولوجية اخوته الآخرين ، وكل هذه ترتبط أولا وآخرا باتجاه الوالدين وموقفهما العاطفى من اطفالهما . وبهذه المناسبة نقول أن ايثار الوالدين لطفل على آخر واختلاف اتجاههما العاطفى او تناقضه نحو اطفالهما قد يسبب مشاكل لا تقتصر على الطفل الأثير أو الطفل المختلف بشأنه بل على الأطفال الآخرين جميعا ولا يزال علماء النفس فى الغرب يقولون بأهمية ما يسمونه "التنافس بين الاخوة" للأستئثار بصحبة الوالدين ويتعبرون أن لهذا التنافس الذى ينشأ من عوامل الغيرة مغزى ذا اثر عميق فى مستقبل الصحة النفسية للطفل . وهم يعزون كثيرا من الأضطرابات النفسية التى تصيب الأطفال الى طبيعة هذا التنافس . وهذا رأى عريض يحمل فى مضمونه الكثير من المبالغة لأنه فى المجتمعات التى يفشو فيها تعدد الزوجات مع مايتبعه من غيرة ومنافسة واضحة لانجد ما يبرر هذا الاعتقاد . ولعله فى بحثنا عن الأسباب قد نضطر لخلق الأسباب التى قد تصبح نافذة المفعول من الناحية السيكولوجية وبالتالى قد يكون من الصعب نفيها . وبالرغم من أن قيام النظريات امر ضرورى من الناحية التجريبية فى كل علم نقول ضرورة لا اضطرادا ان المعلل فى تعليله قد يربط علة دون ان يكون لها صلة سببية بالمعلول وأن الرابطة السببية التى تقوم على الوهم قد تصبح قوة فعالة تعمل من الناحية السيكولوجية بطريق الأستهواء والأقناع . وتاريخ النظريات العلمية ملىء بهذه الأمثلة وخاصة فى مجال الطب النفسى لأن زوال الأسباب الوهمية للمرض قد تكون كفيلة بزوال المرض ذاته .

والتربية المنزلية كما قلنا تتمخض عنها قيم هامة تؤثر فى مستقبل السلوك فالأسرة سبب ونشوء . والمفهوم الاول فى الصحة يقوم فى ذهن الطفل مما يتلقنه بالمنزل . ولا بد من أن نؤكد اهمية صحة البدن ونمو الجسم كعامل يسهم فى نشوء الاخلاق ، لأن الأخلاق كظاهرة سلوكية تتكامل بتكامل النمو البيولوجى والاجتماعى الذى يقوم على وحدة العقل والبدن . وقد قال ابو الفرج المالطى فى مقاله عن النفس البشرية "ان النفس والعقل واحد" وأشار الى الاسباب التى لأجلها يحدث اتحاد النفس بالجسد قائلا "ان فعل النفس لا يكمل الا بآلة البدن فانها اذا بذلت جوهرها فى تحسين الفضائل ودفع الرذائل تبلغ الغاية القصوى والمرتبة العالية . وهذه الامور لا يمكن الوصول اليها الا بالبدن . والوجه الثانى ان الجسم يكمل بهذا الاتحاد" وذكر شهاب الدين بن الربيع فى سلوك المالك فى تدبير الممالك "ان السجايا والأخلاق تابعة لمزاج البدن فتكون مستقيمة لصحته" وعلى هذا يصبح الاهتمام بصحة البدن عن طريق التغذية والوقاية والعلاج له وظيفة ايجابية فى شأن السلوك . وبعض الانحرافات السلوكية قد تنشأ من اثر تفكك الاسر فى حالات الطلاق او الهجر أو سوء العلاقات الزوجية او ما ينشأ من عوامل اجتماعية نتيجة للأدمان أو العطالة . وسوء التغذية قد يكون عاملا فى اعوجاج السلوك عند الاطفال لانه يهدد نموء الوظائف الفسيولوجية والسيكولوجية التى يقوم عليها النمو الجسمى والعاطفى . وقد تتميز بعض الحالات التى تضطرب فيها بعض الغدد الصماء عند الاطفال بسوء السلوك كما قد تنشأ انواع من الانحرافات نتيجة للعاهات وفى هذه جميعها قد يتسم السلوك بالشك والريبة وبالقسوة والكراهية او الشراهة والاثرة وصنوف الاتكالية او تفصح عن طريق القلق والمرض النفسى . وتلخيصا لما سبق نقول أن للصحة البدنية اثرا فى بناء العلاقات الانسانية ايجابا او سلبا .

وفى الكلام عن الاسره نتحدث عن الام فانها تمثل مركزا هاما فى التنشئة والتربية . ووظيفة الام فى مجتمع اليوم تختلف عن وظيفتها فى الماضى الذى كانت اهدافه محدودة فى

نطاق التربية • وقد وضح ان ما تسهم به المرأة فى المجتمع لا تقوم كفايته على كفاية المرأة فحسب بل على مكانتها الاعتبارية فى الاسرة والمجتمع ، ففى المجتمعات التى تحقر المرأة نجد أن مساهمتها فيما تقوم به قد ينتقص وقد يضار ضررا بليغا • وقد وضح هذا جليا فى مهنة التمريض حيث افاد الاختيار ان صلاحية برامج التدريب فى حقل التمريض قد لاتقوم بمفردها فى رفع كفاءة المراة فى المجتمعات التى تحتل فيها مكانا ثانويا يؤثر على روحها المعنوية ، كذلك وضح أن التطور الاجتماعى الذى لا يشمل مضمونه فيما يشمل التطوير لشأن المرأة فى المجتمع كجزء لا يتجزأ من عملية التطور قد تنتكس نتائجه انتكاسا ذريعا ، بل قد يؤدى تخلفها الى اضرار سيكولوجية تحيق بحياتها النفسية قد يكون من نتائجها ما يؤثر على الطفل والاسرة والمجتمع • وربما كان من الضرورى بحث تعدد الزوجات فى هذا الصدد • فقد قام تعدد الزوجات قديما فى الشريعة الاسلامية على اساس ضرورات بيولوجية نافعة لها قيمة فى بقاء الجماعات وحياتها وليس كما يتقول الجهلاء بأنه قام اصلا على اسباب تمت الى المتعة واللذه • وكان الحافز اليه قديما كثرة الوفيات بين الاطفال وقصر اعمار البالغين عموما نتيجة لانعدام الرعاية الصحية وانتشار الفوضى والغارات والحروب مما هدد المجتمع بالانقراض وما زلنا نجد هذا واضحا بين جماعات البدو والعرب الرحل • وقد كان ايمان المرأة فى هذه المجتمعات بحكمة هذا التشريع له اثر فى تقليل الاخطار الناجمه عنه مما يتولد بالضرورة من عوامل الغيرة والشقاق والكراهية والتنافر بين افراد الاسرة الواحدة ، كذلك كان لتعدد الزوجات صفة اقتصادية لان المرأة فى النظام القبلى وكذلك الاطفال كانوا يمثلون الايدى العاملة التى تدعم اقتصاد المنزل • وكلما كبر حجم الاسرة اتسعت مرافقها وامكانياتها المعيشية • وفى عالم اليوم نجد ان تبدل النظم الاجتماعية والاقتصادية وما تبعها من عوامل الاستقرار والاستيطان ومن نشوء المرافق الصحية وارتفاع مستوى المعيشة كل هذه قد اسهمت فى تحسين صحة الطفل وفى رفع مستوى

العمر الطبيعي للسكان مما جعل تعدد الزوجات يفقد وظيفته البيولوجية الاولى. ومن الملاحظ انه بين قبائل الرحل التى تم استيطانها واستقرارها وفق تخطيط اقتصادى وطيد قد اصبح تعدد الزوجات من العوامل الضارة بالصحة العقلية للام وبالتالى للطفل بل للاسرة جميعها لانه كنظام اجتماعى قد فقد وظيفته الطبيعية واصبح مصدرا للخطر ونشبهه اليوم بالزائده الدودية التى فقدت وظيفتها فى الانسان الاول فاصبحت مصدر قلق نتحين الفرص لاستئصاله . ورغم ان محاربة تعدد الزوجات قد لاتتحقق دون قيام تشريعات فعالة فقد وجد فى بعض المجتمعات التى تفشو فيها هذه الظاهرة ان قيام المنشآت الوقائية والعلاجية التى تسهم فى وقاية الطفل وتحسين صحته والتى تهدف الى معالجة العقم بين النساء والى رفع مستوى المعيشة وتوفير الخدمات العلاجية والوقائية للمجتمع قد تكون هذه في ذاتها من أهم العوامل لمكافحة تعدد الزوجات . ويجب ان لا ننسى أن تعليم المرأة هو اهم عامل فى هذا الصدد على الاطلاق لانه يبنى شخصية المرأة ويخلق فيها الوعى والاحساس بدورها كأمرأة وأم .

٤ - المؤسسات التربوية

المدرسة ركن هام من أركان التربية والعلاقات التى تبثها يقوم مداها على افق اجتماعى اوسع . والمدرسة امتداد لبيئة الاسرة تعمل على مستويات اكبر اتساعا واقوى نفوذا فى الناحية الاجتماعية ، وكان لامتداد سنى الدراسة الى مراحل العمر الاولى فى رياض الاطفال والى ما بين الثالثه والعشرين والخامسة والعشرين فى قمته فى المستوى الجامعي كان لهذا الامتداد قوة فى جعل المؤسسات التعليمية ذات اثر فعال فى التربية الخلقية حتى صار طابعها اقوى طابع تربوى للشعوب وحتى اصبح موضوع العلاقات الانسانية من صميم الاعمال التربوية وكان ايضا من اثر هذا الامتداد امتداد فترة المراهقة فى مظهرها السلوكى من الرابعة عشرة قديما الى ما بعد الثالثة والعشرين . وكان لهذه الملاحظة صدى فى الابحاث التى ظهرت

آخيرا فى بعض البلاد الغربية وخاصة فى فرنسا لما ترتب على ذلك من ظواهر اجتماعية اتسم بها طابع الشباب الجامعى .

ويجب لفت النظر الى ان المربى يحتل فى وظيفته التربوية مركزا لا يقل اهمية عن الاسرة لأنه يعمل لتأهيل الطفل لصلاحية اجتماعية اوسع مدى . كذلك يجب أن ننوه بأهمية المدرس الأولى فى اثره الاجتماعى على الطفل لان عمله يبدأ فى مرحلة حاسمة بالنسبة للطفل . وهناك ما يبرر الأهمية القصوى لهذا الطور من التربية الاجتماعية مما يهيىء مركزا خاصا لمعلم المرحلة الاولى الذى يجب الاهتمام بشأنه وتحسين مركزه الاجتماعى بين طبقات المربين . والحقيقة التى لا تقبل الشك ان الوضع المهنى لهذه الطبقة الهامة فى كثير من بلاد الاقليم قد لا يحسدون عليه . فقد كان لأحساسهم بعدم الرضى بحالهم انعكاس قد اتخذ مظهرا يتسم بالتبرم والشدة والتعصب فى بعضهم مما قد يهدد مستقبل السلوك فى النشىء ، وفى تجاربنا الخاصة ان اخطر ما تتعرض له سيكولوجية الاطفال فى هذا الصدد هو التعصب الدينى .

ونجد ان السلف قد بذلوا عناية خاصة بالتربية فى هذه المرحلة من العمر لادراكهم لاهميتها فى تقرير مصير السلوك . ونذكر على سبيل المثال لا الحصر ما كتب عنها من الناحية الفنية ، مثل كتاب آداب المعلمين "لابن سحنون"و"المفصلة لاحوال المعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين" للقابسى (اخرجهما الدكتور احمد فوءاد الاهوانى فى كتابه التربية فى الاسلام) "وتعليم المتعلم طريق التعلم" للزرنوجى . ولعل من اهم هذه الكتب "تذكرة السامع والمتكلم" لابن جماعه . اما ما كتب برجه عام فلا يمكن حصره فى هذه العجالة . ونكتفى منها بكتاب الغزالى "ايها الولد" وكتاب "السياسة لابن سيناء" ، وابى اصر الفارابى وغيرهم . والطابع المميز للتربية قديما كان يقوم على اهمية التربية الدينية ومفهومها للفضائل وعلى بث ثقافة دينية فى نظم التعليم عامة . ولا جرم فقد كان الدين سياجا للحياة وطابعا لكل الموءسسات الاجتماعية حتى اصبح من الضرورة ان يتثقف كل صاحب مهنه ثقافة دينية . وبلغ

الاهتمام بالتربية الخلقيه حد التقديس • وقام تقنينها ووضعيتها على اساس الدين وسوف نشير الى أمثلة من هذه فى موضعها المناسب وتجدر بنا الاشاره فى هذا المقام الى كتاب خاص له اهمية بالغة فى بحث الأخلاق بحثا يكاد يكون فى منهجيته وموضوعيته بحثا عصريا وقد كتب بالطريقة المشجره المجدوله (أى على أساس جداول) تساعد على فهم البحث بطريقة محسوسه • ذلك الكتاب هو كتاب " سلوك المالك فى تدبير الممالك " تأليف العلامة شهاب الدين احمد بن محمد بن ابى الربيع الذى سبقت الأشاره اليه • ويقول ابن الربيع " ان السلوك يسهم فى توفير السعادة البشريه ولذا كان الأرتياض بمكارم الأخلاق امرا يراد لذاته " وقال" ان الاخلاق تقوم على الطبع الغريزى نتيجة لتعادل ثلاث قوات غريزيه مختلفه فى الكم والكيف هى القوة الفكريه والقوه الغضبية والقوة الشهوية " ونقول بلغة اليوم الأدراك والنزوع والعاطفه• وقد ادرك ابن الربيع فى ذلك العهد اهمية مركب النقص فقال فى صدر حديثه عن القوة الغضبية "أن الحمية هى الغضب عند الاحساس بالنقص وقد تولد عظم الهمة" وقد بحث فى تفاعل الاتجاهات الرئيسية للسلوك وكيف انها تخلق انماطا من السلوك تطرأ نتيجة لهذا التفاعل• فقوله الذى اشرنا اليه سابقا عن أنه قد يحدث من تركيب فضائل مع فضائل غيرها من الفضائل او الرذائل "يضرب له مثلا فيقول "أن حدوث الشجاعة مع السخاء قد يحدث الأتلاف للمال والأملاق لصاحبه وأن العقل مع العفه قد يحدث الصيانة والنزاهة • والشجاعة مع العفه قد تحدث شدة الغيرة على الحرم وانكار الفواحش " ونزيد على انها ربما تحرض علي ضرب الحجاب عليهن"• ويمتاز هذا الكتاب بدقة التعريف • وعلى سبيل المثال نورد تعريفه للبلاغة وحسن الكلام اللذين يعدهما فضيلة تسهم فى تنمية العلاقات الأنسانية قال "ان البلاغه هى ان ينطق المرء بما ينبغى بقدر ما ينبغى كما ينبغى متى ينبغى" وفى بحثه. اقسام العلاج قال "اما انها بالعقاقير او الحديد (الآلات) او بالمعونه من الخارج" وفى هذا شمل مضمون العلاج النفسى وقد أشار عند بحثه فى تربية

الطفل الى ضرورة تجنب التعليم الجنسى وبالنسبة لاعتبارات زمنية لامحل لبحثها نرى صواب هذا الرأى. ونظرا الى أن المشاركة من لوازم السلوك فقد اشار العلماء والفلاسفه قديما الى معرفة النفس كركن هام فى حسن توجيه السلوك بالنسبة للغير فقال الراهب الأصفهانى فى كتابه " تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين "قال الحكماء اول مايلزم الأنسان معرفة نفسه ، وقالوا مرة أول ما يلزمه معرفة الله تعالى وليس بين هذين القولين تضاد... وبمعرفة النفس يتوصل الى معرفة الغير ومن عرف نفسه عرف العالم وصار فى حكم المشاهد لله تعالى ومن عرف نفسه عرف أن يسوسها ومن أحسن أن يسوس نفسه يسوس العالم ومن عرف نفسه لم يجد عيبا فى أحد الا رآه موجودا فى ذاته اما ظاهرا او كامنا ككمون النار فى الحجر فلا يكون همازا لمازا عيابا.

هـ ـ العمـــل:

والعلاقات فى مجال العمل لها أهمية لا فى بث روح التعاون للانتاج فحسب بل فى تنمية عاطفة المشاركة بين المواطنين التى لها صدى كبير فى حياة المجتمع وقد اصبح تنظيم العمل يستدعى بث العلاقات الحسنة وحسن الثقة والتفاهم بين العامل والعامل وبين العامل والمخدم . ودلت التجارب على أن بعض المشاكل التى تنشأ من أضطراب هذه العلاقات قد تصل الى حدود المرض النفسى وقد تؤثر بدورها على الاسرة وعلى الصلات الاجتماعية بوجه عام . وبنشوء نقابات العمال اصبحت هذه المنظمات تتمتع بسلطة كبيرة فى المجتمع وخاصه فى مجال سياسات العمل وقد تتعداها الى غير ذلك . وقد حثت الكتب المنزلة وأفاضت فى شرح فضيلة العمل حتى اصبح العمل فريضة كغيره من الفرائض الدينية . وتحدث يوحنا الدمشقى فى كتابه "ينبوع المعرفة" عن ضرر العطالة وأعتبرها خطيئة من الخطايا . وتدعو عاطفة العمل الى التعاون والاخلاص وأحترام حقوق الزمالة والخضوع لضرورات العمل والى الطاعة وبذل الجهود المتناسقة والمنافسة الحميدة . وقد اطال الغزالى فى

ادب العمل وكتب الشيبانى فى كتابه "آداب الكسب والمعاش" والحبشى فى كتابه "البركة فى فضل السعى والحركة" .

والأمة العربية الآن تجتاز طور التصنيع الذى يدعو الى العمل الجماعى وقيام الصناعات الكبيرة يؤثر تأثيرا كبيرا فى وضع المجتمع وخاصه فى القيم ونمط الاسكان، وجلب اليد العاملة قد يؤدى الى اضطراد النزوح الى المدن مما يؤثر على نمط العلاقات السائدة والتصنيع اهم عامل اقتصادى له الاثر فى رفع مستويات الحياة وفى نشر الوعى الاجتماعى وفى خلق آفاق ومفاهيم جديدة . ولذا أصبح تنسيق علاقات العمل امر لامفر منه لتدعيم الصلات بين العامل وصاحب العمل بوضع أسس للأجور وشروط للعمل مجزيه للطرفين، وبالعمل لتحقيق رفاهية العامل داخل العمل وخارجه على السواء . والأمر يتطلب فيما يتطلب فرض التشريعات لوقاية العامل من اخطار البيئه والمهنه ومن اصابات العمل ولتنظيم الجهاز العلاجى وبذل التعويضات المجزية لمن يصابون من جراء العمل، وصارت تغذية العامل خلال ساعات العمل جزءا من مهام الصناعة . والتصنيع يستلزم نشوء التعليم الصناعى، وزيادة على المدارس الصناعية التى تهيىء الشباب للمهن الصناعية المختلفة فان دور الصناعة أضحى من واجبها وفى نطاق مسئوليتها تدريب العمال فى المهن التى يعملون بها، ونشأ عن ذلك بالضرورة محاربة الأمية والعمل على تثقيف العامل لرفع معنوياته ولاعداده اعدادا حسنا لمهمته من الناحية المهنية والاجتماعية . وتحدث ابن الربيع فى سيرة الانسان مع اهل نوعه (غيره من الناس) فأشار الى أن طبيعة السلوك لها مستويات تختلف باختلاف المركز الاجتماعى وقد حدد سلوك الفرد مع من فوقه وسلوكه مع اكفائه وسيرته مع من دونه . فقال عن السيرة تجاه الرؤساء "ينبغى أن يكون بين المرء وبين رئيسه ملازمة دائمة وأن يواظب على مافوض اليه من امره وأن يمدح فعله ويحسن ما يأتيه ويكتم احواله ظاهرا وباطنا وأن لحقه ملال أو ضجر فليحذر الشكاية والتألم وأن يريه وجه الصلاح بالأشارة من غير امر ولانهى فاذا فعل ذلك استقام أمره .

٦- بناء الاسرة فى الزواج ومركز الأسرة فى المجتمع:

الاسرة هى المجتمع الصغير الذى يقوم عليه مستقبل كل أمة ولذا اصبح الاهتمام بالأسرة من صميم واجبات الدوله، فقامت التشريعات الخاصه بالزواج وبتسهيل سبله وبالرعاية الاجتماعية والصحيه للطفل والاسرة وخاصه الأم. كما قامت دور الحضانة لأطفال العاملات من الأمهات. وقد اسهمت فى ذلك وسائل البحث الأجتماعى والأشراف الصحى خارج الجدران. كما قامت المؤسسات لعلاج الأنحراف فى الأطفال. وكان للتغذية الاضافية التى اصبحت وظيفة من وظائف دور رعاية الطفل - ولتوفير الساحات الشعبية للرياضة واللعب، شأن كبير فى تحسين صحة الطفل. والتثقيف الصحى للوالدين امر ضرورى. وهنالك اجهزة تحت اشراف وزارة الصحة والثقافة والأرشاد القومى تلعب دورا كبيرا فى هذا الصدد عن طريق مكافحة الأمية فى خلق وعى صحى اجتماعى. ولايتسع المجال لذكر اهمية مركز الأم بالنسبة للمجتمع، ولذا كان من الضرورى تدعيم مركز المرأة برفع شأن الأمومة فى شخص الأم. واعياد الأم واعياد الأسرة قد تساهم كثيرا فى لفت الأنظار الى مركزها البارز فى المجتمع. وبهذه المناسبة يجدر بنا الاننسى فضل اولئك الرواد الأوائل الذين وهبوا حياتهم لرفع الاسرة فى شخص الام فى وقت كان فيه من الصعوبة بمكان رفع الصوت دفاعا عن حقوق المرأة وكان قاسم امين اول هؤلاء الرواد فى هذا المضمار ولعل كتابه "المرأة الجديدة" خير ماكتب فى هذا الموضوع. ولايسعنا الا الاعجاب بشجاعته فى ذلك العهد الذى كان فيه التحدث عن حقوق المرأة أشد انواع الكفر. وتجب الأشارة الى أهمية التشريعات التى تحد من انتشار الطلاق والتى تنظم مشاكل الحضانة والنفقة لتكون اكثر ملاءمة للطفل التى صدرت مؤخرا فى الجمهورية العربية المتحدة ولما سوف يكون لها من فضل فى حماية الأسرة.

٧- مشاكل الشباب:

الشباب مستقبل الأمة. ورعاية الشباب تبدأ بطابع

العلاقات الزوجية وبرعاية الأم فى اطوار الحمل والرضاع ورعاية الطفل من مولده الى شبابه ويدخل فى صميم ذلك الأهتمام بالمجتع ذاته. فمشاكل الشباب ماهى الا ظاهرة اجتماعية بأوسع مافى هذه الكلمة من معان. وللشباب فى كل زمان ومكان مشاكل تطبع بوظيفة مرحلة العمر التى يتجاوزها وخاصة فى صلتها بالتغيرات البيولوجية فى مجال الجنس. كذلك تتأثر بطابع البيئة التى يعيش فيها الشباب سواء فى ساعات الدراسة والفراغ. وربما كان لتنظيم الفراغ بخلق الجمعيات الدراسية لأغراض الرياضة والرحلات وغيرها أهمية خاصة فى وقاية الشباب. لأن العمل الأجتماعى يتضمن تدريبا اجتماعيا لا للشباب فحسب بل لأفراد المجتمع ايضا.

وقد كان من اثر التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى تتابعت على الأمة العربية فى السنين الخمس والعشرين الأخيرة وخاصة بالنسبة للمبادىء التى نجمت من اثر الحرب العالمية الثانية وانتشار الصحافة والمذياع والتجاوب الفكرى بين رقاع العالم وسبل المواصلات الحديثة وانتشار وسائل الترفيه كالسينما والمسرح كان من اثر هذه ظهور مشاكل كثيرة بين الشباب وخاصة لأن طابع المراهقة قد امتد امده فشمل سنى الدراسة الجامعية. وتتسم هذه المشاكل بظهور القلق والتوتر والأنحراف الأجتماعى بكل أنواعه مما يشمل التمرد على سلطة الأسرة ونبذ القيم والتقاليد. وفى المحيط العربى بدأت هذه الظاهرة بعد الحرب الأخيرة وأصبحت مشكلة تهدد مستقبل المجتمع وقد كان للنهضة الصناعية وما تبعها من عوامل للهجرة والاستيطان ونشوء مهن جديدة وقيم جديدة اثر فى نشوء هذه الظاهرة.

وقد اتخذت مشاكل الشباب مظاهر تتجدد فى طابعها وآخر ما الفناه منها الطابع الذى اشتهر "بجيمس دين" الذى يمثل الأنحراف وخاصة فى الناحية الجنسية دون حياء أو خجل. وفى بعض البلدان نسبة للوضع الأجتماعى اتخذ تمرد الشباب طابع العصابات أو ادمان المخدرات والخمور او النشل او غيره. ولاشك فى أن هذه مشكلة انتقالية بالنسبة لنا دعا اليها

انهيار القيم فى مجتمع سريع التطور، زد على ذلك فقد الثقة فى الضمير العالمى الذى تغلبت القوة فيه على الحق فى وضح النهار. وقد تكون هذه المشاكل جزءا من الثورات والانقلابات التى طرأت نتيجة للتطورات الفكرية الحديثة والوعى الذى شمل هذا الاقليم ، ولكن الشباب قد جانبه التوفيق فى التعبير عما تصدى له.

وليس من الحق أن نعيب الشباب وحده فالمجتمع هو المسئول ايضا والظروف المحيطة بهذا العالم المضطرب مسئولة كذلك. ويقوم المجلس الأعلى لرعاية الشباب بهذا الأقليم بتخطيطات موفقة فى مشروعاته لوقاية الشباب من الانحرافات. وهذا المشروع الذى ظهر مؤخرا فى الصحف يبدأ برعاية الطفولة ويمتد الى مرحلة الزواج ومراحل الشباب فيما بينهما وهو نواة طيبة للعمل غير أن حصر هذه المشكلة وعلاجها فى نطاق الأنحراف الجنسى الذى هو ظاهرة من الظواهر العامة للأنحرافات الأجتماعية انما هو محاولة لعلاج الأعراض دون الأسباب رغم أن البرنامج يشمل فى جوهره بحث الموقف الأجتماعى الشامل من كل نواحيه ولعل بعض الانحرافات الاجتماعية تنشأ على أساس الجهل وقد يكون الجهل من عوامل الأنحراف ولو أن العلم قد لايحمل على الطاعة كما قال الغزالى. والمراحل التى حددها المجلس الأعلى اهدافا للعمل تمثل مراحل التطور الأجتماعى خير تمثيل. ونذكر أن ابا الفرج الجوزى فى "تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر" قد قسم العمر الى مراحل تتفق مع اغراضه التى تنصب على أغراض التربية الدينية والخلقية كما اجاد السيوطى فى كتابه "اتمام الدراية لقراء النقاية" فى تقسيمه لمراحل العمر تقسيما لأغراض تتفق غاياتها مع طلب العلم وضرورة الجهاد ومقتضيات الصحة فتحدث عن عمر النمو، وعمر الوقوف، وعمر الانحطاط مع بقاء القوة ، وعمر الضعف الى آخر العمر ومنتهاه ، ولربما كان مفهومه هذا اصلح فى بحث القوى العاملة.

وجد ان مشاكل الشباب اليوم تصل الى قمتها فى المحيط الجامعى فهناك اثر التعليم والمعرفة وتصادم القديم والحديث

وحرية الرأى وحرم الجامعة واثر المراهقة والشباب والمنافسه وهذه قد تخلق ثورات فكرية قد تهدد الغرض الجامعى اذا لم يتوفر لها خلق النشاط الاجتماعى فى مجالات تتسامى بهذه المشاكـــــل.

واعتبار التعليم الجامعى فى بعض البلاد هدفا فى ذاته قد لايهيىء الشباب فى مستقبلهم لمهن خاصة . وقد تكون العطالة فى المجتمع عاملا يزيد من حدة الاضطرابات الجامعية تعبيرا للقلق على المستقبل ، فلذا ينبغى خلق صلات بين الجامعات ودور العمل مع الاهتمام بتنظيم دراسات تدريبية اضافية للمتخرجين لتهيئتهم للعمل الذى قد يختلف فى طبيعته عما تهيئه لهم الدراسات الجامعية .

٨ـ العاطفة الدينية :ـ

العاطفة الدينية من اقوى العواطف التى يجب توجيهها توجيها فعالا لصالح المجتمع . ونسبة لأهميتها فأن وضع سياسة قوميه للتربية الدينية فى المؤسسات التربوية امر لا غنى عنه لان ترك توجيهها للعوامل الفردية وعوامل الصدفة ربما يخلق اتجاهات خاطئة تضر بالفرد والمجتمع ، والعاطفة الدينية من اكثر العواطف الأنسانية التى تستعمل سلاحا ومطية للكراهية والأضطهاد والبغض فى امور لا تمت الى الدين بصلة . وقد تستغل الاختلافات المذهبية والطائفية لتسند اسبابا عنصرية أو تستعمل فى مجال المنافسة ايا كان . وهذا من اخطر ما يهدد المجتمع . والدين اداة للفكر يسند المجتمع عن طريق القدوة والتعليم والارشاد والترغيب والترهيب . والطاقة القوية التى تنطلق منه لها اكبر الاثر فى الشعور بالمشاركة الأجتماعية . والتربية الدينية قد تعمل فى تزييف الأهداف وفى جعلها اداة للشر الغريزى . وكثيرا ما يستغل الدين لأغراض السياسة الحزبية وربما نتج عن هذا الارتباط بين الدين والسياسة اخطر ما يهدد العلاقات والروابط القومية .

ويرى الكثيرون أن الكتب السماوية ليس من أغراضها ان تكون موسوعات يبحث المؤمنون فيها عن مشاكل العصر لكى

يجدوا فيها حلا لمشكلات العمال فى القرن العشرين على سبيل المثال . بل هى آداة الهام تلهم المؤمن لاستعمال الفكر فى حل مشاكله الطارئة . والدين قد كرم الفكر ورفع من شأنه ، ويقول الابهرى فى كتاب "الهداية" بازلية العقول وابديتها وكيف أن العقول تتوسط بين البارئ وبين العالم الجسمانى لتنال المعرفة وكيف ان النفس الكاملة بتصورات حقائق الاشياء وبالاعتقادات البرهانية تتصل بعالم الحق . وتحدث عن تطور العقل فذكر المرتبة الاولى التى تكون فيها العقول غلفا خالية من جميع المعقولات ولا تملك الا الاستعداد لها ، وكيف تتدرج العقول فى مراتب تبدأ بحصولها المعقولات البديهية ثم تنتقل من البديهيات الى النظريات الى العقل المطلق ، وفرق بين نمو الذكاء وبين نمو الجسد وقال أن العقل لا يطابق الآله الجسمانية فى نموها ونقصانها لأن البدن بعد الأربعين ياخذ فى النقصان مع أن القوة العاقلة تأخذ فى الكمال .

والدين ليس مفهوما جامدا . قال عليه الصلاة والسلام "لاتجتمع امتى على ضلال" وقال "ما رآه المؤمنون حسنا فهو عند الله حسن" (حديث ضعيف) وفى هذا تكريم لرأى الجماعة لوسائل الاجتهاد . وقال على كرم الله وجهه "الناس بزمانهم اشبه منهم بآبائهم" .وهذا قول يتضمن حكمة تشمل مغزى التطور الاجتماعى وحتميته ، وقد ردد ذلك الفيلسوف الفرنسى المعاصر برجس . وقال سقراط لا تكرهوا اولادكم على آثاركم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم .

ونجد فى حكم (أمن — أم — ابت) أول تقنين للقيم والسلوك يقوم على مفهوم الدين كذلك نجد الحث على التحلى بالفضائل الاجتماعية فى كتاب الموتى وفى نصوص الاهرامات وفى تعاليم "خاتى" فى مصر القديمة . ويجد القارئ امثلة رائعة فى كتاب "تربية الضمير" الذى ترجمه وأفاض فى التعليق عليه العالم المصرى المحقق الدكتور سليم حسن ، كذلك نجد فى الكتب المنزلة كالقرآن والانجيل كما فى غيرهما من الكتب المقدسة للاديان الوضعية كما نجد فى الشرائع التى تنتقل

بالتواتر من جيل الى جيل فى المجتمعات البدائية التى مازالت تجهل التدوين والكتابة تقنينات هامة للسلوك والأخلاق وربما كانت فكرة التوحيد التى نشرها اخناتون اول خطوة فى التاريخ لها اثر فى توجيه العقيدة وبالتالى فى العلاقات الانسانية الأيجابية .

وربما يخيل للبعض ان الشعوب التى عاشت فى الماضى السحيق كانت متخلفة الضمير ولكن الامر ليس كذلك الا من الناحية النسبية لان الضمير الانسانى كان وما زال يقاس فى اصالته على مدى انطباقه على قيم وواقع الحياة المعاصرة له وحتى فى العهود التى كانوا يتقدمون فيها بالقرابين البشرية كانوا يبغون من ذلك استمالة قوى الطبيعة التى كانت تمثل الخالق فى جلاله ورهبته وخشيته وكانوا يقومون بذلك لدفع شر هذه القوى واستمالتها لخير الانسان عن طريق السحر لأن السحر كان له مكان العلم وجلاله فى الماضى. والسحر قد خدم البشرية فى ماضيها وما زال يخدم بعض "النفوس الساذجة التى لم تكتسب شرف العلم".

وقد اهتم الاسلام بتقنين سلوك المسلم وتحديد صلاحيته وكان ذلك دافعا للفقهاء والعلماء والفلاسفة لتوسيع نطاق البحث فى ماهية الاخلاق وطبقا لذلك توسع مفهوم الفضيلة حتى شمل مفهوم الصحة وحتى اصبح تعريف الصحة ينحصر فى انها هى الفضيلة وهذا قول حق ولربما كان الأدب وحسن السلوك خير عنوان لتكامل الصحة وخاصة فى مجال العقل وقد كان لكتب الأخلاق التى ترجمت فى العصر العباسى أو احدثت فيه أو بعده اثر كبير فى ذلك ككتاب الأخلاق لارسططاليس وكتاب ابن الربيع وكتب الغزالى وتهذيب الأخلاق لابن مسكويه وكتاب الطب الروحانى والأخلاق الممدوحات والمذمومات لابن عكاشة الشيرازى، والأدب الصغير والكبير لابن المقفع، وكتاب الأدب والمروءه لابن جناح المرعى وكتاب السياسة (ويراد بها تلافى الخلل واصلاح مافسد من الخلق) للفارابى وكتاب السياسة لابن سينا وغيرها. وقد كان من أثر هذه الكتب ان الاخلاق الشرعية انتقل مفهومها الى احوال مدنيـــة .

٩- العاطفة السياسية

والحديث عن الدين يقودنا للحديث عن السياسة ونشير بايجاز الى طبيعة العلاقات السياسية والى أثرها فى توجيه العلاقات الاجتماعية سواء ماكان منها فى المستويات الحزبيه أو القومية أو الدولية او ماكان فى مظهرها البدائى كالقبيلة أو ماهو كائن فى تطورها المذهبى الذى هو آخر ما وصلت اليه فى طوافها الدولى فى الوقت الحاضر. والسياسة - كالدين - نشأة وعقيدة وقد تكون مصلحة كبرى. وفى خدمتها للمصالح تؤمن السياسة بالفلسفة الواقعية التى تقول أن الغاية تبرر الواسطة فهى تسخر وتسخر وتخضع وتخضع فى سبيل الأهداف ويبدو تنازع البقاء فى اجلى مظهره السافر فى مجال العقائد.

١٠- النشاط الاجتماعى خارج العمل:

فى خارج العمل، كل منا يزاول نشاطا اجتماعيا يتفق مع ميوله وفلسفته ووضعه الأجتماعى وأمكانياتيه الأقتصادية. والنوادى بنوع عام وسيلة جماعية للترفيه ولاستثمار أوقات الفراغ فى نشاط اجتماعى موجه. وتسهم النوادى ايضا فى خلق هوايات مشتركة فى انشاء مجتمعات صغيرة متحدة المشارب وتقوم القهوة اليوم مقام النادى للطبقات الشعبية فهى توفر لهم الوانا من الترفيه وفرصا للسمر وتبادل النكات وحلبة للنقاش ووقتا للأستماع للمذياع والتمتع بالأغانى والموسيقى والألعاب الخفيفه مما يتفق مع واقع حالتهم الاجتماعية والذهنية. وكل هذه يمكن استغلالها لغرض التثقيف الاجتماعى والصحى. ويجب الا يغيب عن الذهن أن لهذه القهاوى اثرا ايجابيا فى الترفيه والتوجيه يتناسب مع الحالة الاجتماعية لروادها وأن فرض المثالية لرفع المستوى الاجتماعى لهذه الدور لن يكون له اثرا الا مع رفع الحالة الاجتماعية لروادها ولربما يفسد فرض المثالية فرص المتعة والترفيه التى تتفق مع ميول روادها، مما يضطرهم الى البحث عن أنواع اخرى من الترفيه قد لاتتوافر فيها الصلاحية من الناحية الاجتماعية. لأن الترفيه - من حيث

هو - امر ضرورى لاغنى عنه "لاستراحة القوى النفسانية وتتميم الأفعال الطبيعية" كما يقول ابن الربيـــع٠

ونجد أن قلة الهوايات قد يترتب عليها فقد الحاسة الاجتماعية التى لها اثر اجتماعى فى رفع الروح المعنوية وفى المحافظة على مستوى السلوك بمحاربة الفردية ، ومن المشاهد عموما ان قلة الهوايات اكثر انتشارا بين المعرضين للآفات السيكولوجية وقد أصبح العلاج بمستشفيات الصحة العقلية يقوم على اساس جماعى لأن روح الجماعة تسند الفرد فى وقت الشدة وقد وضح ان التثقيف الصحى لا تنجح وسائله الا بارتباطها بالجماعة ونفوذها الى الافراد عن طريقها٠

وعلى مستوى آخر تهدف النوادى والجمعيات المهنية المختلفة التى لها اهداف محدودة فى توسيع الأفق الأجتماعى وفى تقوية روح الجماعة ورابطة المهنة وفى توجيه الجهود المشتركة للعمل الاجتماعى، كذلك فى محاربة الضجر وفى تبادل عواطف الصداقة والأخاء والمودة التى تثمر المزيد من التعاون وفى بث الثقافة البدنية بممارسة الرياضة٠ والترفيه ضرورى لحماية الصحة بالاستجمام ويجب الا ينظر اليه كمضيعة للوقت وقد حث العلماء والفقهاء والاطباء قديما على الترفيه وينبغى الاننسى أن أغراض الترفيه ووسائله تختلف بأختلاف المستويات الاجتماعية والاقتصادية ونجد فى هذا العصر نسبة لانتشار السينما والمسرح ودور الموسيقى والطرب اتخذ الترفيه بالضرورة طابعا مختلفا يتلاءم مع الحالة الراهنة للمجتمع وقد طرأ بالفعل بين الطبقات المتوسطة نتيجة لانتشار وسائل المواصلات وخاصة السيارات تغيير فى وسائل الترفيه واستطاع افراد هذه الطبقات التمتع بالهواء الطلق خارج المدن وزيادة الأرياف وغيرها من الوان الترفيه التى كانت محظــورة عليهـــم ٠

ولايزال الترفيه فى القرى له طابع البساطة ينحصر فى السمر الليلى وتبادل الاخبار والزيارات٠ وقد ادخل الراديو بعض العناصر الخارجية لهذه الندوات التى كان فراغها ينحصر داخل الشئون المحلية للقرية ٠ والراديو من العوامل التى

تربط المجتمع بغيره . وقبل ان نختتم نقول أن تنظيم النشاط الاجتماعى فى أوقات الفراغ على اساس طبقى يلائم طبيعة المشتركين فيه امر حيوى من واجب الدولة أن تسهم فيه . وأقول معقبا ان الاهتمام بنوادى الشباب امر هام فى توجيه الشباب وفى وقايتهم من عوامل الانحراف .

١١- التثقيف الاجتماعى :

وفى هذا العصر الذى انتشرت فيه وسائل الاعـــــلام كالصحافة (١) والاذاعة والسينما والتلفزيون وغيرها اصبح من الممكن بل من الضرورة تسخير هذه الوسائل جميعها للأرشاد على انه ينبغى اختيار الوسائل الملائمة لطبقات المجتمع المختلفة لتهيء الادراك والاحاطة ، قال القس جرجس طحان (احد كهنة طائفة الروم الكاثوليكيين بحلب ١٨٠٢) عن خبرية الكتاب المقدس "ان الله يحب ان يوضح ذاته لمتواضعى القلوب والبسطاء اكثر مما يوضح ذلك لمحبى الفضول وحكماء العالم" وكما قال المسيح "اعترف لك يا أبتاه رب السموات والارض لانك اخفيت هذه عن الحكماء واظهرتها للأطفال" وحقيقة هذه الحقيقة ان التثقيف لا يثمر الا اذا سلك سبيل الوضوح ونزل الى مستوى الجماهير فى تخيره وسائل الفهم والادراك . قال صلى الله عليه وسلم "نحن معاشر الانبياء امرنا أن نعلم الناس على قدر عقولهم" ويرى الفرغانى قصر التعليم لدى بعض الناس "لاسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق" .

والطبقات الاميه التى لها خط يسير فى استيعاب وسائل الارشاد الاجتماعى لا يمكن تثقيفها الا بالعمل لمحو الامية لكى تمكنها من استعمال الوسائل التى يستطيعون بها ادراك معنى التوجيه والارشاد ولذ اصبح تعليم الكبار وظيفة لفعالية التثقيف الصحى . كذلك يجب حصر اهداف الارشاد فى مجال

---

(١) الصحافة أهم وسيلة من وسائل الاعلام والتثقيف والتوجيه وفى رسالتها تعكس الصحافة مستوى القيم ومدى ما يتمتع به المجتمع من فاعلية ونضوج .

الامكانيات الاجتماعية والاقتصادية لهذه الطبقات بالبعد عن المثالية • والتثقيف الصحى لا يحتاج الى وسائل تختلف فى نهجها وكيفها عن التثقيف الزراعى او الصناعى او الاجتماعى بوجه عام لان الصحة والزراعة والصناعة وأصحاح البيئة عموما اوجه من نشاط المجتمع ووظيفة مرتبطة بعضها بالبعض لا يمكن فصلها الا للضرورة النظرية • فالبلهارسيا علة تضر بحيوية المجتمع وقدرته على العمل والانتاج • والقواقع التى تحمل عدواها تعيش فى الترع والحقول المضمورة بالمياه ولذا اصبحت عله مرتبطة بالاقتصاد الزراعى وهنا نشأت الرابطة بين الزراعة والصحة • وقد اسهم مركز التربية الاساسية للعالم العربى بسرس الليان اسهاما بارزا فى التطوير الاجتماعى للقرية ولعله قد حقق ابرز عمل فى ميدان الخدمة الاجتماعية فى تاريخ هذا الاقليم ومرجع ذلك الى فلسفة باحثيه فى العمل التى قامت على اساس التجربة والخبرة فى الميدان والتى قام عليها المنهج التكاملى الذى اصبح دستورا للعمل الاجتماعى فى مفاهيمه الاقتصادية والتربوية والصحية والمهنية والترفيهية وغيرها باعتبارها وحدة متماسكة لا يمكن فصل اطرافها من الناحية التشكيلية والوظيفية والتجريبية دون أن يحيق ضرر بمفهومها • وكان للارتباط الشامل لهذا المنهج فضل فى خلق الوعى الاجتماعى والقومي ويبدو أن التثقيف الصحى بمفرده قد لايستطيع خلق الوعى الصحى الكامل الا اذا اصبح جزءا لايتجزأ من تثقيف اجتماعى شامل يعنى بالحياة فى القرية فى كافة مرافقها • ولربما كان من حسن الطالع ان خبراء هذا المعهد الذى قام على اكتافهم تخطيط هذا العمل وابتكار وسائله الرشيده كانوا من ابناء البلاد العربية الذين يؤمنون بمجتمعهم والذين دفعهم هذا الايمان الى ابتكار الوسائل التى تتمشى مع قيمة سالف ماضيه وواقع حاضره الذى الفوه كقاعدة أساسية لان المجتمع هو الحقيقة الكبرى هو الحياة •هو الصحة • هو الماضى والحاضر والمستقبل • ولا جرم فقد رأينا فى زيارتنا لهذا المعهد كيف انهم بدأوا بالمجتمع ومؤسساته وقيمه ثم بحثوا بعد ذلك كيف تسهم هذه القيم فى وثبة

المجتمع وكيف يمكن جعلها قاعدة للنهوض • ويمثل هذا المنهج الواقعى نستطيع تطوير القرية وبث العلاقات الانسانية فيها لربطها بالعالم الخارجى • ومن ابرز ما فى هذا المركز روح التعاون بين الباحثين •

والتثقيف الصحى ليس اداة ينحصر استعمالها فى يد المختص فالزائرة الصحية فى الاسرة والممرض فى نطاق عمله والطبيب فى مستشفاه والعامل فى مصنعه والخبير الزراعى فى الحقل ورجل الدين فى المسجد يستطيع كل منهم القيام بتثقيف جماعته اذا رزق الحكمة والوعى وتلمس السبل الصالحة للارشاد بين مستمعيه • على أنه لن يستطيع ذلك الا من كان متمتعا بالثقة وحسن الادراك •

واتخاذ الترفيه وسيلة للتثقيف الاجتماعى تقوى من قبول الفكرة وقد اهتمت الكنائس الاوربية ببث الثقافة الصحية عن طريق الاعمال الترفيهية ، وكان اهتمامها منصبا على نشاط الشباب ورعاية الاسرة • وقد ادرك الاجتماعيون هذه الحقيقة منذ القديم فنجد انهم فى عصور الاسلام الاولى اهتموا بركوب الخيل والرماحة والسباحة والرماية لما تسهم به فى تحسين الصحة والعلاقات وفى امور الجهاد والدفاع • وبعض الجمعيات الدينية فى هذا الاقليم كجمعية الشبان المسيحية وجمعية الشبان المسلمين قد اسهمت فى هذا الصدد • ومما يدعو الى الغبطه ان الجمهورية العربية المتحدة قد ذهبت بعيدا فى تخطيط الوسائل لحماية الشباب عن طريق الترفيه • وهذا مما يساعد على مكافحة المشاكل الاجتماعية لشباب هذا الجيل ولا يغرب عن بالنا الفوائد الترفيهية والتثقيفية الجليلة للمتاحف والمعارض والاعياد والزينات التى تدخل البهجه فى النفس وتشيع الثقة بالحاضر والامل فى المستقبل • قال على ابن ابى طالب "تفاءل بالخير تنله" وقال كوبر "ان اشاعة البهجة والامل فى النفس باية وسيلة تجعل الاحساس بها حقيقة واقعة " •

واليوم نجد ان بعض الطبقات الكادحة التى لم تؤهلها حالتها الاجتماعية فى الماضى لنيل العلم بدأت تتعطش للمزيد

من التثقيف خارج الجدران اما فى المدارس الليلية او بوسائل الاطلاع المنظم • واذا كان مشروع الألف كتاب من المشاريع الناجعة التى تسهم فى ثقافة الشعب المتعطش بتيسير امهات الكتب له باثمان لا ترهق • كذلك كان لقيام الجامعات الليلية اثر فى خلق كفايات كامنه وكفاءات ترفع مستوى الحياة والاسرة وتساعد على خلق اهداف بانيه اقل مافيها وقاية الفرد والمجتمع من اضرار الفراغ والبطالة • وقديما اهتم العلماء بهذه الناحية ففى القرن الماضى نجد بعض المصلحين فى مصر قد اهتموا بتثقيف الشعب • وقد اسهم المرحوم على باشا مبارك فى نشر الثقافة الصحية فى كتابه "تنوير الاذهان فى تغذى الاجسام" ونجد فى كتابه الذى سماه "علم الدين" (٤ اجزاء) موسوعه شاملة هدفها التثقيف الشعبى عن طريق تبسيط المعرفة كذلك اسهم العالم العربى الدكتور احمد زكى (رئيس تحرير مجلة العربى بالكويت الان) اسهاما كبيرا فى تبسيط العلم لاغراض الثقافة العامة • ولعله فى هذا المضمار قام بابرز دور فى عصرنا هذا •

١٢- واجب الدولة فى رفع العلاقات الانسانية وتطويرها :

على الدولة واجب كبير فى حماية المجتمع وفى تطويره وفى خلق فلسفة للحكم تتسم بالعدالة الاجتماعية والتنمية الاقتصادية وقد اهتم العلماء والفقهاء والفلاسفة والادباء منذ العصور الاولى بهذه الناحية ونجد فى كثير من آثارهم ما كتب عن سياسة الدولة • ونظرا لان طابع الحكم كان فى يد الملوك والسلاطين فقد كانت هذه النصائح تقدم باسم "آداب السلطان" ولعل اول كتاب اثر فى المفهوم المدنى للحكم هو كتاب السياسة فى تدبير الرياسة المعروف "بسر الاسرار" الذى الفه ارسطاليس للأسكندر المقدونى ، وقد ترجم هذا الكتاب فى عصر الدولة العباسية على يد شيخ التراجمه حنين بن اسحق وفصول هذا الكتاب تبحث فى اصناف الملوك وصورة العدل وفى سياسة القواد ، والاكابر وسياسة الحروب وفى خاصية العلوم وقد اهتم ارسطاليس بايضاح مفهوم الصحة للأسكندر ولهذا ولهذا مغزى

يشير الى اهمية المفهوم السياسى للصحة ومن اوائل هذه الكتب كتاب كليلة ودمنة الذى كتب وترجم فى عهد كان من الضرورة فيه بذل النصح للسلطان بطريقة رمزية ومنها كتاب التاج المعزو للجاحظ وسلوان المطاع لابن ظافر الصقلى وكتاب السياسة لابن سينا وكتاب الغزالى وسراج الملوك للطرطوشى وكتاب النفع الغزير فى صلاح السلطان والوزير للدمنهورى وغيرها ولعل كتاب الفارابى آراء أهل المدينة الفاضلة اشمل هذه الكتب فى منهجه لانه يبحث فى اصلاح المجتمع فى بيئته المدنية ويشابه فى نهجه كتاب جمهورية افلاطون ويمكن القول ان اهم كتاب بحث فى اصلاح المجتمع فى كافة مستوياته هو كتاب "معيد النعم ومبيد النقم" لقاضى القضاة تاج الدين عبدالوهاب السبكى المتوفى عام ٧٧١ هجرية الذى تكلم فيه عن معرفة وجدارة وبشجاعة فائقة فى ذلك العصر الذى كان للملوك فيه سلطة مطلقة فى الارهاب ٠ بحث السبكى فى هذا الكتاب واجب اصحاب المهن مبتدئا بالخليفه فمن دونه من السلطان ونوابه والقضاة وسائر ارباب الامور الى اصحاب الحرف ناقدا وموجها وحاثا على التمسك بالاخلاص والولاء وقد شمل هذا البحث مائة وثلاثة عشر طائفة آخرها بحث فى آداب المتسولين ونختصر واجب الدولة فيما يلى :ـ

اولا : انشاء فلسفة بانيه للحكم تقوم بمشاركة المجتمع وباسهامه وعلى ضوء تاريخه وتقاليده ونظمه واهدافه وواقع حاضره وما يلهمه ذلك لمستقبله ٠

ثانيا : توطيد العدالة الاجتماعية لأفراد المجتمع مع توفير العمل المجزى للمواطنين لان العمل حق من حقوق المواطن ٠

ثالثا : رفع مستوى المعيشة بالنهوض بالاقتصاد ٠

رابعا : توفير الخدمات والمرافق الاجتماعية من تعليمية وصحية وتدريبية وتعاونية وترفيهية وغيرها والاهتمام بالثقافة الشعبية عن طريق الفنون الجميلة وخاصة الادب والشعر والغناء والموسيقى لتربية الذوق وتوحيد

المشاعر والوجدان والنهوض بالهمم وما يسهم به ذلك في دعم المجتمع . قال ابن رشيق فى كتاب العمده ان الشعر قد حفظ اللغة من الضياع مشيرا الى قوة العاطفة التى ترتبط بالتعبير الشعرى .

خامسا: بعث اطياف الماضى كمصدر من مصادر الالهام لان التاريخ "عمر شان للشعوب" وتوجيه المؤرخين والكتاب والشعراء والفنانين لخدمة المجتمع وتدعيم القومية وخلق الولاء للوطن عن طريق ربط ماضيه بحاضره .

سادسا: تشيع النوادى والجمعيات ذات الاغراض الرياضية والادبية والعلمية والاجتماعية والترفيهية وغيرها وتوجيهها لتوسيع الافق الاجتماعى وبث روح الجماعة والعمل الاجتماعى والعواطف التى تسهم فى خلق الولاء بين المواطنين كذلك يجب تشجيعها لوقايتها لافراد الشعب من اضرار الفراغ .

سابعا: الاهتمام بوسائل الترفيه لرفع الكفاية فى العمل والانتاج ولوقاية صحة العاملين .

ثامنا: الاهتمام برعاية الاسرة لان الاسرة هى المجتمع الصغير الذى يقوم عليه المجتمع الكبير وفى رعاية الاسرة وقاية للجيل القادم .

تاسعا: الاهتمام بالتأمين الاجتماعى للمواطنين كافة لان القلق اصبح ظاهرة مميزة لهذا العصر ويعزى ذلك الى تفكك الروابط التقليدية فى الاسرة والقبيلة التى كانت تنطوى على فرض نوع من الاشتراكية تكفل نوعا من الضمان الاجتماعى وفى كتاب المدهش وصف ابن الجوزى نوعين من القلق هما الغم والهم فقال ان الغم "لما كان" والهم "لما سيكون" وهذا ينطبق على مفاهيم اليوم التى تفرق بين مايسمى (WORRY) و (ANXIETY)

وقديما كان القلق ينحصر فى الخوف "مما كان" (الغم) غير اننا نجد فى طابع اليوم ان القلق قد انصب على الخوف "مماسيكون" (الهم) ودون أن نذهب الى بحث طبيعة الحوافز الاخرى التى قبلت طابع القلق فى اتجاهه من الماضى الى

المستقبل نقول أن الضمانات الاجتماعية ضد البطالة والمرض والعاهة والشيخوخة والوفاة وغيرها من الكوارث على نطاق شعبى شامل اصبحت من صميم حقوق الفرد وواجبات الدولة فى كثير من البلاد المتمدينة لما لها من اثر وقائى له انعكاس ايجابى فى دعم الطمأنينة وبث الثقة والامل والسعادة وبالتالى الصحة وفى خلق الولاء للوطن ٠

١٣- المشاكل العالمية واثرها فى محيط العلاقات فى المجتمعات المحلية :

فى هذا العصر الحديث الذى ارتبط فيه العالم عن طريق المواصلات وتبادل المنافع والذى اصبحت فيه وسائل الاعلام تحمل الافكار المتضاربة والدعايات المختلفة فى هذا العصر اصبحت المشاكل العالمية ذات اثر كبير فى حياة الشعوب ولكن الضمير العالمى قد اصبح من اثر اتجاه الاحداث التى طرأت على العالم اكثر ضعفا فى انسانيته من ضمير الفرد واصبحت العدالة تئن تحت القوة واصبح العالم يعيش فى سنة الغاب فالحق للقوى ٠ وكان من اثر هذا الاتجاه للضمير العالمى ان تاثرت الشعوب بدورها وخاصة الشعوب الضعيفة التى ليس لديها ما تدفع به عدوان القوى ولعل اثر هذه الحروب الباردة التى يرددها المذياع من كل بقاع الارض وتنشرها الصحف واوراق الدعاية قد اثرت تأثيرا بليغا فى العلاقات الانسانية لا فى المحيط الدولى بل فى المجتمعات المحلية من وحى الافكار والآراء الهدامة التى قد تؤثر على اوضاع المجتمع بخلق صلات ليست بانية خاصة بين النشئ ومن الصعب ان نتنبأ بما سيكون لهذا من مصير فى المجتمعات ولربما مهد لقيام حرب عالمية لا تبقى ولا تذر ٠

١٤- مستقبل العلاقات الانسانية بين البلاد العربية :

البلاد العربية يربطها تاريخ واحد وقيم واحدة ولغة واحدة وعقائد متقاربة ومصالح مشتركة ومشاكل شبيهة بعضها بالبعض مما يجعل قيام مجتمع عربى حقيقة واقعة لانظرية فى الخيال ومما لا شك فيه أن هذا الهدف هو هدف عام ولكن الوسائل

قد تخلف وقد يهدم وحدة الهدف اختلاف الوسائل • وفى محيط العلاقات الانسانية كان لقيام الجامعة العربية فضل فى تهيئة الروابط فى العلاقات الانسانية • وقد هيأت الجامعة الفرص للمؤتمرات الطبية والمؤتمرات التى تبحث فى الشئون التعليمية والاجتماعية والاقتصادية وفى نشر الثقافة العربية بكافة الوسائل وخاصة ما كان منها فى بطون المخطوطات التى لم تنشر لاهمية ذلك من الناحية التاريخية والواقعية والعاطفية وفى هذا كله اثر كبير فى تدعيم العلاقات لخلق مجتمع يستلهم ماضيه وينهض بحاضره ويؤمن مستقبله • وبهذه المناسبة اردد ما قاله جبران فى كتابه النبى :

كيف استطيع يا صاح أن اجلب السكينة الى
نفوسكم القلقة ، كيف استطيع تحديد ما بها من
نفور وشقاق ، قل لى بربك كيف استطيع ذلك
ان لم تكونوا انتم حريصين على ذلك بل أن
لم تكونوا محبين لذاتكم ولعناصركم جميعا

الاصول والمصادر الهامة للبحث (مخطوطة ومطبوعة) بحسب صدورها

١ ـ مقدمة ابن خلدون
٢ ـ كتاب الميسر والقداح لابن قتيبة
٣ ـ كتاب الهداية للأبهرى ـ مخطوط
٤ ـ سلوك المالك فى تدبير الممالك لابن الربيع
٥ ـ شرح الهداية للميبدى ـ مخطوط
٦ ـ آداب المتعلمين لابن سحنون
٧ ـ المنصلة لأحوال المعلمين وافكار المعلمين والمتعلمين للقابسى
٨ ـ تعليم المتعلم طريق التعلم للزرنوجى
٩ ـ تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعه
١٠ ـ ايها الولد للغزالى ـ مخطوط
١١ ـ سيكولوجية الضمير ـ محمد كامل النحاس

١٢ ـ أبو نواس للعقاد

١٣ ـ كتاب السياسة لابن سينا

١٤ ـ كتاب السياسة للفارابى

١٥ ـ تفصيل النشأتين وتحصيل السيادتين للراغب الاصفهانى

١٦ ـ احياء علوم الدين للغزالى

١٧ ـ آداب الكسب والمعاش للشيبانى

١٨ ـ البركة فى فضل السعى والحركة للحبشى

١٩ ـ المرأة الجديدة ـ قاسم امين

٢٠ ـ تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر ـ لابى الفرج بن الجوزى ـ مخطوط

٢١ ـ اتمام الدراية لقراء النقاية للسيوطى

٢٢ ـ تربية الضمير للدكتور سليم حسن

٢٣ ـ كتاب الاخلاق لارسططاليس

٢٤ ـ الاخلاق عند الغزالى للدكتور زكى مبارك

٢٥ ـ تهذيب الاخلاق لابن مسكويه

٢٦ ـ كتاب الطب الروحانى فى الاخلاق لابن عكاشة الشيرازى ـ مخطوط

٢٧ ـ الادب الصغير والادب الكبير لابن المقفع

٢٨ ـ كتاب الادب والمروءة لابن جناح المرعى ـ مخطوط

٢٩ ـ خبرية الكتاب المقدس للقس جرجس طحان ـ مخطوط

٣٠ ـ تنوير الاذهان فى تغذية الاجسام ـ على باشا مبارك

٣١ ـ علم الدين (٤ أجزاء) ـ على باشا مبارك

٣٢ ـ كتاب السياسة لارسططاليس ـ مخطوط

٣٣ ـ كليلة ودمنه ـ لبيدبا الفيلسوف (ترجمة ابن المقفع)

٣٤ ـ كتاب التاج للجاحظ

٣٥ ـ سلوان المطاع ـ لابن ظفر الصقلى ـ مخطوط

٣٦ ـ سراج الملوك للطرطوشى

٣٧ ـ كتاب النفع الغزير للدمنهورى ـ مخطوط

٣٨ ـ آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى

٣٩ ـ معيد النعم ومبيد النقم للسبكى ـ مخطوط

٤٠ ـ المدهش لابن الجوزى ـ مخطوط

رعاية الأسرة والطفل وعلاقتها باضطراد العمران

"الريف من صنع الرحمن والمدينة
من صنع الانسان"
كوبر

"قالت الأرنب : هل لك أن ترشدنى الى الطريق الذى ينبغى لى سلوكه من هنا ،
قال القط : هذا يتوقف الى حد كبير على المكان الذى ترغبين الذهاب اليه"
أليس فى بلاد العجائب

العمران هو الاصطلاح الذى استعمله ابن خلدون فى كتاباته عن مضمون ما قد تعبر عنه اليوم باللغة الانجليزية كلمة Urbanization مع فارق المدلول التاريخى • وفى كتب اللغة نجد أن لفظ "التمصير" المشتق من العبارة المألوفة والشائعة الاستعمال قديما "مصر الأمصار" اى بنى المدن بالمفهوم القديم الذى يختلف عما هو عليه اليوم ، قد يفى بنفس المعنى ، وهذا ما اصطلح عليه فى كتابة التاريخ • والمعروف فى مراجع اللغة ان المصر هو الكورة (القطر) • وبه سميت "مصر" مصرا •

(أنظر لسان العرب ، المجلد الخامس ، فصل الراء ، صفحة ١٧٦ ، صادر بيروت ١٩٥٦) •

لعله من الاوفق لبلوغ هدف بحثنا ان نقدم الموضوع ببعض ملاحظات عامة فى طبيعتها ، بغية التوجيه والادراك الواعى لما سنتناوله بالعرض والدراسة .

وبادىء ذى بدء وقبل كل شىء ، ينبغى ان نوءكد ان الطفل ليس صورة مصغرة او نموذجا دقيق الحجم للبالغ الكامل النمو، فالفرق بين الطفل والبالغ ليس فى الواقع فرقا كميا فى الكتلة او الحجم او الوزن او الطاقة او الوظيفة . اذ ان فى ذلك مغالاة فى التبسيط . فالفرق اكثر نوعية فى اساسه . ولذا ينبغى ان ندرك ان تناول شئون الطفل بالبحث والتمحيص يستلزم بالضرورة مطابقة الاساليب لطبيعته كطفل . بيد انه لما كان البالغون هم المشرفون على تنشئة الطفل وتربيته ، وكذلك توجيه طبعه وتطبعه ، ينبغى ان يكون سبر واستقصاء شئون البالغين فى دنيا الاسرة جزءا لا يتجزأ من استقصاء دنيا الطفل . فكلاهما يتمم الاخر ويكمله فى الوظيفة والموارد والاسباب . وهذا جلى فى ميدان طب الاطفال عند ممارسة علاج بعض الاطفال المصابين باضطرابات نفسية حيث لا يستغرب ان يقتضى الحال قصر العلاج على الابوين دون الطفل ذاته وان يكون بحث حالة الوالدين فى المقام الاول قبل حالة الطفل . ان ما يصيب الطفل من اضطراب فى هذه الاحوال قد يكون له باعث جوهرى واسباب جذرية تنحصر فى مداها فى اسبابها ومواردها فى نطاق الوالدين فحسب ، وان الطفل في صلته العميقة بوالديه قد يصيبه رشاشها على أثر انعكاسها عليه ودخوله فى نطاق دوامة هذه العاصفة بين ابويه . وفى هذا الثالوث يبدأ الطفل كمتفرج وينتهى به الامر الى ان يصبح "طرفا ثالثا" .

زد على ذلك انه يبدو ان لفظ العمران Urbanization يتزايدتدريجا تحميله اكثر مما تحتمل طاقته بوصفه تعبيرا اصطلاحيا. وفى حقيقة الامر كان هذا المفهوم منذ بدايته وانتشار استعماله بهذا الاقليم كاصطلاح تعريفى ، كان غامضا مبهما تعوزه الدقه في التعبير . ولذا فقد اصبح مفهومه

واسعا بحيث لم يعد ذا نفع او دلاله خاصة تحدد صلاحيته • وفى مثل هذه الحالات التى تنعدم فيها الدقة فى الاستعمال يصبح "العمران"تدريجا "تعبيرا ليست له صفات محدودة " ، مثله كمثل جيب الدرويش او جراب الحاوى •

والمعنى كما نتخيله ونستنتجه وكما يستدل عليه فى ضوء ما ورد ببعض الوثائق الاقليمية لم يحظ حتى الان بتحديد واضح المعالم • كما ان مفهومه قد لا يتيسر تطبيقه بالنسبة لمقتضيات البيئة وضرورات الزمان والمكان • ومن الجلى ان مضمون هذا الاصطلاح ما زال يفسر وفق التعريف الوارد للمراجع الاصلية – ولعله ما زال يؤول تبعا لمدلوله المبكر ، ويستعمل طبقا لما تستعمله البلدان الغربية وبالطريقة التى اصبح طابعا لها ونموذجا يحكيها • وبذلك صار المفهوم هنا مترادفا مع مدلول ذاته هناك ، ومع مختلف صيغة فى كل مكان ، رغما عن الفوارق البالغة الاهمية فى النواحى الديموغرافية (المتعلقة بالناس) ، والتوبوغرافية (المتعلقة بطبيعة الارض وتخطيطها) ، والجغرافية (المتعلقة بتقويم البلدان) ، وكذلك الفوارق الاوسع مدى فى المجال الاجتماعى والاقتصادى ومختلف مستويات التطور •

ومن أجل ذلك ، اصبح من الجوهرى لزاما علينا تحديد تعريف هذا الاصطلاح وما قد يلازمه من قصور فى استعماله • وفى الواقع ، اذا ما بدأنا البحث بمقدمة تفترض صحة موضوع الجدل فمعنى هذا اننا اخترنا ان نسير فى الطريق الخاطئ منذ البداية • ومن ثم فأن السؤال المباشر هو ماذا يعنى فى الحقيقة لفظ العمران من الناحية الاصطلاحية ، وما هى مقوماته ومجالات تطبيقه بالنسبة لتباين المستويات الاجتماعية والاقتصادية ، والتراث التاريخى والثقافى لمختلف بلدان الاقليم ؟

والجواب على هذا السؤال يحتاج بالضرورة ، وفى المقام الاول ، الى ان نتناول المفهوم ذاته فى تاريخه وجوهره لنرى مدى اسهامه فى تعريف مدلوله وطبيعة سماته ، وبالتالى ، ينبغى لنا ان نبدأ بالعمران نفسه ، منذ نشأته المبكرة وفى

اطواره التاريخية ، ثم ننتقل كخطوة ثانية الى الاسباب الداعية اليه ، وكيف يتطور تكوينها ، وكيف تتصل ديناميكيا ، وكيف تتفاعل ، وكيف تؤثر على المجتمع والاسرة وأخيرا ، كيف تنصب على الطفل وكيف تكيف وتصوغ فطرته الاولى • وباختصار ، ينبغى لنا ان نتعقب تاريخه الطبيعى منذ البداية طالما كان ذلك معلوما من الناحية التاريخية •

وفى هذا المقام ، تتجلى الحاجه الى ان نسلك سبيل الوصف والتعريف اكثر من اللجوء الى التفسير والتأويل ، ولكن لعلنا نرى فى سياق وصفنا ان الوصف نفسه قد لا يعدو أن يصبح تفسيرا •

وقد يبدو عجيبا ان العمران لم يبدأ مع التصنيع فى القرنين التاسع عشر والعشرين • فالعمران فى الواقع مرادف لنمو الحضارة وقديم قدمها • ولا جدال فى ان العمران فى الماضى كان عرضة لدخول عوامل معينة ذات طابع دولى نادر الوجود فى ايامنا هذه ، ومثال ذلك الهجرة الجماعية نتيجة للحروب ، واللاجئون الفارون من ربقة الاضطهاد ، والمجاعات والأوبئة وما اليها ، واكتشاف اراضى جديدة وموارد جديدة ، وأقرب هذه الاحداث الينا الاندفاع بحثا عن الذهب فى القرن الماضى ، والتنقيب عن البترول فى القرن الحالى •

وان غزو التتار الذى بدأه جنكيزخان قد غير مصير نصف العالم المعروف وقتئذ ، وذلك عن طريق التشتت الشامل للنظام الديمغرافى مما كان له اثر بعيد على الحضارة ، فأفلت شمس مدن ، وبزغت شمس غيرها •

وفى هذا الاقليم العريق فى تاريخه ، لعب العمران دورا عظيما فى تطور الحضارات والثقافات قديما ، وكذلك فى تدهورها واضمحلالها • وقد وثق العمران عرى الحضارات وكان فى النهاية سببا أدى الى فنائها واندثارها •

والعمران جزء لا يتجزأ من تطور النظم السياسية وفراهتها ، وبالمثل فانه يدخل فى صميم وظائف التنظيمات الادارية والاحتياجات الاستراتيجية • كما انه عامل ضرورى لنمو التجارة الدولية وازدهار طرق التجارة • وبالنسبة لهذه

الطرق ، أدى العمران فى الواقع الى نمو مدن ومراكز لم يكن لها وجود من قبل ، كما ادى الى تخلف واضمحلال مدن اخرى كانت زاهرة • ومن خير الامثلة على صدق ذلك "طريق الحرير" الشهير و"طريق التوابل" • وقد كان اكتشاف فاسكو داجاما لطريق رأس الرجاء الصالح المؤدى الى الهند ذا أهمية عظيمة بالنسبة لطرق التجارة التى تسلكها تجارة التوابل • كما أسفر عن القضاء التام على أهمية بعض مدن البحر الاحمر وغيرها •

وبالمثل اشارت ضرورات الصحة بعض الاحتياجات الديمغرافية التى ادت الى العمران وكذلك فعلت الادارة المدنية وضرورات الامن ومقتضيات القصاص (كاقصاء المجرمين العتاة) وغيرها من الاحتياجات •

وكان التعليم ، وما زال ، وثيق الصله بالعمران ، كما انه من أهم العوامل الداعية اليه • وكذلك الدين فقد أدى نمو مذاهبه وعقائده الى قيام مدراس فكرية فلسفية ومراكز للعبادات غيرت سياسة التحضر والعمران • والدين ، فى تأثيره الشامل على الناس ، لا يمكن فصله تاريخيا عن التعليم • فقد كان الاثنان متصلين فى وظيفتهما ، وما زالا كذلك فى كثير من النواحى ، وأبلغ مثال لذلك اعمال التبشير •

وقد اجبرت مقتضيات الامن ملاك الارض على تركها والنزوح الى المدن الكبيرة كما فى حالة بعض الاقليات ، فضلا عن ان الاحتياجات الحضارية اللازمة للحياة المعيشية هى من بين بواعث العمران ، وتشكل عاملا هاما فى حالة الاثرياء من ملاك الارض •

وأن الثورة الزراعية التى انبثقت فى هذا الاقليم مبتدئة بزراعة القطن على نطاق دولى ، كان لها نصيب وافر فى شأن العمران • زد على ذلك ان السدود ومشروعات المياه والرى واستصلاح الاراضى ادت الى بزوغ مراكز عمران جديدة • كما ان الصناعة بدأت تؤثر على ديمغرافية الشعوب •

ولعل العوامل السياسية كانت من اركان العمران القوية ، كما ان الاحتياجات الادارية جمعت الشعب ليشارك فى جنى ثمار

المرافق العامة مما لم يكن ميسورا بغير هذا التجمع .

وفيما مضى ، كان العمران فى صورته المركزة فى ذلك الحين يجنح الى وضع حد مادى وخلق تجمع بوءرى جعلا الحضارة عرضة للابادة والمحق من قبل الغزاة . ولعل هذا هو السبب فى ان كثيرا من عصور الحضارة فى التاريخ نسج عليها النسيان خيوطه ولم يبق منهاسوى ذكرى تنعيها وتوءبن مجدها .

وقد يتطلب التنظيم الادارى فى الدول الحديثة ان يتجمع الناس المشتتون فى رقعة من الارض شاسعة من اجل الفوائد الاقتصادية والصحية والاجتماعية التى يجنونها . وحتى فى ايامنا هذه ، قد يكون من المحال ان ينتفع الناس فى البلدان النامية من الخدمات المحدودة التى لديهم ما لم يتم تجميعهم فى مدن أو مراكز لها صفة المدن .

ولكى ندرس ونفسر هذه القوى التى أدت الى العمران منذ العصور الباكرة فانه من المهم ان نذكر ان الازدهار الكامل للخلافة العباسية والنجاح الذى صادفته حضارة العصر العباسى لم يكتب لهما الرقى والدعم الا بجمع احداث الملك ومقدراته فى بغداد "المدينة الدولة" بوصفها العاصمة ، وعندما استبيحت بغداد فى القرن الثالث عشر الميلادى وأعمل فيها هولاكو وقومه التتاريد السلب والنهب تعرضت الحضارة والثقافة للاندثار الشامل .

اما الدوافع السياسية الكامنة وراء العمران فهى فى وضوحها غنية عن البيان ولعلها توءدى احيانا الى الكوارث والنكبات . ففى عام ١٨٨٧ كان فى احد بلدان الاقليم حاكم مشهور اتفق ان ساورته الشكوك فى اخلاص القبائل القاطنة قرب النهر بيعدا عن الصحراء فوضع خطة لاحضار جميع افراد هذه القبائل الى عاصمته لكى يكونوا تحت المراقبة ، بدأها وقبل ان يتم تنفيذها بأكملها تفشت المجاعات والاوبئة ففتكت بعدد كبير من الناس . وكانت هذه الاحداث عاملا من العوامل التى ادت الى سقوطه فى ١٨٩٨ .

وقد توءدى الاسباب الصحية الى قدر كبير من العمران ، وفى هذا المجال يفيض التاريخ بالامثلة والشواهد . فمشكلة

مرض النوم فى السودان حتمت العمل على تجهيز عدد كبير من الاهلين المشتتين فى ربوع الادغال والآجام واستقرارهم فى جماعات كبيرة الحجم بالاراضى المعشوشبه والمراعى ، وعلى طول بعض الطرق الرئيسية حيث لا يوجد الذباب .

وفى البلدان النامية ، توجد مساحات شاسعة تقطنها قلة من السكان ، وفى هذه الظروف قد يخدم العمران تطوير المجتمع اجل الخدمات . وذلك بتركيز السكان حول الخدمات القليلة الموجودة فى النواحى التعليمية والصحية والاجتماعية . والعمران ونمو المدن فى بعض هذه البلدان ضرورة لا فكاك منها من اجل حشد القوى العاملة اللازمة للتنمية الاقتصادية والاجتماعيـة .

والصفة الموسمية التى يتسم بها العمل تجعل لزاما على سكان بعض المناطق التى تعتمد زراعتها على المطر ، مثلا ، ان يكونوا فى بطالة وكسل لمدة ثمانية اشهر انتظارا لموسم الامطار التالى ، ورغم اننا لسنا فى حاجة الى الخوض فى مساوىء الكسل والبطالة فان نزوح هوءلاء السكان الى المدن لا يوءدى باية حال من الاحوال - على الاقل فيما اسفرت عنه تجاربنا - الى التأثير على المناطق الريفية أو الى اضطرابات احوال المدن التى يلتئم شملهم فيها . ومن ناحية اخرى ، فقد يكون هذا الاتجاه مفيدا نافعا كما ان الامر برمته لا معدى عنه ، بل انه من غير الممكن الاهتمام بشأن دون ان نأخذ فى الاعتبار مسألة الاقتصاديات البدائية التى يرتبط بها . وان تناول المشكلة بوصفها هجرة موسمية الى المدينة دونما تعرض لسببها الاساسى ما هو الا تناول للعرض دون الجوهر . ويمكننا القول بأن هذه الهجرات الموسمية ليست معضلة عويصة تستعصى على الحل ، بيد ان هناك اسبابا واضحة تجعل سلوك السلطات المحلية المسئولة عن ادارة الخدمات فى المدن عدائيا ازاء هذه الهجرات . وهى فى الواقع سبب مباشر للانزعاج المزيف وسوء استعمال تعبير العمران ووضعه موضع الجدل . والامر كله لا يتعدى ان يكون تهربا وتعبيرا عن الرغبة الحريصة على تجنب تحمل مزيد من المسئوليات .

وما زال العمران واحدا من الاحتياجات التطورية ، كما انه يخدم غرضا هاما الا وهو تطوير هذا الاقليم ، ومن غير المنتظر حدوثه ، لعدة سنوات قادمة ، ان يشيع الاضطراب فى المناطق الريفية . وذلك بتخفيض قدرتها الفعلية أو الكامنة فى ميدان التطور . بل ان العمران فى حالة الهجرات الموسمية مفيد لجمهور الريف ولا يفرض مشكلات جدية على المدينة ، الا انه قد يلقى مزيدا من المسئولية على عاتق السلطات المدنية ومع ذلك فان هذا الامر لا يصدق فى كل الحالات .

وفى هذا الاقليم ، كان التعليم فيما مضى واحدا من أقوى عوامل العمران كما أن الجامعة الازهرية العتيده ظلت ألف عام مركزا ومقرا للتدريب على الوظائف الدينية والدنيوية فى مجموعة الامم الاسلامية ، سواء منها الناطقة بلغة الضاد أو بغيرها من اللغات . وكانت امور الدين حينئذ هى امور الدنيا وأمور الدنيا هى امور الدين . لأن الدين كان السياج الذى يحيط بكافة المؤسسات . وكان نمو كثير من المدن الهامة ، استجابة للمدارس الفكرية الاسلامية والمذاهب الفلسفية الدينية وما انبثق عنها من معتقدات بلغ بعضها شاوا بعيدا كمراكز لمختلف المذاهب الدراسية التى يلتئم شمل الناس حولها . وهناك أمثلة لبعض هذه المراكز التى افلتت من التدمير والسلب والنهب بسبب ما كانت تحظى به من مهابة وتبجيل .

وقد كانت طرق القوافل من اهم العوامل التى ادت الى ازدياد عدد السكان فى الواحات زيادة كبيرة . وهذه الواحات بوصفها وصيرورتها مراكز حضرية كانت تعتمد فى معاشها على كونها طرقا للتجارة .

ومن ثم ، فانه من الجلى ان العمران قد يكون نافعا للغاية خلال مرحلة معينة من مراحل التطور . ومما لا شك فيه ان العمران فى هذا الاقليم كان بمثابة عامل هام فى تطوير المجتمع بتوثيق عرى الصحة والامن والتعليم والصلات التجارية والتبادل التجارى . وليس هذا ببعيد عن الادراك اذ أن العمران هو الخطوة الأولى فى سبيل التنظيم البنائى والوظيفى

للمجتمع بمعناه الفنى • وسنتناول الآن اهمية هذه الخطوة بالنسبة لتطور الاسرة والطفل •

وليس يخاف ان هذا الموضوع يستحيل حصره داخل نطاق نظام واحد ، أو منهجية معينة ، أو على الاقل تفسيره تفسيرا منتظما ذا طبيعة فريدة منسجمة قاصرة عليه دون سواه • وهو بوصفه بحثا يتناول نظما متعددة ، فانه فى طبيعته يدخل فى نطاق نظم موءسسات عديدة مثل الصحة والعلوم الاجتماعية والقيم الثقافية • ولما كانت الطبيعة الاولية للعمران تثقل كاهلها التقاليد والقيم التاريخية واتجاهات التراث القومى فان استخدام وسائل العلم والمنطق المجردة عن الصبغة القومية تجعل منها مقاييس تعجزه عن تحقيق غاياتها فى هذا المجال ، والتراث الثقافى ذو طبيعة مغرضة متأصلة فى عمق وخاصة بذاتها ، وهو بوصفه هذا ، له قيمته الخاصة به وكذلك مقياس هذه القيم ، فان الامر فى جملته وتفصيله يعتمد على الحكم المبنى على القيم الذاتية • وفى الظروف التى يتركز فيها الاهتمام على تقييم العرف والعادات والطباع القومية وما اليها ، فيما يتعلق بأهدافها للعمل على الوصول الى غاياتها وتحقيق اغراضها ، سرعان ما يصبح تحديد الامر عديم الجدوى كما يستحيل قياسه على اساس متين بالمعنى النوعى الشامل • وبذلك يصبح الامر كله اشبه ما يكون بمطاردة أوزة برية • كما انه من غير الممكن ان ندرك الاحداث بوضوح فى تحولها وفيما سوف تصير اليه فى المستقبل اذ ان هذه الاحداث التى تبدأ كأسباب تنقلب الى مسببات ثم ينتهى بها المطاف الى ان تعود اسبابا مرة اخرى وهكذا دواليك فى دورات متعاقبة ربما ضاعت فيها معالم ذاتيتها واصبح من العسير تتبع خطاها واقتفاء أثرها • ولتبيان ذلك ، دعونا نفترض جدلا ان يوءخذ تكوين وديناميكية تشكيل "صورة الاسرة" بنمطها الكائن اليوم فى ايه منطقة متحضرة ذات حظ من النمو لا بأس به فى الاقليم ، مثلا يضرب فى هذا الصدد • واننا لن نعدو الحقيقة اذا قلنا ان سمات تشكيل الاسرة هذا لا يمكن وصفها بأنها شرقية خالصة أو غربية خالصة • وأنما قد تكون مزيجا

من الاثنتين قريبا من السمات التقليدية فى بعض النواحى ، بعيدا عنها فى نواح اخرى ، ثم تنساب مع التيار ربما فى اتجاه الغرب • والسؤال هو فى أى اتجاه يقع المثل الاعلى الذى يتخذه مخطط الاسرة قبلة ونبراسا ؟ وهل يمكن حقا ادراك طبيعته وكنهه ، وكشف عنوانه ومظهره سلفا ، واعادة تشييده فى شكل واضح ملموس ؟ وهل نحن قادرون على الاطلاق ان نواجه ونتعقب تطوره المنطقى فى مختلف مراحله المتوقعة ؟ وهل لدينا حقا القدرة على توجيهه الى الوجهه التى يقع عليها اختيارنا ، واصابة هدفه تماما وفى الصميم ؟ وهل هناك عوامل عرضية على الاطلاق قد تعمل على التأثير على اتجاه الاحداث بطريقة أو بأخرى ؟ وهل نحن مسوقون نحو هدف معين تحت رحمة هذه الاعراض والاحداث ؟ وهل بحثنا منقاد بطبيعته لما هو ارادى من ناحية أو لما هو محتوم وقدرى من ناحية اخرى ؟ واخيرا ، ما هو مدى أهمية العوامل الاجتماعية فى تحديد مثلنا العليا ؟ ولولا خوفنا من اعتبار ذلك نوعا من الحذلقة المنسقة لتوالت الاسئلة فى هذا الشأن •

ولما كان التاريخ بلا نهاية والتجربة ليس لها آخر ، وكقول سير ونستون تشرشل "كلما اطلت بصرك امعانا فى الماضى ازدادت بصيرتك خبره بالمستقبل" ، فان اللجوء الى التاريخ قد يكون لنا خير معوان فى بحثنا هذا •

ويوضح لنا التاريخ فى امثلته العديدة ان العوامل الاجتماعية لها الاثر الحاسم فى تكييف الاحداث والآراء • كما يغص بصور جمة وأوصاف مسهبة تشهد بأن ما تسفر عنه حتمية هذه العوامل فى النهاية ، يصبح عاجلا أو آجلا بمثابة مثل اعلى يحتذى • والامر فى جملته لا يعدو أن يكون تبريرا عقليا لما لا يمكن تجنبه مما هو مفيد ونافع • وهذا هو حق امتياز الانسان بأن يعتقد فى صدق ما يريد ان يعتقد فى صدقه •

وفى ضوء هذه الحقيقة اذن ، يتبادر السؤال التالى : هل يمكن القول بان اتجاه الاحداث سوف يحدد لنا ما ننشده فى حقل تنمية الطفل ؟ وهذا القول رغم صدقه فى بعض نواحيه لا يلم بالحقيقة الماما كاملا • وكون قوى الاحداث هى العوامل

الجبرية الحاسمه فى هذا الشأن فان ذلك لا ينفى قدرة العامل الانسانى نفيا تاما • وان نمط الحتمية غير كامل وهو فى خروجه من القوة الى الفعل يفسح مجالا للمجتمع لكى يفرض اذا ما شاء ايجاز وانجاز شئ هام بالنسبة لقدره وماله •

بيد ان الامر قد يكون ايسر اذا امكننا ان نتنبأ بشكل جلى بطبيعة وكنه ما تنشده من مثل عليا فيما يتعلق بتربية الطفل فى المستقبل • وان ذلك مما سيسهل علينا الامور بيد ان العوامل الاجتماعية كالقدر تسرى فى مسالك خفية •

ومهما يكن من امر ،فانه من الاهمية بمكان ان تكون لدينا صورة ذهنية واضحة المعالم لما سوف يكون عليه نظام تخطيط صالح للنهوض بتربية الطفل مستقبلا بحيث يكون هذا النظام مرنا قابلا للمهايأة فى ضوء الخبرة المكتسبة من التجارب الساريه • واسمحوا لى ان اقول بصراحة ودون قيد أو شرط ان النهوض بالطفل هو فى اساسه وجوهره احدى وظائف النهوض بالاسرة • وهذا بدوره وظيفة من وظائف برامج تطوير المجتمع ، وبتعبير آخر فانه من غير الممكن ان نفصل الطفل عن بيئته لكى نتناول شئونه فى عزلة من اجل رفع مستوى تربيته التقليدية ، اذ انه ليس من المستطاع فصله عن المضمون الشامل الذى يكمن فى وظيفة الاسرة والمجتمع فى كلياتها وجزئياتها • ومن ثم فان مصلحة الطفل تستوعب مصلحة المجتمع كله الذى ينحو ويتكامل مع الاسرة نحو تكوين رأس الرمح من اجل رعاية الطفل • وفى الواقع ، لن يتأتى تحقيق ذلك فى غيبة التدابير اللازمة لتنمية خدمات المجتمع فى كافة مجالاتها تنمية عادلة فى تناسق • وينبغى ان نكرر مرة اخرى ان النهوض بالطفل لا يمكن فصله عن النهوض بالمجتمع فى اوسع ما تعنيه الكلمة من معنى •

وفى الظروف الراهنة بالاقليم ، يصعب التنبوء بهدف العوامل الاجتماعية وأسلوب اتجاهها فى المستقبل ، بله تقييمها وقياسها وتقنينها • ومن ثم تكون النتيجة واضحة للعيان • وتتضمن فيما تتضمن ان المتكهن بما سيكون على اساس ما هو كائن وبالنسبة لما كان ، ليس على احسن الفروض سوى

محاولة تجريبية تحتمل الخطأ • فاذا كان ذلك كذلك ، فان اختيار نمط معاصر من الغرب ، من اجل احتياجاتها المباشرة لمفهوم الطفل يصبح اختيارا عشوائيا قد لا يكون صالحا او ذا نفع لخدمة اغراضنا • ولكى نفسر ذلك ، دعونا نضرب مثلا لنمط الاسرة فى بلدين غربيين كما نرى اذا ما كان الاختيار بينهما ممكنا فهناك ، من ناحية ، نظام تربية الطفل فى بريطانيا المحافظة ، ومن ناحية اخرى ، النظام المستقبلى فى امريكا • فكل من النظامين متأثر ومتصل اتصالا وثيقا متميزا فى غايته وفى حدود قيمه بتراث خاص به من النواحى التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والفلسفية • فاذا ما اخترنا فان هذا الاختيار لا يستند الى اساس ادبى اذ ان ذلك وظيفة من وظائف القيم الثقافية •

والبريطانيون من ناحية يلحظون الماضى بعين ويلحظون المستقبل بالاخرى ، والنتيجة هى القاعدة الذهبية التى لا يتخلى عنها اى بريطانى مختارا • كما ان الامريكى الذى ليس لديه تقليد قومى متجانس منبثق من تاريخه — رغم تملكه لتجمع ثقافى حاشد يمثل اغلب الثقافات فى تراثها المختلف الجنس — قد يختار ان يتخلى عن المستقبل • فالمستقبل بالنسبة له ، ما هو الا بوتقة الصهر ووعاؤه المحدد للثقافة المتجانسة التى يلوح فجرها فى الافق • والمقارنة بين الاثنين هى مقارنه بين نقيضين لا يقاس ايهما بالآخر ، كما ان اختيار واحد منهما — فى مجالنا هذا — قد يكون اعتباطا من اجل هدف عارض ، اذ ان اتجاه الاحداث الاجتماعية والاقتصادية فى حد ذاتها هو العامل الرئيسى لتحديد سبل التوجيه فى المستقبل • ومن ثم يستحيل فى هذه الظروف وضع ترتيب يوضح الافضلية والجدارة بينهما • وعلى سبيل المثال فان السوءال عن اى الاثنين افضل، سوءال يفتقر الى جواب شاف • فالنظام الجيد هو ذلك النظام الذى يخدم اغراضه ومراميه • وفى الواقع ، ان لكل ثقافة وكل عصر قيمهما الخاصة ومقياس الحكم على هذه القيم •

واذن ماهى الوسائل العملية للنهوض بالطفل ، وما هى صلاحيتها ؟ ونقول لما كان تطوير المجتمع هو رأس الرمح ونقطة

الارتكاز ، فان قواعد ومعايير تطوير المجتمع قد تكون ملائمة ووافية بالنسبة لما نبغيه من اجل الطفل. وفى هذا الصدد نجد ان التعريف الدولى "مقياس ومستويات المعيشة"* يهيئ احسن السبل لارشادنا . ولكن لما كانت الوثيقة التى ورد بها التعريف دولية تتناول امورا عامة وشاملة فانه من غير الممكن ان تؤخذ جملة . وفى نواح معينة قد يحتاج ترتيبها الى تبديل وتعديل ، وتحتاج اولويتها الى الترقيم من جديد . كما يجب حذف بعض الموضوعات واعادة بعضها الى غير سيرته الاولى . وبالرغم من ذلك فانها من احسن الوثائق المرشدة من نوعــــها .

وعلينا بالتالى ان نسير معها قدما من اجل اغراض بحثنا هذا.

وينبغى ان يكون واضحا ان اهتمامنا الذى يحدد مجال هذا البحث فى الواقع ، منصب على تناول تربية الطفل على العموم اكثر منه على الامور النوعية والتفصيلات التنظيمية . وفى الوثيقة المشار اليها نجد ان الفقرات الخاصة بتطوير المجتمع مذكورة بالتفصيل . وقد لا تلائم هذه التفاصيل اغراض بحث عام يستهدف الايضاح اكثر من الشمول . ونظرا لذلك فان تطوير المجتمع فى تأثير وقعه على الاسرة والطفل سيفصل تحت ثلاثة عناوين لا غير هى التعليم ، والتغذية ، والصحة . أما النواحى الهامة الاخرى مثل الشئون الاقتصادية ، والاســكان الخ ... فينبغى اغفالها بالنسبة لبحثنا رغم ان لها نفس الاهمية بالنسبة للموضوع . ومن المؤكد ان اغراض هذا البحث لا تتناول تطوير المجتمع فى كافة مجالاته .

التعليــــم

ان اعظم تحد للحياة والقيم الريفية جاء فى ركاب التعليم . والتعليم من الناحية التاريخية ، كان اول عامل هدم النظم التقليدية وزعزع كيانها . كما ان آثاره الاولية

* التعريف الدولى لمقاييس مستويات المعيشة دليل مؤقت . الامم المتحدة ت/ل – ٢٧٠/٣ تعديل ١ ،ت،/ل – ٣٥٣/٥ (أنظر ايضا الملحــق) .

على الاقتصاد الريفى والوسائل التقليدية للتدبير المنزلى ، وتنشئة الطفل وتنميته ، وعلى القيم التقليدية بوجه عام ، لم يكن خيرا كله فى اول الامر • بيد انه يجب علينا عدم الخلط بين ما هو طارئ وما هو لازم • وعلى كل فان اية عملية تطورية تحمل فى طياتها بذور محاربة وهدم النظام القديم الذى تاتى فى اعقابه • وفى بعض النواحى الهامة كان التعليم باعثا قويا وموجها نحو المدن العامرة مما ادى الى تدفق انصاف المتعلمين من المناطق الريفية الى المدن بحثا عن فرص للمعيشة افضل • وهو ما كان يظن ان التعليم يهيئه لطلابه حتى فى مجاله المحدود بالمناطق الريفية • ومن النتائج الهامة الاخرى التى ترتبت عرضا على عملية التعليم ان اصاب واضطرد الوهن والضعف الصلات التى كانت اساسا للأسرة الممتدة الفروع التى تشمل فيما تشمل العمومه والخوءوله الخ ••• وكانت هى الطابع السائد فيما مضى • وتلك الصلات كانت فى لحمتها وسداها وسيلة تامين بارعة وجهاز ضمان اجتماعى يتمتع به افراد العائلة • وقد حل محل هذا النظام بالتدريج طابع الأسرة الضيقة النطاق القاصرة على الابوين والأخوة فحسب • حيث ان التعليم على الخصوص وتطوير المجتمع على العموم يثيران حالة تتسم بالفردية والشعور بالذات •

وانه لمن العدل ان نقول ان خدمات الصحة المدرسية قد اسهمت اسهاما كبيرا فى تأمين صحة أبدان الاطفال ، مما انعكست آثاره على النواحى الصحية العقلية • *

ونجد فى واقع الامر ان غرس العادات الصحية فى نفوس التلاميذ فى المدارس وتهيئة وجبات الغذاء المدرسية ، والالعاب الرياضية والتحصين ضد الامراض السارية ، واتاحة فرصة افضل لعلاج المرض فى وقت مبكر ، قد انقذت التلاميذ من العمى والصمم ، ومن كوارث التهاب السنجابية (شلل الاطفال) الخ ••• وكلها من الاحداث المرضية الشائعة فى كثير من بلدان الاقليم • ولا شك فى ان الصحة المدرسية قد اسهمت اسهاما

---

* الصحة العقلية فى المناطق الريفية :ل أ-١١/١٦، أغسطس ١٩٦١

ايجابيا فى الحفاظ على الصحة العقلية للامهات اللاتى قد يقلقهن مرض أو وفاة اطفالهن بشكل جدى يوءثر على حالتهن النفسية ٠

وأنه لحق ان بعض المشكلات العاطفية لدى اطفال المدارس كانت تنشأ فى اول الامر عن عدم قدرة الاطفال على استيعاب طرائق ووسائل التعليم الوافدة من الخارج والتى لا تلائم واقع بيئتهم ٠ بيد ان هذا لم يعد اشكالا والفضل فى ذلك للمربين والقائمين على شئون التعليم ٠ زد على ذلك ، ان ضرورات التعليم المدرسى ونظمه التى تحتم بقاء الطفل لعدة ساعات كل يومين بين الجدران ، وخاصة فى حالة البدو الرحل الذين لا يستطيعون الاستكانه والبقاء بلا حركة قد ادت فيما مضى الى مشكلات سلوكية الا ان الموقف سرعان ما عالج نفسه بنفسه ٠

وان مفهوم المدرسة بوصفها امتداد لوظيفة المنزل وبأنها تعمل معه فى توافق وانسجام يحظى بادراك عملى عميق من قبل المدرسين والآباء ٠ وكذلك يزداد رويدا ادراك وتوكيد الدور الهام الذى تلعبه الام فى هذا المضمار ٠ ويكمن موضوع التربية والتربيب بأكمله فى دور المرأة عموما ٠ ولا شك ان دور الام فى المنزل ما هو الا وظيفة من وظائف مكانتها فى المجتمع ٠ ومن ثم فان مدى اسهامها فى هذا الصدد يعتمد اولا وآخرا على منزلتها كأم فى المنزل ، وكعضو عامل فى المجتمع ٠ ومن اجل هذا فان النهوض بالطفل وظيفة من وظائف مكانة الام فى المجتمع ٠ فالنهوض بمكانة الام عامل من عوامل النهوض بتربية الطفل ٠

والغاية من التعليم فى كافة مراحله هى خلق المواطن الصالح عن طريق تنمية مواهبه الذهنية ورفع قدرته على الكسب ، وضمان تأهيله من الناحية الجسمانية والنفسانية والاجتماعية ، وأخيرا ، نضوجه فى مجال الصلات الانسانية التى تبدأ بالاسرة وتمتد الى المجتمع ٠ وفى هذه المجالات ، نجد الصحة جزءا لا يتجزأ من عملية التربية والتربيب(x)٠

(x) مشكلات الصحة العقلية بين طلبة الجامعات : ش ب أ/م ت ط/٨، ١٥ أغسطس ١٩٦٢

التغذيـــــــة

ان النمو الجسمانى للطفل ذو اهمية قصوى لارتباطه بنموه العقلى والعاطفى • وفى الواقع عند تقييم مقاييس الذكاء بين الاطفال حتى سن الخامسة تكون اغلب المعايير المتخذة للتقييم جسمانية كالقدرة على الحركة وانتصاب القامة وتوازن الحركة وما اليها • وعلى اية حال لا يمكن فصل العوامل الجسمانية عن العوامل العقلية • فالعوامل الجسمانية تهيىء الاساس العضوى للعوامل العقلية والنفسانية ، بل ان صحة الجسم قد تحدد ايضا مدى العلاقات الاجتماعية ونوعها • ومن ثم تكون اهمية التغذية بالنسبة لنمو الطفل محور ارتكاز فى بحثنا •

ومشكلات التغذية في هذا الاقليم متعدده وخاصة فيما يتعلق بالاطفال • فهناك من الاغذية ما هو محرم فى بعض الشرائع وهناك عادات غذائية وأساطير فيما يتعلق بالرضاعة والتغذية ، مما قد لا يسهم فى تهيئة أفضل نمو للطفل • وفضلا عن ذلك فان تأثير طب الاطفال لم يكن خيرا كله فى اول أمره ، اذ انه نفر الناس من غذائهم القومى الذى اعتادوه ورتبوا انفسهم عليه خلال عملية طويلة الأمد عمادها التجربة والخطأ ، دون ان يمنحهم بديلا احسن منه او عوضا عنه • والامر برمته مستند الى اوامر ونواه مقدسة ليس لها تبرير من الواقع • وفى هذا الصدد ، ينبغى الا يغفل ذكر دكتور نورمان كوركيل أول رائد لأبحاث التغذية والقيم الغذائية للاطعمة القومية فى السودان • وقد تمكن بحاسته الاكلينيكية من اكتشاف بعض القيم الغذائية الهامة فى بعضها وخاصة من ناحية ما تحويه من الفيتامين • وكان الرأى السائد قبل عهده ، مبنيا على بعض الافكار النظرية التى اخذت كقضية مسلمه تقول بانه لا قيمة لهذه الاغذية • وكانت القيمة الغذائية لهذه الاطعمة تحقر دون التأكد من قصورها عن طريق التحليل والتحقيق العلمى ومن المؤكد ان هناك بعض عادات غذائية ثبتت قيمتها فى ضوء الضرورات المناخية والطوبغرافية والجغرافية والاحتياجات الصحية بوجه عام • وان محاولة استئصال العادات الغذائية واحلال اخرى محلها خارج نطاق الوسائل والقدرة الاقتصادية

والثقافية التاريخية ، أمر يصعب ادراكه •

وهذا يذكرنا فى الواقع بقصة حارس الأسود فى حديقة الحيوان ، والذى كان معهودا اليه بالمواظبة على تقديم الوجبات اليومية للأسود فى الساعة الثالثة من كل يوم • وحدث ان تأخر الحارس يوما وشاهده المشرف فى الساعه الخامسه يهرع الى اقفاص الأسود لتقديم الوجبة المعتادة ولما أنبه المشرف على تأخيره قال : "ياسيدى ، اننى لا أظن أن الأسود فى الغابه تتناول وجباتها بانتظام فى الساعة الثالثه من كل يوم • واعتقد انه قد يتسنى لها ان تنال وجبة شهية فى احد الأيام وتقضى اليوم التالى فى سبات داخل عرينها • وقد لا تتيسر لها الوجبة التالية عدة أيام • بل أن بعضا منها قد يظل اسبوعا دون تناول وجبة أخرى • والأمر كله متوقف علي ظروفها وتوفيقها فى القنص والطراد • ومع ذلك ، فالأسود فى الغابة أوفر صحة وأحسن حالا منها فى حديقة الحيوان" •

وكان "بل" صياد الفيلة المشهور الذى صرع بيده من الفيلة اكثر مما صرعه اى صياد فى التاريخ ، اذ بلغ مجموع ما ارداه منها قرابة الف وثمانين فيلا ، فقد كان قادرا على الاحتفاظ بصحته مكتملة خلال سنوات تجواله على قدميه فى افريقيا الاستوائية (فهو لم يمتط قط جوادا اثناء الصيد) باتباعه نظاما دقيقا فى غذائه • فحيثما ذهب ليصطاد كان يسأل الاهالى عن غذائهم الوطنى ثم يحرص على تناوله باعتبار انهم توصلوا الى اختياره خلال مرحلة طويلة من التجربة والخطأ • بيد انه لم يشذ عن ذلك الا فى حالة اغذية معينة مما ينفر منه الذوق ولا تستسيغه طبيعة الانسان • وفى منطقة بحيرة رودلف ، وجد مثلا ان اللبن الطازج نادر الاستعمال وان الاهالى بلا استثناء يتركونه ليصبح حامضا قبل استهلاكه • وكان يبدو ان هناك نوعا من التلوث الستافيلوكوكى (البكتيرى العنقودى) وغيره منتشر على نطاق واسع وأن اللبن كان وسيلة لنقل العدوى التى كان الحامض يجعلها احيانا غير مؤذية • وعلى سبيل الاستطراد نقول انه تصادف ان استنفد "بل" ما يحمله من تبغ وأدى ذلك الى استعمال التبغ الوطنى الذى

استمتع به الى حد كبير حتى انه قال "انه احسن تبغ جربه الا ان له اثرا مخدرا نوعا ما • ومع ذلك فهو لذيذ للغاية" • بيد ان "بل" لم يدرك انه كان طول الوقت يدخن الحشيش •

وفى بعض النظم القبلية وغيرها من المجتمعات التى تقوم على سلطة الرجل حيث يلقى الذكور من الاطفال معاملة افضل من الاناث حسب العرف التقليدى ولأسباب غير خافية منها الحرص على وفرة الرجال لتدبير شئون القبيلة والذود عن حماها ، نجد على النقيض من ذلك ، ان الوفيات بين الذكور اعلى نسبة بغير شك منها بين الاناث • اى ان الرعاية الافضل التى يلقاها الذكور ربما تعود عليهم بالوبال والاذى • ولعل التغذية فى هذا الصدد كانت ذات أثر اكبر من اى شئ آخر • وكان السبب الرئيسى لذلك هو الخطأ الناجم عن الافراط فى كمية ما يتناولونه من الغذاء • ولعل هذا الطابع الذى يتأرجح بين الافراط فى حالة الذكور والتفريط فى حالة الاناث هو الطابع التقليدى للتغذية فى تلك المجتمعات • ودون الافاضة فى موضوع التغذية ينبغى ان نؤكد ان الغذاء المتوازن هو افضل ما يسهم فى النمو الجسمانى والنفسانى والاجتماعى • وقد كانت التجربة خلال سنى الحرب خير مصداق لهذا • الا ان مشكلة التغذية هى مشكلة انتاج الاطعمة فى اوسع مجالاتها ، وكذلك الثقافة الغذائية والبرامج التى تستهدف النهوض بالتغذية بوجه عام •

الصحة

ان النهوض بتنمية الطفل من الناحية الصحية ينطوى على النهوض بصحة المجتمع والاسرة والام على وجه الخصوص • حيث ان صحة الطفل ، وما تتضمنه فى المستقبل من تطورات تبدأ قبل مولده بتسعة أشهر • فسوء تغذية الام بوجه عام وأمراض الانيميا والضعف والامراض المعدية التى تعتريها قد تضر ضررا بليغا بصحة حميلها طوال حياته • وهناك عامل جديد قد يحدث تشوهات خطيرة للحميل (الجنين فى الرحم) كما حدث اخيرا نتيجة لتعاطى بعض عقاقير مهدئة • وكذلك قد ينجم عن

استعمال الاشعة والاشعاع بوجه عام اضرار شبيهة ٠ وفى هذا الصدد لا يمكن حصر اهمية وفوائد عيادات رعاية الحوامل وعيادات الاطفال بمختلف انواعها ٠ ودون الدخول فى تفاصيل الوظائف الهامة لهذه العيادات وأثرها على صحة الطفل فانه يجدر بنا ذكر دور ممرضة الصحة العامه التى يعهد اليها بأعمال التطعيم والتحصين ضد الامراض السارية بين الاطفال ، مما اسفر عن هبوط واضح جلى فى نسبة المرض والوفاة بين الاطفال ٠ وقد ثبت ان هذا بدوره عامل وقائى يسهم فى صيانة الصحة العقلية بين الامهات ٠ ورغم ان بعض اللقاحات الواقية تكون فعاليتها ذات اثر محدود لا يحمل على الاطمئنان الكامل من الناحية الفنية لدى الاطباء ، فان مجرد اجراء عملية التطعيم فى ذاتها قد يكون من العوامل التى تهدئ الامهات وتجلب السكينة والطمأنينة الى قلوبهن ٠ فالأمر فى لحمته وسداه ما هو الا تأثير سيكولوجى محض ٠ وهذا يفسره ما قاله الرازى لتلاميذه : "فلنسرع ولنستغل عناصر الدواء وقواه قبل ان يفقد فوائده من جراء ذيوع انتشاره" ٠ وكان لهبوط نسبة المرض والوفاة بين الاطفال اصداء فى مختلف المجالات ٠ وليس ذلك بمستغرب ، فقد كان هذا الهبوط عاملا فعالا ادى ــ على سبيل المثال ــ الى الهبوط التدريجى في حالات تعدد الزوجات التى كانت باقية فى بعض المناطق الحضرية ، والتى كان سببها الرئيسى النسبة المرتفعة للوفيات بين الاطفال ٠ وفى الواقع، ان ارتفاع نسبة وفيات الاطفال عامل من العوامل الهامة لبقاء نظام تعدد الزوجات ٠ ولا شك فى ان الخدمات الصحية الفعالة التى تبذل من اجل الامهات والاطفال قد تكون عاملا حاسما فى جعل نمط الزواج قاصرا على زوجة واحدة ٠ وحتى انتشار الامراض بين الاطفال قد يؤدى الى تغيرات جذرية فى حالات الزواج كما يؤثر ذلك على طابع النشاط الجنسى وهذه حقيقة معروفة بين المصابين بالعقم من سعيهم الحثيث للانجاب وخاصة فى المجتمعات القبلية حيث يكون لتعداد الرجال وقوتهم قيمه اقتصادية وفعالية بيولوجية بقائية ٠ وبذا يصبح واضحا لماذا نجد ان النهوض بصحة الطفل له اثر جلى على الانماط الاجتماعية

السائدة للاسرة والمجتمع • ويتبع هذا ان الصلات التقليدية فى الاسرة ليست لها الطبيعة البيولوجية الثابته فى نوعها ومداها ولكنها نموذج ديناميكى له القدرة علـى التكيـف • كما يصبح جليا ان مفهوم الصحة لا يقتصر اثره على ماهو صحى بحت بل يتعداه الى الحقل الاجتماعى بكل ما يتضمنه من آثار • كما ينطوى ذلك على حقيقة هامه هى ان الكفاءة والكفاية الاجتماعية جزء لا يتجزأ من مفهوم الصحة الايجابى فى مداه الواسع • وانه من الاهمية بمكان ان نذكر فى هذا المقام النظرية التى ما زال يرددها حتى الآن اتباع مدرسة فرويد من ان بعض انواع الغيرة بين الاطفال والتى اصطلح على تسميتها عقدة "غيرة الأخوة" (مثل رد الفعل الذى يحدث فى طفل بالنسبة لميلاد شقيق أو شقيقة) هى السبب فى كثير من الحالات العصابية (امراض الاعصاب) •

وقد دلت تجاربنا على ان هذا الرأى لا يمكن قبوله على الاطلاق لانه حتى فى الاسر الآخذة بنظام تعدد الزوجات حيث تسود الغيرة بين الاخوة وتزيدها ضراما الغيرة بين الامهات الضرائر لم نصادف على الاطلاق ايه حالات مرضية اشارتها هذه العقدة المزعومة • ويبدو انه فى غمار بحثنا نحن معشر الاطباء عن سببية مرض ما قد نخلق عفوا سببا قد تثبت فعاليته سيكولوجيا فيما بعد فى المدى الطويل • وفى احدى الحالات التى كانت ضمن نطاق تجاربنا حدث ان تقدم الينا احد الآباء المثقفين ممن لهم خبرة جزئية تستمد اصولها من قراءة كتب علم النفس والايمان العميق بما فيها ، ونتيجة لذلك كان مقتنعا بصدق عقدة "غيرة الأخوة" فركز قوة ملاحظته على طفله الاول عند ولادة طفلة الثانى ، تقدم الينا لعلاج طفله البالغ اربع سنوات من العمر الذى كان فى زعمه يشكو من عقدة "غيرة الأخوة" وذلل ذلك بأن الطفل اصبح يعانى بعد مولد اخيه من ظواهر مرضية اكتشفها هو فى طفله ، ولكن ما ذلل على وجوده فى طفله كان من التفاهة والضآلة بحيث لم يكن يعنى شيئا على الاطلاق • الا ان الاب انصرف دون ان يقتنع برأينا ويبدو انه فى ايمانه بان الطفل مصاب بهذه العقدة وبالتالى مريض مرضا عصبيا ، عامله

على هذا الاساس ٠ وأصبح الطفل موضع عطفه وتدليله وشفقته ٠ ونتيجة لذلك بدأ سلوك الطفل يتجه اتجاها عصابيا ، وأخذ يعانى من نكسة كان من مظاهرها التبول فى الفراش للمرة الاولى ٠ وهذا تفسير جيد يوضح كيف ان نظرية لا اساس لها من الصحة قد تصبح عمليا فعالة عن طريق التأثير السيكولوجى الصريح ٠ وفى هذه الحالة كما فى حالات كثيرة غيرها تستحيل مجادلة الفكرة وتفنيدها لمثل هذا الاب ٠

ونقول ضرورة واضطرادا ان معاملة الآباء للابناء من الناحية العاطفية لها اثر عظيم على النمو العاطفى للطفل ٠ فالصلة العاطفية التى تنصب على الطفل الاول او الاخير او الاوحد او الطفل بعد موت أخ له تخلق الفوارق المميزة لسيكولوجية هؤلاء جميعا ٠

ان من اعظم نواحى التقدم فى ميدان صحة الطفل فى هذا القرن هو انشاء الخدمات الوقائية التأهيلية جنبا الى جنب مع الخدمات العلاجية داخل نطاق الخدمات الشاملة للامهات والاطفال ٠ كما ان خدمات ارشاد الطفل بالنسبة للمصابين باضطرابات نفسانية تزداد وتنتشر الا ان صلاحيتها لم تستخلص بعد بشكل جدى فى كثير من البلدان ٠

وينبغى ان ننوه ان هذا البحث لا يتناول النواحى الاخرى الهامة لتطوير المجتمع مثل التخديم ، وشروط العمل ، والاسكان ، والضمان الجماعى ، والترفيه ، وغير ذلك من نواحى برامج تطوير المجتمع ٠ زد على ذلك انه لما كان من المحتمل ان يتناول هذه الناحية — بشكل اوفق — من تؤهلهم عوامل المهنة والكفاية للاتصال بهذه المشكلات عن كثب ، فان مجرد الاشارة اليها هنا يكفى ٠ وفى هذا الصدد ، يبدو ان موضوع حرية الانسان اساسى في توثيق الصلات الدولية ، واصبح من الجلى ان مستوى ونوع العلاقات الانسانية فى المحيط القومى قد يزيد ويرتقى افقيا ورأسيا عن طريق علاقات افضل فى الميدان الدولى ٠

ومما لاشك فيه ان التجربة التى برهنت على صدقها فى ظروف متعددة قد جعلت من الواضح الجلى ان الالمام بلغة

اجنبية قد يكون عاملا على توسيع نطاق الوعى الاجتماعى الذى يكفل التخلص من نير التعصب المغرض الذى ينشأ نتيجة للمبالغة فى تقييم الذات والتراث . والحق يقال انه كلما قلت وسائل الاتصال بين الانسان وأخيه وضعفت فرص التعبير والمشاركة الوجدانية بينهما كلما كان ذلك من دواعى العزلة التى تقضى على نضوج الوعي الاجتماعى . فاذا ما اختار الانسان ان يعيش فى عزلة كاملة عن الحياة الاجتماعية فان ذلك لكفيل، دون شك ، ان يقوده الى حالة نكوص اجتماعى وتدهور فى عاداته ومستوى قيمه .

ففى المنزل ، نجد ان طبيعة العلاقات الزوجية ذات اهمية فى نموء الاتجاهات السلوكية الاجتماعية لدى الطفل . وغالبا ما تلازمه هذه الاتجاهات وتنعكس على انماط سلوكه مستقبلا حيال المجتمع . ومن ثم فان الاساس يوضع فى المنزل وتكون المدرسة امتداد له ، ولا عجب فى ان المنازل المقوضة الاركان بكافة انواعها ، وفشل رسالة المدرسة هما اكثر العقبات جدية بالنسبة للنمو العاطفى للطفل مما قد يوءدى فى النهاية الى الانحرافات بجميع اشكالها والى الامراض العصبية والاضطرابات السلوكية . ومع ذلك فان الفكرة السائدة فى كثير من بلدان الاقليم هى ان الانحراف بين الاطفال يضطرد ازدياده يوما عن يوم . وقد دلتنا التجربة على صدق ذلك الا انه فى بعض الحالات يبدو اكبر من حقيقته . وفى بعض البلدان صار اكثر وضوحا بادخال نظم قانونية جديدة ، وكرد فعل للتغير الذى طرأ على المجتمع فاصبح متشددا بعد تسامح . وكانت نتيجة هذين العاملين هى تجريم كثير من الاطفال الذين كان انحرافهم البسيط محل الأغضاء فيما مضى .

زد على ذلك ان التفسيرات الاحصائية قد تموه النتائج بشكل جدى باعطائها صور غير صحيحة . زد على ذلك ان نفس العوامل الاجتماعية التى ادت الى الاخلال بالنظم التقليدية ومن بينها رقابة الآباء ، وسلطة المدرسة ، وسلطان رب الاسرة على الاطفال فى الدار . وكذلك اسس التعليم المتغيرة المتأرجحة بين قاعدتين : "تخل عن عصاك يتدلل الطفل" ، و

"التعليم بلا دموع" قادتنا الى قدر كبير من التغير السلوكى. الا انه من المؤكد ان هذا ثمن التقدم ولا يمكن فصله عنه . والموضوع برمته يكمن فى قانون : "اما ان نأخذهما معا او نتركهما معا" . والمسألة مشكلة انتقالية بغير شك قد ينشأ عنها فى المستقبل مشكلة اكبر منها . وينبغى ان يركز التثقيف الصحى على اعتبار هذه المسألة حالة طبيعية تقتضيها ظروف التطوير وانها ضربة لازب فى حتميتها فى هذا الطور الانتقالى . والحق ان مثل هذه الاضطرابات التى تصيب المجتمع قد تكون فى كمها وكيفها مقياسا لمدى اندفاع المجتمع فى خضم كفاحه فى سبيل التطور كما ان قوة التغير لم يقتصر تأثيرها على الطفل دون سواه ، بل اصاب هذا التأثير المراهق وطالب الجامعة والعامل البالغ والمجتمع اطلاقا . بل انه من الثابت ان امتداد التعليم الى المستوى الجامعى قد ادى فيما ادى الى بقاء سلوك المراهقة الى نهاية سن التخرج اى حتى ثلاثة وعشرين عاما تقريبا .

وقد قال على بن ابى طالب ، زوج فاطمة ابنة رسول الله عليه الصلاة والسلام : "الناس بزمانهم اشبه منهم بآبائهم" . والمضمون التطورى واضح جلى فى هذا القول . وهو يتفق مع ما قاله برجسون الفيلسوف الفرنسى : "لكيما نعيش يجب ان نملك القدرة على التغير . فعندما نتغير نصبح اهلا للنضوج . وعندما ننضج يتهيأ لنا الخلود بتجدد ذاتنا فى عملية ابداعية لا نهائية" .

ملحـــق

ان المعايير الحديثة التى تؤخذ على كونها مقاييس لمستوى المعيشة والتى اتفق عليها وطبق استعمالها مع تغييرات تلائم المستوى الاقتصادى فى ضوء الحاله الاجتماعية والثقافية فى مختلف بلدان الغرب وشمال امريكا ، وبرهنت على كفايتها كمعايير ، لا يمكن استعمالها ، كما هى ، فى بلدان الاقليم . لأن مستويات الحياة ما زالت تتأثر بعوامل فلسفية

تصوفية روحية نابعة من التعاليم القديمة تقف وتحول دون الافراط فى الترف • فالعوز البادى فى بعض جهات الشرق ليس دليلا على الفقر • وقد لا يختلف مستوى المعيشة بين الاغنياء والفقراء اختلافا واسعا نسبيا ، نظرا الى طابع الزهد والتقشف الذى اصبح مظهرا من مظاهر الحياة ووسائلها والذى يؤثر على المجتمع ونظرته الى الترف والرفاهية • ولعل ما هو مألوف فى الهند بين طبقات النساك والزاهدين خير مثال لذلك• ففى الشرق قد يمتلك المرء ثراء عريضا لكنه لا يصل فى انفاقه الى درجة تعبر بالصدق عن مبلغ هذا الثراء كما هى الحال فى الغرب ، نظرا للتأثر بمفاهيم التصوف والزهد التى تغلغلت فى عقائده ومذاهبه ونظرته الكامنة فى قرارة نفسه لمعنى الحياة • وهذا بديهى بسبب اختلاف النظرة التاريخية لكل من الثقافتين• فبينما يجنح الشرق الى الروحانيات نجد الغرب اكثر جنوحا الى الماديات • ورغم ذلك فالواقع ان هذا الاتجاه قد يصبح فى المستقبل اثرا تاريخيا اكثر منه واقعيا فى الكثير من البلاد المتأثرة بحضارة الغرب • فباتجاه التطور يسير قدما نحو النظرة الغربية المادية التى هى طابع التصنيع ومن اهم مميزات العلم • والنظرة الروحية التى كانت تلائم القديم من الناحية العقيدية والاقتصادية والاجتماعية لن تلبث ان تصبح اثرا بعد عين ، بعد ان فقدت عناصرها ومقوماتها الاولى •

الأصول العربية للطب الشعبى فى السـودان

عندما نتحدث عن الطب الشعبى فى السودان وعن أصوله العربية أرى لزاما علينا أن نبدأ ببحث أصول الطب العربى نفسه فى مصر القديمه وفى بابل وفى اليونان وفى غيرها من بلاد الشرق القديم لأن العرب فى عصور نهضتهم قد استمدوا عناصر طبهم ودعائمه من هذه الأمم القديمة وعليها نهضوا وعلى أثرها ابتكروا وأبدعوا وأخرجوا ـ وفى أرض مصر القديمة نشأت العوامل التى تمهد لقيام مهنة الطب لأن الطب ككل مؤسسة انسانية لا يقوم فجأة • ففى مصر تيقظ الضمير الانسانى لأول وهلة وفيها قامت الشرائع الاولى وفيها مجد الانسان وفى أرضها نشأت الحكمة ومنها انبثق ضوء العلوم والمعارف ومن بينها الطب • وكان أمحتب أول طبيب عرفه التاريخ وكان طبيبا ووزيرا ناطقا بالحكمة بارعا فى فنون الهندسة عريقا فى معرفة السحر والطلاسم وفى شخصه مجد المصريون الطب فرفعوه الى مصاف الآلهه وقد عرف المصريون فى تلك القرون السحيقة الكثير من الخواص العلاجية للاعشاب والنبات والثمار كما استعملوا أعضاء الحيوان وأحشائه وافرازه فى العلاج وبادى بدء وقبل اكتشافهم للمعادن انحصرت وصفاتهم بالضرورة على ما تجود به البيئة الزراعية •

وفى عهد الأسر نزحوا للغزو والتجارة وجلبوا فيما جلبوا الكثير من صنوف النباتات والاعشاب والعقار من آسيا ومن ليبيا ومن جنوب الوادى وكان لهذا الاختلاط أثره فى الصيدله المصرية •

وكان الطب فى مصر القديمة فرعا من فروع الدين نشأ فى حضنه وبفضائله اقتدى والمتصفح لأوراق البردى المصرية كبردية ابر وادون اسمث وكاهون وغيرها يدرك دون ما عناء أن المصريين القدماء قد أدركوا القيم النفسية للعلاج وان الطب كان يباشر على أساس المجتمع وكان الكهنة قبل مباشرة العلاج يرددون الاناشيد الدينية العميقة الاثر ومن أمثلة ذلك ما جاء فى بردية ابر "لقد أتيت من مدينة الشمس ومعى شيوخ المعبد

المالكون للشفاء والواهبون للأبدية . أتيت من "سايس" (صالحجر) فى ركاب الامم المنجبه للآلهة الذين منحونى حماهم . أتيت وفى حقيبتى وصفات من الاله الأكبر تشفى من كل داء عضال ارادته الآلهة أو الآلهات وتقى من كل سوء سببته أرواح الموتى".

وفى بابل كان الطب فرعا من فروع السحر وعلينا أن ندرك أننا حينما نتكلم عن السحر ينبغى أن نجرد ادراكنا من مدلوله الحالى - فالسحر قام فى الماضى ولا زال يقوم - بين بعض الشعوب اليوم مقام العلم وانا لا نحتاج لتجريد أنفسنا من الحاضر لندرك عقلية الماضى لان السحر لا يزال يمارس الى اليوم ولا يزال ينتفع به البعض ويضار به الآخرون وقد ورث العرب من أشور وبابل الكثير من ضروب الرقى والعزائم وفنون السحر وورثناه نحن من العرب ولا يزال قائما بيننا الى اليوم .

أما اليونان فقد تأثروا بمدرسة الاسكندرية ونبغ منهم رجال كان لهم الأثر الكبير فى نهضة الطب العربى من بينهم أبقراط وجالينوس (وقد درس التشريح بالاسكندرية) وديسقوريدوس وبولس الايجانيطى وغيرهم ممن لا يتسع المجال لذكرهم . وفضلا عن ذلك قام العرب بترجمة الكثير من كتب الكيمياء والطب من المصرية القديمة للعربية بعد فتحهم لمصر وخاصة فى العصر الاموى بأمر الامير خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان . فمن هذه الاصول المصرية والبابلية واليونانية والهندية والفارسية أيضا استقى الطب العربى واستمد أصوله .

ومن المحتمل انه فى الهجرات العربية الاولى للسودان حمل العرب معهم وصفات بسيطة تمثل حالة الطب فى تلك العصور وقبل ازدهاره ببغداد ودمشق وانه عندما شقوا طريقهم الى أرض النوبة أضافوا الى ما لديهم شيئا مما كسبوه خلال اقامتهم وترحالهم بمصر وهنا يجب أن نوضح نقطة أساسية هامة عن نشوء الطب وممارسته فى المجتمعات الانسانية عامة لأنه من المؤكد أن هنالك عاملين هامين يترتب عليهما تبلور الفكرة الطبية وتكييف العلاج فى كل مجتمع جغرافى أو اجتماعى . العامل الاول

ينشأ من نوع الامراض المستوطنه أو الوافدة منها فى ذلك المجتمع نسبة للعوامل الجغرافية أو الاجتماعية والثانى يرتبط بنوع النبات والاعشاب والمعادن وغيرها مما يتوفر فى تلك البيئة ومما يصبح بالتجربة أساسا لعلاج الادواء المستوطنة أو الوافدة منها ويمكننا القول أن العرب فى هجراتهم الاولى فوجئوا فى السودان ببعض الامراض التى لم يألفوها قبلا ولم يكن لها حظ فى معرفتهم كبعض أنواع الحميات والامراض الطفيلية كالديدان وغيرها فاستعانوا على ذلك بما تحصلوا عليه من خبرة للسكان الاصليين لأن العوامل الصحية الاقليمية التى توءثر على الاستيطان لا بد من علاجها بالاساليب الاقليمية وبعد ذلك ازدادوا خبرة بوسائل العلاج المحلية وزادتهم التجربة معرفة بها فأضافوها الى ما حملوه معهم من مسقط رأسهم •

وهنا لابد من الاشارة العابرة الى أهمية العوامل الصحية عامة فى الهجرة والى أنه يبدو ان بعض العوامل الصحية والجغرافية قد عاقت بعض الهجرات الكبرى فى التاريخ كما اتفق للعرب فى بعض الاصقاع الافريقية • ومن الجدير بالذكر ان الكثير من صنوف النبات والأعشاب المستوطنه بالجزيرة العربية متوفرة ببعض نواحى السودان • والمتصفح لكتاب النبات لأبى حنيفه الدنيورى لا شك يدرك ذلك •

وكذلك لفريضة الحج أهمية طبية هامة حيث تجلب العقاقير فى موسمه من كافة البلاد الاسلامية وتنتقل الوصفات من قطر لآخر وقد جلبت من هذا الطريق وعن طريق التجارة عبر البحر الاحمر عقاقير من بلاد أخرى كالهند وشرق آسيا وغيرها •

ولعل أكبر أثر فى الصيدلة العربية فى القرون الثلاثة الاخيرة نشأ من كتاب التذكرة للانطاكى الذى توفى عام ١٠٠٩ بمكة المكرمة •

وفى الطب الشعبى اليوم ببعض بقاع السودان ظواهر هامة جديرة بالذكر فنجد مثلا الاعتماد على التغذية كعنصر هام فى العلاج كاستعمال العسل والسمن والدقيق والعجوة (وقد أشار اليها ود ضيف الله فى كتاب الطبقات) وموءخرا العصير

والفاكهة وهذا النوع من العلاج كان سائدا فى الطب العربى الى حين تمكن نظرية الاخلاط الاربعة . كذلك من المشاهد وفرة استعمال الاشربة النباتية والمعدنية البسيطة على أسس قريبة جدا من الوصفات السائدة بكتاب الانطاكى .

وفى شمال السودان احتفظت أساليب العلاج الشعبى بطابع يكاد يكون فرعونى الاصل . وفى غرب السودان نجد ان للمعتقدات السائدة بغرب افريقيا أثر واضح فى علاجهم لانه فضلا عن الاتصال الجغرافى المباشر فانه طريق الحجيج ومن هذا الطريق وصلت بعض المؤثرات الاجتماعية والعلاجية من شمال أفريقيا أيضا . أما التعاويذ والرقى المستعملة فى العلاج فتكاد تكون بابلية وخاصة المربعات الحسابية التى انتقلت برمتها . وأثر الكتاب الموسوم بشمس المعارف الكبرى للبونى عظيم جدا فى هذه الناحية .

ومن النوادر اللطيفة عن الطب الشعبى فى القرن الماضى بالسودان ما جاء على لسان المغفور له الزبير باشا رحمه الله فى تاريخ حياته الذى نشره جاكسون فى كتابه المسمى بالعاج الاسود .

قال الزبير يصف حالته بعد أن أصابته رصاصة فى قدمه فى احدى المعارك ببحر الغزال "وعندما أصابتنى الرصاصة لزمت فراشى حتى صار الهلال قمرا واضمحل حتى صار هلالا ولم تنجع فى شفائى دعوات الداعين ولا صلوات المصلين ولا أدوية السحرة الممخرقين وهكذا بقيت الى أن قيض الله لى حكيم الحكماء المدعو أحمد الكرسنى ساقته الى المقادير من موطنه ببلاد الشايقية وقد وهبه الله معرفة خارقة بالأعشاب وبفن الجراح فشق القدم واستخرج خمسة وخمسين قطعة عظم متعفن" .

وذكر الزبير فى صفحة أخرى أن أحد قواده المرموقين أصيب برصاصة فى ساقه ولم ينجع فيه العلاج فارسل فى طلب أطباء من الخرطوم فقدم أربعة منهم أشاروا ببتر الساق فرفض المريض . قال الزبير فأرسلت فى طلب الكرسنى فلما قدم جس الساق بأنامله الدقيقة التى تشبه أطراف السوط (الكرباج) وعندما أحس بمكان الرصاصة همس باسم الله الرحمن الرحيم ثم

شق اللحم فاذا الرصاصة تقع بين أنامله .

كذلك ذكر أن النور عنقرة أصابه مرض يئس الاطباء من شفائه فلجأ للزبير فأمره بأن يصرع فيلا فخرج النور الى الغاب وصرع فيلا ببندقية ثم حضر الزبير وشق بطن الفيل وأمر النور عنقرة بأن يسبح فى جوفه ففعل والرجال قابضون على اطراف الشق لئلا يهوى على بعضه وبينما هم كذلك ارتعش جسم الفيل فوثب الرجال وقفز النور عنقرة من جوفه . قال الزبير ولم يعاوده مرض بعد ذلك أبدا .

العقاقير وكيف يحسن إستعمالها وكيف يُساء

" الأفيون يقود العاكف عليه الى طريق الموت وهو فى غمرة الفرح والنشوة ... والنشوة التى يشيعها أبلغ مدى وأبعد أثرا من كل نشوة عداها من نشوات الحياة . ولو أمكن القضاء على الآثار الضارة الكامنة فيه لهذب النفوس والان عريكتها ... وانه لمن دواعى الأسف أن الطب لم يستطع أن يستل مضار الأفيون الكامنة فى عنصره وطبيعته كعقار" .

جان كوكتو

العقاقير لها تاريخ طويل ممتع حقا . وهو معاصر فى ذاته لتاريخ الانسان، يرافقه ويمتد معه منذ الأزل. زد على ذلك ان تاريخ العقاقير لا يقتصر على سرد دورها فى العلاج فحسب، بل يعكس كذلك، ويوضح أيضا، دورها الذى لعبته فى حياة الانسان الاجتماعية والثقافية والروحية ، وخاصة فيما يتصل ببعض أحداث التاريخ التى كانت فى بدئها أسبابا ثم ارتدت الى نتائج ثم الى أسباب وهكذا دواليك فى دورات متعاقبة ، مما كان له أبلغ الأثر كسبب من أسباب القدر فى حياة البشر. ولا غرو فان قصة العقاقير ما هى الا صدى لقصة التراث الأنسانى ولما هو منطقى ومعقول وما ينكره المنطق والعقل من زيف فى مجالات التفكير . وهى قصة تطابق وتصور مغامرات الأنسان فى آفاق المجهول، كما يضيء سنى حقائقها مجال تقدمه فى أفقه الروحى وفى ميدانه المادى . وتقتفى أثر ما وصل اليه عن طريق التجربة والخطأ فى سعيه الحثيث لتحقيق مثله العليا ، كذلك تصور صراعه السافر لغزو الطبيعة وجهاده الخفى لقهر مخاوفه والقضاء عليها . زد على ذلك ان تاريخ العقاقير يحسر

* من تقارير مكتب شرق البحر الابيض المتوسط ، منظمة الصحة العالمية ١٦ أغسطس ١٩٦٢ (الاصل بالانجليزية) .

النقاب عن عالم واسع غير منظور يفيض بالأطياف وبأحلام الأنسان وما يخلقه خياله الخصب من أوهام • وأخيرا فان دراسة العقاقير ما هى فى واقع الأمر سوى دراسة المؤسسات الأنسانية فى طبيعتها منذ بدايتها الأزلية ، وفى متون الأحقاب التى عاصرت تطوراتها وتنوعها ، وانتشارها ، وأضمحلالها •

وفى ميدان الطب وداخل نطاقه ، عرف التأثير السيكولوجى للعقاقير الى جانب تأثيرها الفسيولوجى المألوف ، منذ العصور الأولى • فقد استغلها الأطباء من الكهنة فى مصر فى عهد الأسرات ، وبوشرت كأداة اضافية من أدوات العلاج • ومما سهل اكتشاف هذا التأثير اتجاه العقل فى تفكيره الخفى الى عالم الروح ، وما ساد نتيجة لذلك من الاعتقاد بحيوية المادة وبما فى العالم من قوى خفية زاخرة سيطرت على مصائر الأنسان • ولا عجب فان الآثار السيكولوجية الكامنة فى العقار كانت تفسر على انها مظهر من مظاهر القوى السحرية التى اختصت بها عناصره • وقد أدى نفس الاتجاه العقلى الى أكتشاف " فكرة الوقاية " عن طريق تقديم القرابين والضحايا كترضية وزلفى لهذه القوى الروحانية المهيمنة • كما أن ذلك الاعتقاد فى القوة السيكولوجية للعقاقير – كغيرها من المظاهر البدائية التى تفسر عن طريق خفى – وما تبع ذلك من شعائر والزام بقيت محدودة النطاق فى تشكيلها ومظهرها حتى جاء الرازى ذلك الطبيب الأسلامى الفارسى العظيم (القرن ٩ – ١٠م) ، وبلور هذا المفهوم وأطلق معانيه فى قوله المأثور "فلنسرع لنستغل عناصر الدواء وقواه قبل أن يفقد فوائده من جراء ذيوع انتشاره" ، وهذا التفسير الملهم قد فتح آفاقا جديدة للتطبيقات العملية • وتؤيد تجاربنا اليوم ما قاله الرازى بالامس من حكمة صائبة ونفاذ فى الرأى • وفى ضوء هذا القول المأثور وعلى هدى معانيه نستطيع أن نفهم كيف وفقت العقاقير الحديثة وكيف نجحت فى تدعيم الحالة النفسية وفى اعتدالها وفى ردها الى طبيعتها التى تخلفت عنها بين طائفة المرضين الذين اتسمت أعراض مرضهم بطابع الأزمان • وتم ذلك عن طريق الاستبدال المضطرد للعقار المهدئ الذى استنفد الاستعمال

أغراضه بآخر ما ظهر من نوعه من العقاقير فى الأسواق •

وكانت الآثار الجانبية الطارئة للعقاقير (كالشعور بحالة من الدفء عند استعمال حمض النيكوتينيك الفيتامينى ، وهى خلاف الآثار الفسيولوجية التى من اجلها يستعمل العقار) كانت موضع الاهتمام لاعتبارها فى نظرهم ارهاصات تنبىء عن قوة العقار وأثره ، واستخدمت كما يستخدم الفأل الذى ينبىء ويبشر بنجاح الامور وبلوغ غاياتها مما أدى الى تدعيم الاستجابة السيكولوجية ذات الاثر الفعال فى العلاج • ولعل هذه التجربة التى اكتشفها ومارسها الاقدمون كانت أكثر حذقا فى بعض نواحيها من استعمال الطرطير المقيىء الذى ما فتىء يستعمله سير صمويل بيكر ، الرحالة والمكتشف الافريقى فى القرن الماضى ، على غرار هذا المبدأ • ورغم أن سير صمويل لم يكن طبيبا فانه كان ذا بصيره لادراك ومعرفة احتياجات الانسان ومشكلاته ، وخبرة بالناس والحوادث قد يفوق ما للطبيب فى هذا المضمار • وقد استعمل سير صمويل الطرطير المقيىء كوصفة عامة يصفها لكل من هب ودب من مرضاه ، وغاية ذلك ان يصيبهم القىء الذى كان ينبئهم سلفا بحدوثه • وكان المرضى يعتبرون ذلك نبوءة ، وعند حدوثها كانت تؤخذ على انها خير دليل على قدرته وصواب علاجه • وكان نجاحه فى ذلك عظيما • كما اصبح دواء "الانجليزى ذى اللحية" ذائع الصيت شائع الاستعمال • ولا جرم فقد كانت طبيعة الاحداث والجو السيكولوجى فى تلك الفترة خير معين على نجاح هذه التجربة •

وفى بابل كانت العقاقير أداة تقليدية رصينه من أدوات السحر بل جزءا هاما من جهازه • كما أصبح السحر جزءا لا يتجزأ من مضمون العقيدة وطقوس العبادة وشعائرها واستعملت العقاقير المجلبه للرؤية والهلاس وكذلك العقاقير المفرحة استعمالا طقوسيا ونظمت كجزء من العبادة وقوى أثرها ونشط فعلها تحت تأثير الظواهر الجماعية المنبثقة من التفاعل الديناميكى الذى هو مظهر من مظاهر الجماعة والتجمع ، فارتفعت قيمتها ، وأصبحت أداة شعائرية لازمة • أما المشاهدات وتجارب الرؤية التى نجمت عن ذلك فقد كان

تأويلها انها اتصالات علية بالآلهة والارباب ، وبعالم الارواح وما وراء الطبيعة ٠ ومن ثم اصبحت جزءا من العبادة والدين ٠ وبذلك صارت العقاقير ذات التأثير السيكولوجى راسخة القدم كوسائل مقدسة لممارسة الكهانة والنبوة والاطلاع على الغيب ، والاتصال بالارواح العليا المتحكمة التى تؤثر فى مجرى مقدرات البشر ٠ ومن ثم اصبحت التجارب المترتبة على استعمال العقاقير مرادفة لقدرة الآلهة والارواح والقوى الخارقة للطبيعة التى يمكن استرضاؤها بأظهار الولاء من أجل نفع البشـــر ٠

وتلا ذلك ان استعمل المتصوفة العقاقير لتيسير وجلب حالات الاستغراق والوجد ، وزيادة تأثرها ٠ وان ما انطوت عليه من ظواهر المشاهدات والادراك الحسى ، وما تحدثه من روحنة ونشأة مهدا السبيل الى سلوك الطريق الصوفى والى الوصول الى ما يكتنفه من الاحوال والمقامات ٠ وكان لهذا اكبر دوى بين الاديان ٠ ولا شك أن النشوة البالغة التى تطلق العقاقير زنادها يصعب التمييز بينها وبين نشوة الوجد الصوفى ٠ والتطابق الوثيق بين تجارب العقار من ناحية والتجارب الصوفية من ناحية أخرى وخاصة فى ظواهر الرؤية المشتركة ، وفى حيز الزمان والمكان وفى تفسيره المعنوى ، وفى فقد الذاتية عن طريق الحلول فيفنى "الانا" (الذات) فى "الهو" (ما يحل مكانه) ، وكذلك فى تطابق النشوة المميزة لكليهما ، كما فى المجالات التى يطابق فيها كل منهما الاخر ، جعل التمييز بينهما أمرا عسيرا ٠

وفيما يتعلق بالقات ، والمسكالين (نبات يستعمله الهنود الحمر لجلب حالات الاستغراق والوجد) ، والقنب الهندى (الحشيش) ، وغيرها ، اصبحت التجارب الحسية التى تطلقها مصدرا من مصادر الذوق والقيم الادبية والاخلاقية والالهام الصوفى وما فيه من مغزى تاريخى ٠ وكانت التجربة بالنسبة للمتصوفة تجربة من التجارب العارمة تقوم على أساس الواقع وترتفع عن الشك والاوهام حتى صار يقينا لديهم ان هنالك عاملا الهيا خيرا والهاما مرشدا قادهم الى اكتشاف هذه العقاقير

لغرض أسمى ونتج عن ذلك ثبوت هذه الفكرة فى الاذهان ثبوت العقيدة بأن هذا الارشاد الالهى المبارك كان قد اقتصر فى أول الامر على المتصوفة تمييزا لهم وتمكينا لعبادتهم وتأييدا لرسالتهم الالهية ٠

وكان استعمال هذه العقاقير فى الماضى شعائريا ليس الا، كما كان تعاطيها محدودا يقتصر على المناسبات الطقوسية التى كانت منتظمة ومتعددة ٠ وفى هذا المقام الشعائرى ، كان رجل السحر وأتباعه المنتظمون فى خدمته ، وكذلك الجمهور ، يشتركون معا كهيئة واحدة تقوم بنشاطها الدينى ٠ وكان لظواهر الجماعة والتجمع أثر قوى فى زيادة تأثير العقار وفى تحويل مضمونها الى اتجاه ناموس ازلى ٠ زد على ذلك ، أن ديناميكية الجماعة فى طرحها لعناصر التجربة الفردية وآثارها تحت تأثير الجماعات والتجمع قد رفعت جوهر التجربة وخلقت منها صورا حسية مشتركة ذات طابع أولى عريق فى التقليد والقدم يمثل تجارب أزلية جماعية ٠ وبهذه الطريقة أصبح جوهر التجربة مرتبط بالجماعة سواء تفرقت آحادا أو اتحدت معا وتماسكت ٠ ومن ثم اعتبر الاستعمال الشعائرى لهذه العقاقير ركنا من اركان العبادة الجماعية يتسم بالصلاح والتقوى فى أعلى صورها المباركة ، مثله فى ذلك مثل صلاة الجماعة ٠ وأن تجاربنا فى مجال شرب الخمر بشكل جماعى فى بعض القبائل الافريقية وما يتسم به بعض العاكفين عليها، تشير الى أن من لا يشتركون فى هذه الاحتفالات الجماعية قد يكونون أمثلة لبعض أنواع الشذوذ٠ ومعنى ذلك أن من يشترك فى شرب الخمر هو الطبيعى ، وأن الشاذ هو من لا يشترك فى شربها ٠ فالشرب قاعدة جماعية ومن يخرج على القيم الاجتماعية فهو شاذ ٠ ومفهوم الخمر فى هذه الظروف يختفى تحت قوة الجماعة ٠ وكانت هذه الاحتفالات بيولوجية وانتفاعية فى مداها ٠ كما كانت هى الوسيلة والأداة فى ابراز احداث المستقبل والتنبوء بها ، وسبق التحذير بهيىء التأهب للكفاح والنضال ٠ وفضلا عن ذلك كان من أغراض هذه التدابير أن تسبق الاحداث بأشاعة شعور بالتفاؤل يكون عدة لحشد الفعالية والقدرة على مواجهة

المجهول ، كما أنها تثير الاقدام والمبادأة وتعين على مواجهة المستقبل وما يجئ به من أحداث . والى جانب ذلك ، كانت ممارستها دليلا على الولاء والتدين والصلاح باعتبارها وسيلة للاتصال بالآلهة وأرواح الأجداد . وهذا ما يمكن ذكره فى مجال الأقوال . أما فى مجال الأفعال فقد نشأت صنوف من الأشارة والافراغ مكنتهم بما فيها من قدرة علاجية من اطراح مخاوفهم والتخلص مما اعتراهم من قلق شديد بوسائل دراماتيكية ذات طابع جماعى لها صفات المسرح وأوصافه ونعود فنكرر ان هذه المراسيم كانت ذات قيمة بيولوجية لها صفات البقاء بالنسبة للمجتمع . زد على ذلك انها كانت أنماطا من الوسائل الفنية التجريبية غايتها تعديل المجتمع ودعوته الى ميزانه الطبيعى فى كفايته وكفاءته . كما كانت هى الوسيلة الوحيدة التى تكفل مفهومهم عن الوقاية والمحافظة على مؤسساته بما فيها الصحة ، والنهوض بها . وكانت هذه الشعائر تقام فى حالات الحزن والخوف والحروب وما اليها ، باعتبارها عدة وعتادا للنفوس فى مواقف الشدة والقهر سواء كانت حقيقية أو من نسج الخيال . ومن ثم كانت بيولوجية فى صدورها ومصدريتها ، وعند خروجها من القوة الكامنة الى الفعل الظاهر.

ادمان المخدرات فى ضوء مفاهيمه التاريخية

ينبغى ان نؤكد فى هذا المقام أن مفهوم ادمان المخدرات ، كما هو شائع اليوم ، حديث نوعا ما . وهو بوصفه هذا لم يكن له وجود تقليدى على الاطلاق ، قبل عام ١٩١١ . زد على ذلك ان اجراءات مكافحة ادمان المخدرات نفذت لأول مرة فى التاريخ فى عام ١٩٢٠ ببريطانيا العظمى ، ولم يكن لها قبل ذلك وجود .

وأول فكرة كانت نواة لما عرف فيما بعد بالأدمان بدأت غامضة فى أواخر القرن الثامن عشر . وكان الدافع اليها دافعا تجاريا محضا دون أية اعتبارات صحية أو أجتماعية . ولعل تصريح وارن هيستنجز ، أول حاكم للهند فى عام ١٧٨٨ ، كان أول اشارة الى هذا المفهوم الغامض ومدلولاته المبكرة .

وقد صرح هيستنجز جهارا بأن " الأفيون ضار بوصفه مادة من مواد الترف ولذا ينبغى ألا يسمح به لغير أغراض التجارة الخارجية فحسب "٠ وفى الولايات المتحدة من ناحية أخرى ، بدأ هذا الادراك غير جلى بعد ضم الفلبين اليها فى عام ١٨٩٨٠ بيد أنه لم تتخذ تدابير عملية قبل اتفاقية الأفيون الدولية بلاهاى التى عقدت فى ١٩١١ - ١٩١٢ وكانت الأولى من نوعها ٠ وفى هذه الاتفاقية اعتبر الأفيون كمصدر للأدمان من ناحية المعايير الهامة التى تدخل فيها العوامل الصحية والاجتماعية باعتبارها عوامل أساسية ٠ وقبل ذلك كان الاهتمام مركزا فى تجارته واحتكاره ٠ وكانت أولى الخطوات التى اتخذت لتنفيذ قرارات اتفاقية لاهاى ، هى جعل توصيات هذه الاتفاقية جزءا من معاهدة فرساى للصلح ٠ وأقرت الدول الموقعة عليها أن تسن قوانين لتنظيم تداول العقاقير الخطرة ، موضوع البحث ٠

وأول " قانون للعقاقير الخطرة " أقر فى بريطانيا العظمى فى عام ١٩٢٠٠ واننا لنجد فى معجم اكسفورد المختصر أن كلمة " مدمن" استخدمت للمرة الاولى بمعناها الفنى بالنسبة للعقاقير ، فى عام ١٩٠٩ ٠

ومن ثم فانه من الجلى ان مفهوم الادمان كما نعهده مفهوم حديث العهد ٠ كما انه لم يكن له وجود فى الازمنه الغابرة ، وانه اثير وأصبح له كيان مع ازدياد الدوافع الدولية لترويج تجارة العقاقير ٠ وتلا ذلك شىء آخر هو أن تغير القيم الاجتماعية وطابع الحياة التقليدية مع ظهور احتياجات وكماليات جديدة مبتكرة جعل العقاقير تبدو شاذة فى مغزاها ومن ثم اصبحت وظيفتها التقليدية فاقدة لمكانتها وأهميتها فى أوضاع المجتمع المتغيرة ٠ ولا شك انها فى فقدها لوظيفتها اصبحت أشبه بالزائدة الدودية (المصران الاعور) التى فقدت وظيفتها فى سباق التطور الذى طرأ على الانسان نتيجة لتغيير انماط حياته فأصبحت "زائدة" ، مثلها كمثل "واو" عمرو ، وبهذا شكلت خطرا جديا على الصحة ينبغى ازالته عن طريق الجراحة ٠ وهذه سنة الطبيعة : من يفقد وظيفته يفقد القدرة على الحياة ٠

ولا غرو فان مفهوم الادمان قد اسهم اسهاما كبيرا فى الميدان الاقتصادى والاجتماعى ، وكذلك فى ميدان الوقاية الصحية • وهذا أمر لا شك فيه ، بيد أنه لم يكن اسهاما خيرا فى جملته وتفصيله فقد كان بغير جدال ضارا ببعض المجتمعات نتيجة للجهل وسوء التقدير وما تبع ذلك من عوامل سيكولوجية ، حتى أن كثيرا من السلع والعقاقير غير الضارة اعتبرت خطرا على الصحة أو مخالفة لاوامر الدين ونواهيه ، وهو ما يمكن تفسيره بلغة اليوم تفسيرا يقوم على شاكلة الادمان • وحتى يومنا هذا ، نجد لمفهوم الادمان ناحية دولية قد تقضى على أغراضها • وهذا يتعلق بموقف البلدان المنتجه للمخدرات المنتفعة اقتصاديا من مباشرة ترويجها • وفى كثير من البلدان ذات التراث التاريخى ، قد يعكف الناس على تعاطى مخدرات معينة اصبحت ذات طابع تقليدى مألوف • وليس ثمة دليل على أن هذه المخدرات قد سببت أى ضرر بليغ بمستوى كفايتهم أو أنماط حياتهم الخاصة ، الى أن تزايد الضغط الدولى تزايدا مضطردا كانت نتيجته ان فرض قواه على اتجاهاتهم وعلى طابع حياتهم الاصيل ، وهنا بدأ اثره فى تحويل الامور وفى اتجاهها اتجاها آخرا •

وأن تأثير الدفع الاجتماعى والاقتصادى مع الضغط المتزايد للرأى العالمى قد اديا تدريجيا الى نوع من الجفوة فى الرابطة التاريخية بين العقاقير التقليدية والقيم الثقافية • ونجد فى دراسة هذا المكتب الاقليمى للمنحدرات الاجتماعية وكيف أن ظروفها قد تؤثر فى نوعيتها على بعض ظواهر الاعراض فى حالة الخمر والحشيش ، دلت النتائج على ان سببية بعض الاعراض السالبه للصلاحية بين المدمنين قد تكون فى أساسها وجوهرها وظيفة من الوظائف ، أى انها رد فعل ونتيجة مباشرة للمنحدر الاجتماعى فى صفته وفى ضوء ما تقرره القوانين الوضعية وتحتمه القيم الخلقية السائدة ، وفى سياج المقاييس والمعايير العامة المنبثقة من اتجاهات التراث التاريخى الموروث • وبمعنى آخر ، ان العوامل المسببة لهذه الأغراض ليس لها أصل على الاطلاق يقوم على طبيعة العقار

وعنصره من الناحية الفسيولوجية وأنما هى من فعل المؤثرات السيكولوجية بين بنى الانسان • وهذا يتضمن عظة بليغة نصورها كالآتى :نحن بوصفنا اطباء ، والحكومات بصفتها الحاكمة ، اذا قررنا صراحة وجزمنا وأكدنا واتفقنا على هذا ، ثم أعلنا ان عقارا معينا ضار جالب للأدمان ، فان هذا الأعلان فى حد ذاته كاف لأن يحيط العقار بقوة سيكولوجية مستحدثة ضارة حتى لو لم يكن هناك وجود لهذه الامكانيات فى عنصر العقار وفعله • والموضوع بأكمله يحكى الأثر السيكولوجى ويعطى صورة صادقة لتأثير الأفكار وقوتها المادية • وهو يؤكد بغير شك قوة تأثير العقل على الجسد وخير دليل على ذلك نجده فى تاريخ القهوة والتبغ •

وهنالك سؤال هام ، هو لماذا كان الاستعمال الشعائرى للعقاقير فى الماضى خيرا ولا خطر فيه ؟ والجواب على هذا السؤال هو ان الاستعمال الشعائرى كان يعتبر عملا صالحا وقيما بالنسبة للمجتمع • زد على ذلك ان الشعائر تحيط الممارسة بطابع طقوسى دينى وتجردها من صفاتها الشخصية • وأخيرا فان اللجوء الى المخدرات فى المراسيم الشعائرية هو من أجل استغلال تأثيرها كوسيلة لا كغاية • وهذا هو الفارق الهام بين المدمن الذى يتعاطى العقاقير بهدف تعاطيها لذاتها وبين الآخر الذى يتعاطاها كوسيلة لغاية أسمى• ففى الحالة الأولى هى مفسدة أما فى الحالة الثانية فمهذبة تبعا لسلوك المجتمع والقيم الأخلاقية السائدة فيه • وقد دلت الدراسات المقارنة فى ميدان الخمر على أن بعض المجتمعات القبلية الأفريقية كانت تعتبر تعاطى الخمر فى مناسبات جماعية علامة على التوافق والانسجام الأجتماعى • أما من لا يشتركون فى تعاطيها فهم سيئو الاستجابة لبيئتهم ومجتمعهم •

وفى المجتمعات الأخرى التى تقدس الخمر وتنهى عن تعاطيها الا على أسس دينية ، كان المعاقر فى السر يشكل اكبر مشكلة من مشكلات العلاج • ووجدنا فى تجربة هذا المكتب الاقليمى انه من الضرورة ان نجعل منه معاقرا فى العلن كخطوة أولى قبل أن يصبح العلاج فعالا على الاطلاق • وهذا شرط لا يمكن اغفاله أو التغاضى عنه بحال •

تجارة المخدرات واستهلاكها

ان البدء بتجارة المخدرات يؤدى بالتاجر الى أن يصبح فى النهاية مستهلكا يتعاطاها .

وقد دلت التجربة خلال السنوات القلائل الماضية على أنه ما من بلد لديه حصانة أو مناعة ضد ادمان المخدرات ، رغم احتمال أن مخدرا ما قد لا يوافق ذوق ومزاج الجمهور وينبغى ألا يفسر ذلك على آنه دليل على أن لدى ذلك المجتمع مناعة ضد اغراء المخدرات . وهذه الاراء لها خطورتها اذ انها قد تؤدى الى اغفال اتخاذ الاحتياطات الواجبة . ولتوضيح ذلك ، نذكر ان كون مجتمع ما لا يستسيغ الحشيش مثلا فهذا لا يعنى أن موقف المجتمع من مخدر جديد سيكون هو نفس موقفه ازاء الحشيش . ففى حادث معين نرى ان دخول الهيروين ، كعنصر من عناصر التجارة ، قد أدى – فى حالة تجار الحشيش الذين لم يمارسوا قط تعاطيه كمخدر – أدى الى ادمان للهيروين خطير . وهذا أمر هام للغاية ويشكل خطرا حقيقيا يواجه البلدان المتجرة بالمخدرات . والناحية الاخرى هى أن الجهود القومية المبذولة لمكافحة ادمان المخدرات فى أى قطر ينبغى ألا تكون قاصرة على المشكلات الفورية الكائنة فحسب بل ينبغى ان تشمل مشاكل الادمان بمختلف مواردها وأنواعهاء اذ أن ماهو محتمل الحدوث الآن من ادمان قد يصبح يوما ما حقيقة واقعة . وفى الواقع ان القانون الخاص بالأفيون صدر فى بريطانيا لأغراض دولية بينما لم تكن هناك أية مشكلة قومية بشأنه وقت صدور القانون .

المهدئات والمنومــــات

أن الخطوات الواسعة التى خطاها العلم فى ميدان الكيمياء زادت من عدد العقاقير وأنواعها زيادة سريعة مما جعل الطبيب يجد نفسه متخلفا تماما عن مستوى الموقف . والاكثر من ذلك جدية هو أن بعض هذه العقاقير لم تختبر اختبارا كافيا ولم تجرب بيولوجيا ، كما لم يقدر مدى تراكم آثارها فى المدى الطويل . وكانت نتيجة ذلك ان تظهر لها مضاعفات خطيرة من وقت لآخر . وهذا ينطبق بنوع خاص على ميدان المهدئات . زد على ذلك ، وهو ما له أهمية خاصة بالنسبة

للمستشفيات ، أن الطبيب الذى يفحص عددا كبيرا من المترددين على العيادة الخارجية قد يجد انه من الصعب عليه ان يتصرف كما ينبغى فى حالة بعينها ، وذلك بسبب ضيق الوقت ، فيجد ألا مفر من اللجوء الى هذه العقاقير لما لها من تأثير مهدئ ٠ وذلك بالاضافة الى أن الجمهور يقع بانتظام فريسة لمبالغات الاعلان ـ وهذا أمر تنظر اليه شركات العقاقير على أنه من أهم الاساليب للترويج لمنتجاتها ولا تجد غضاضة فى ممارسته باعتباره لا يتعارض مع آداب مهنتها ـ لدرجة انه نتيجة للدعايات الضخمة قد اصبحت لدى المريض افكار متسلطة اساسها اعلانات الصحف ٠ واليوم يصر كثير من المرضى على تعاطى عقار معين دون غيره ٠ وفى ميدان الممارسة الخاصة قد يخضع الطبيب لرأى مرضاه فى هذا الشأن ٠

واحقاقا للحق ، ينبغى أن نؤكد ان هذه المهدئات أدت خدمات جليلة كما فى حالة الممراضين (الهيبوكوندرياكس) الذين توجد لهم نصوص تاريخية فى هذا المضمار منذ العصور الأولى ٠ وبعض فئات المرضى الواهمين الذين تتركز شكواهم فى الجهاز الهضمى أو الجهاز التناسلى ـ هؤلاء اصبحوا ظاهرة من الظواهر التراثية ٠ فان تغيير العقار الذى يتعاطونه بانتظام حسن فعاليتهم الاجتماعية وحافظ على قدرتهم العلمية لفترات طويلة ، لأول مرة ٠ والحياة العاملة النسبية لبعض هذه المهدئات ، فى الاقليم ، لا تتعدى فترة عام واحد قبل أن تظهر تركيبة أخرى فى السوق وتحل محلها ٠ والمؤسسات المنتجة للعقاقير قد ادركت سر هذه الظاهرة وأصبحت على علم تام بهذه الحاجة السيكولوجية ولذا فهى تمونها ببراعة ، وكان هذا بردا وسلاما على قلوب الممراضين ٠ وقد مكنهم من بلوغ التوازن العاطفى عن طريق المعالجة الدورية ٠ ولا يمكن الافراط فى تقدير اهمية هذا الامر فى مجتمع ملئ بالممراضين ٠

وكانت المهدئات مفيدة فى استقرار كثير من المرضى المزمنين الميئوس من شفائهم بالمستشفيات ، وكذلك فى تكيفهم مع المجتمع ٠ ومكنت لعدد كبير منهم وسائل العلاج خارج الجدران ٠ ومن ثم قللت نفقات العلاج بشكل ملحوظ ٠ وكان

هذا واضحا بنوع خاص فى الحالات ذات الطابع العدوانى أو حالات الهياج التى ينطوى علاج مرضاها بالمنازل على قدر كبير من التضحية وبعض الخطر • وقد أمكن اعادة بعض من هؤلاء الى حالة من الاستقرار الاجتماعي وجعلهم يرعون شؤونهم بأنفسهم • وبالتالى اسهمت العقاقير فى تقليل الجهد والتوتر فى العائلة والمجتمع،مما أدى الى تحسن مرضى فى النظرة العامة نحو الامراض العقلية والعطف عليها • ولا بد من أن نوضح جهارة ودون خشية أن استعمال المهدئات قديم عريق فى القدم • فمثلا ليس معروفا على نطاق واسع أن ابن سينا الطبيب الاسلامى الفارسى العظيم (القرن العاشر) كان أول من تحدث وأشار الى استعمال عود الحية (ويستخرج منه السرباسيل) والى منافعه الجليلة فى حالات الاعراض العقلية الحادة • ومنذ عهد قريب حلل الدكتور برنس فى نيجيريا بذورا يستعملها السحرة فى شفاء المرضى بعقولهم وأسفر التحليل عن انها عقار من فصيلة المهدئات •

أما أساءة استعمال المهدئات فأساسها التعاطى العشوائى• وحتى عندما يحسن استعمالها فأن كثيرا من الاطباء لا يعلمون ان العقار ينبغى استعماله لفترات طويلة قبل أن يؤتى نتائجه المثمرة وعلى الأخص فى الحالات المزمنه • ويبدو أن أحسن النتائج هى تلك التى يحصل عليها فى حالات التوتر ، والتهيج ، والاضطراب ، والسلوك العدوانى بغض النظر عن اسبابها ومصدرها • وعلى ذلك يجب ان يكون وصف العلاج تبعا للاعراض لا تبعا للمعايير التشخيصية • أما ادمان العقاقير المهدئة فليس شائعا الا أن أى رأى فى صدده قابل للنقاش ومفتوح للجدل نظرا لاختلاف الآراء بشأن هذه العقاقير واتساع رقعة هذا الخلاف • ولا شك أن الموضوع ينطوى عى صعوبة دفينة ، اذ ان مفهوم الادمان بأكمله مبنى على المعايير الاجتماعية أكثر منه على المعايير الطبية • وينبغى أن نوضح ما هو ادمان وما ليس بادمان ، بالنسبة للناحية الاجتماعية التى تمثل فى طبيعتها بعض الفوارق الواسعة بين ثقافة وأخرى • بل ان تعريف الادمان فى شكله الحالى لا يبدو مرضيا • فالحشيش مثلا لا يستوفى المعايير الرئيسية التى يتضمنها التعريف •

ولعل تعريف هالبباخ* هو أحسن التعاريف حتى الآن • وهو يتلخص فى أربع نقاط :ـ

١/ اشتهاء أو احتياج قاهر لاستمرار تعاطى العقار والحصول عليه بأيه وسيلة •

٢/ ميل الى زيادة الجرعه المتعاطاه •

٣/ اعتماد نفسانى وجسمانى عام على تأثير العقار •

٤/ تأثير ضار على الفرد والمجتمع •

وينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار ، سوى ذلك ، المفهوم التاريخى والجغرافى والدولى للادمان • ومن الضرورة ان ندخل فى اعتبارنا بعض الحوادث الطارئة التى قد يشملها الادمان • وقد ادت بعض هذه الحوادث الى تغيير فى الحياة وأنماطها جملة وتفصيلا • ولا جدال فى أن ما تحدثه المهدئات من رد فعل سببه الاعتماد عليها ليس شيئا نادرا خاصة بين بعض طبقات المرضى الذين لا يستطيعون الوصول الى تكييف مرض لحالتهم العاطفية دون ان يلجأوا الى العقار أو الى حمى الدين • ومثال ذلك بعض طوائف من المنفوسين (المرضى نفسانيا) ، والنورستينيين،وذوى العلل المزمنه الذين يعانون من دورات القلق والكآبة ، وكذلك الممراضين على نطاق واسع • ففى هذه الامثلة قد تحدث حالة المريض قدرا كبيرا من الاضطراب يؤثر على شخصه وأسرته ومجتمعه ، وخاصة فى حالة المنفوسين الموسومين بالعدوان • وتحت ضغط هذه الظروف ، يرى الكثيرون ان استمرار تعاطى المهدئات له ما يبرره بغض النظر عن الادمان أو عدمه • وعلى اية حال ، فان المصاب بالصرع يعتمد على نوع من العقار له صفة التهدئة والتنويم ربما طوال الفترة الباقية من حياته • الا أن مفهوم الادمان لا يمت بصله لهذه الحالة رغم أن صحة المريض واتزانه يعتمدان الى حد كبير على العقار دون غيره • ومن المصادفات اننا لم نشاهد أى ادمان للمنومات بين المصابين بالصرع أو الخدارى (المصابين بغشوات قصيرة من النوم) الذين سحب منهم العقار •

---

* "الأفيون ، عقار الادمان رقم ١" ، فى الصحة العالمية : مجلة الهيئة الصحية العالمية ، يناير ـ فبراير ١٩٦٢م ، ص٢٢

والشائع ان نجد هؤلاء المرضى تواقين الى ايقاف تعاطى العقار وفى تجاربنا ، عندما يسحب العقار بوسيلة ملائمة ، لم يظهر على المصابين بالصرع أية علامات لاشتهائه ، الا انه يحتمل حدوث اعراض خطيرة اذا لم تقلل جرعات العقار تدريجا بكميات ضئيلة على مدى فترة عام قبل سحبه نهائيا .

وفى هذا الاقليم ، أدت التغيرات السريعة فى نواحى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، أدت الى اضطرابات بالنسبة للصحة والاستقرار الاجتماعى . زد على ذلك أن الاحداث السياسية جنحت الى تنمية حالة من الوعى الذاتى بين الجموع مما أدى بالتالى الى ارتفاع الحساسية وقلة الاحتمال بالنسبة للمؤثرات التى قد تصبح اسبابا للمرض . ونتيجة لذلك فشت الاضطرابات ذات الطابع الاجتماعى والصحى . بل انها ادت الى صعوبات عاطفية وسلوكية مما قد يعوق كفاح المجتمع فى سبيل تحقيق اهدافه التى عقد النية على بلوغها . بيد أنه مما لا شك فيه أن هذه الظواهر فسيولوجية وليست مرضية ومن السهل تفسيرها واقامة البرهان على طبيعتها الفسيولوجية . ونكرر هنا ان التثقيف الصحى فى هذا المجال قد يحقق نجاحا عظيما اذا ما احسن قياده . الا أن الجمهور – فى بعض الحالات – وهو فى غمرة طلبه للخلاص قد يلجأ الى تعاطى المخدرات . وان الاستعمال القانونى للمهدئات أو المنومات خصوصا بين من لديهم الاستعداد الفطرى قد يساعد الكثيرين منهم على التخلص من المرحلة الحرجة العارضة . أما التوترات الركسية (ذات رد الفعل) المصاحبة لهذه الفترات فتتميز بمجموعة من الصفات الخاصة بها ويبدو انها تحيق بالافراد عن طريق زعزعة غريزة القطيع فيهم . ويحتمل ان تفسر طبيعة القطيع أو الجماعة ، بهذه التوترات العارضة ، لماذا أن التثقيف الصحى قدرة على قلب هذه الحالات وشفائها لأن الناحية الجماعية فى التثقيف من أهم عناصره . ولا شك ان بعض المرضى الذين يتسمون بالأنانية وحب الذات من بين طبقات المنفوسين لا يتأثرون بمثل هذا الاضطراب الذى له أصول جماعية ، وذلك لفقدهم لروح الجماعة . وخلال السنوات القلائل الماضية سبب المخضوضون الهلعون الذين

من طبيعتهم ترويج المخاوف طرحا لها من نفوسهم ، سبب هوءلاء كثيرا من الضرر للصحة القومية عن طريق تلفيق هذه التوترات وبوساطة التحذيرات الطائشة المركزة على المهدئات وخطر الادمان الكامن فيها • وأدت تجربتنا الى ان بعض هذه الحالات المزعومة لادمان المنومات كانت نتيجة الياتروجينية (الامراض التى يسببها الطبيب) كما كانت رد فعل نفسانى له تجاوب جسمانى راجع الى ترديد ذلك فى الصحف ووسائل الاعلام العام • وفى هذه الحالات الطارئة التى يشتد فيها القلق الجماعى ينبغى الا نتردد فى استعمال المهدئات عند الاشارة بذلك ، مع الادراك التام لان استعمال هذه العقاقير على نطاق واسع يجب أن ينطوى على اجراءات نوعية للتثقيف الصحى تتمشى منه خطوة فخطوة • وينبغى ان يكون واضحا أن فرص الادمان بعيدة • اذ ان الخوف من الادمان الذى يوءثر على عقلية الجماهير قد يكون عاملا على احداث مظاهر الادمان حتى فى حالة العقاقير غير الضارة • والمريض الذى لديه استعداد فطرى للادمان قد يصبح مدمنا لأى شىء ، ولعله من المستغرب أن بعض الناس يدمنون استنشاق الاثير • ولا غرو فأن الحقيقة فى بعض الاحيان أغرب من الخيال •

كما أن احد اخطار المهدئات بين فئه من المصابين ببعض انواع الكآبة هو التورط فى محاولات للانتحار • الا ان اللوم يقع على المهدئات بل ان الملوم هو سوء استعمالها •

العقاقير المفرحة السيكوتروبية *x*

يتزايد استعمال هذه العقاقير لأنها قد تحل بعض المشكلات الاساسية للحياة الحديثة • واننا نجد أن من اغراض المدينة انها تسهم فى تهيئة الراحة والسعادة وتزيد الرغبة فيهما • وهذا ما تقوم عليه اساسا اغراض العلم والفن فى سبيل تقدم الحياة والنهوض بوسائلها • ومفهوم المدنية يقوم على ان اغراضها تنحصر فى جلب المزيد من السعادة والراحة ، الا ان الادوات الفنية والعلمية للمدنية قد حلت وشاق التطبيقات الفنية بعيدا عن سيطرة الانسان ، وأصبحت تشكل خطرا على

---

x العقاقير التى توءثر على بعض وظائف الدماغ الأساسية

اهدافها . زد على ذلك ، انه تمشيا مع هذا قد غيرت بعض الآثار ذات الطبيعة الديناميكية ، والتى لم تكن متوقعة من قبل غيرت اتجاهات العلاقات الانسانية ولكن الى أسوأ .

وبناء على ذلك ، انتشر القلق وعدم الاستقرار والذعر بين الناس وكان لبعض العقاقير المفرحة تأثير عكسى واضح على المشكلات العاطفية للحياة الحديثة ، وذلك بجلبها الانسجام والاتزان العاطفى الى نفس متعاطيها . وهذا بالضبط هو السر فى الاقبال عليها .

وقد أدى استعمال العقاقير المفرحة الى مشكلات جدية لا تتناسب مع طبيعة مفعولها . ويرجع ذلك الى العامل الانسانى فى الموضوع . فضلا عن أن العوامل الياتروجينية والسلوك العام والسلوك الرسمى خلقت صورة لا مبرر لها للكآبة التى تخالف فى حد ذاتها قواعد الصحة العقلية الايجابية . كما انها قد تطلق زناد تفاعلات ذات مقاييس ذهانية بين المعرضين للاصابة بها . الا ان هؤلاء يستهدفون لعوامل قد تكون تافهة فى طبيعتها . وقد شاهدنا بعض هذه العقاقير توصف بجرعات كبيرة نوعا ويصير تعاطيها لسنوات عديدة دونما مضاعفات خطيرة . وانه لحق ان هذه العقاقير قد تشكل خطرا فى بعض بلدان الاقليم حيث تحل محل المخدرات التقليدية ، بسبب زيادة مفعولها وملاءمتها للعصر . وفى هذا الصدد ، قد تكون الآراء الخاطئة التى يعكسها السلوك العام والسلوك القانونى سببا فى انتاج التفاعلات العرضية التى قد تزرى بمفعول المخدر ذاته . كما أن الاجراءات العنيفة التى فرضت ضد الحشيش فى بعض البلدان ،قد اسفرت عن تفاعلات سيكولوجية ثبت انها أشد خطرا وأبعد أثرا من المخدر نفسه .. وفى بلدان أخرى ، قد يكون الخوف من افتضاح الأمر سببا فى نشوء الاثارة العنيفة والتفاعلات المفزعه ذات الصله الوثيقة بطبيعة الحشيش . وفى تفاعلات البرانويا (جنون الاضطهاد) المصحوبة بالتعاطى المعتاد للعقاقير المفرحة لمدد طويلة ، فان اسهام عوامل البنية فى الشخص لا يقل فى أهميته عن الاثر التراكمى للعقار .

التاليدوميد والمسخ بين الاطفال X

ينبغى ان نفسح مكانا لهذا المهدئ الجديد الذى يعرض فى السوق باسم ديستافال • فقد أدى هذا المهدئ الى آثار خطيرة بين السيدات الحوامل اللائى وصف لهن من اجل ما يحدثه من آثار مهدئة • ومنذ عام ١٩٦١ أشارت التقارير الى ان الثاليدوميد قد يؤدى الى التشوه والمسخ الخطير بين الاطفال اذا ما تعاطته الامهات الحوامل ، وخاصة خلال الاشهر الثلاثه الاولى من الحمل • وقد أدت خطورة الحالة ، والتكرار النسبى لآثارها الضارة ، ان اصبحت حالات التهافت العصابى كثيرة العدد • ولعل هذا يؤدى الى نتائج خطيرة فى موضوع الاجهاض المشروع واباحته • ورغم ان استعمال العقار قد اوقف فى كثير من البلدان فما زال خطر احتمال تداوله ما ثلا ، لبعض الوقت، فى المناطق التى ينم فيها وعى الجمهور أو تمارس فيها مراقبة العقاقير بشئ من التراخى أو عدم الفعالية • ولا شك انه فى بعض البلدان التى لا تتابع بانتظام التطورات الحديثة فى ميدان الطب قد يمضى تعاطى هذا العقار لفترة ما دونما ان يلحظ ذلك أحد • كما ان العدد الكبير من العقاقير التى تظهر فى السوق بمقتضى نظام الترخيص الحالى قد يضع الجنس البشرى فى موقف حرج لا تقل خطورته عن خطورة التساقط الذرى أما تأثير عقار الثاليدوميد على المورثات (الجينات) فغير معروف حتى الآن ، كما انه لا يمكن تقدير ما اذا كان له أثر على مورثات من يتعاطاه من الرجال سواء كان الأثر فوريا أو بعد وقت طويل •

ورغم ازدياد المعرفة ، يوما عن يوم ، بالآثار الجسمانية التى تتركها هذه العقاقير بين الاطفال فلعل آثارها السيكولوجية على هؤلاء الذين ينجون من الآثار الجسمانية ويبلغون من النضج ، لا يمكن اكتشافها أو التنبوء بكنهها • فلعلها تؤدى الى نمط يشبه خرافة دكتور جيكل ومستر هايد • أما العلم فانه يترقب ظهور شخص مثل داروين أو سانت هيلير ، فى هذا القرن ، ويكون له من العبقرية ما يسمح

X انظر الملحق ـ الاشارة التاريخية

بتفسير تجارب الطبيعة هذه وتأويلها وتبيان أصولها بصورة موضوعية يقبلها العقل ويقرها المنطق . وانه لتحد قد يدفع العلم مائة عام الى الامام . وهذه هى وسيلة الطبيعة فى النهوض بالعلم للانتفاع بفضله ومزاياه .

ملحـــــق

استرعت المسوخ انتباه الانسان منذ العصور الاولى . وتبدو انعكاساتها فى القنطروس (حيوان خرافى) لدى اليونان ، وفى آلهة مصر القديمة مثل تحوت (رأس أبى منجل وجسم رجل) ، وخبر (رأس الخنساء) ، وأنوبيس (رأس ابن آوى) . وفى ميدان الفن كانت التجربة التيراتولوجية (الخاصة بنشوء المسوخ وأسباب نشوئها) ممتعة وملهمة . وقد حاول احد الكتاب المشهورين ، من العصور الوسطى ، ان يجد الاسباب الجذرية لهذا الشذوذ فكتب يقول*: "فسرت على انها عرافة (رجم بالغيب) وذكر انها نذر وأمثلة للسخط او تمجيد للعلى القدير . وكانت معتبرة نتائج للبهيمية والاشكال المتحالفة للانحراف الجنسى الذى كان شائعا فى تلك الازمنه" . ويقول "بارى" انه حدث فى عام ١٤٩٣ ، نتيجة لعلاقة جنسية غير مشروعة بين أمرأة وكلب ، أن ولد مخلوق تشبه اطرافه العليا امه بينما تشبه السفلى أباه الكلب . ويذكر "رود يجنس" أن راعيا اتصل بعنزه حملت منه فوضعت حيوانا له رأس يشبه رأس ابيه الا ان اطرافه السفلى كانت اطراف عنزه . وقد كان شبهه بالاب واضحا لدرجة ان التيس الذى برأس قطيع الماعز لاحظه .

---

* من كتاب "غرائب وعجائب الطب" جولد وبايل ، ١٨٩٦

إدمان المخدرات (١)

القنب الهندى (الحشيش)*

" أفى غير مقدورك ان تسر بهذا الايقاع الذى يفيض سرورا ؟
وان تترنح وتذهل وتتحطم فى دوامة هذا السرور الرهيب ؟
" الاشياء كلها تندفع قدما ، انها لا تقف ، انها لا تنظر الى
الوراء ،ما من قوة تستطيع ان توقفها ، انها تندفع قدما ،
" على ايقاع هذه الموسيقى القلقة السريعة ، تأتى الفصول
راقصة ثم تمضى - الالوان والانغام والعطور تتدفق بلا انقطاع
دفاعا بعد دفاع ، منصبة فى خضم هذا السرور الذى فى كل
لحظة يتناثر ويذوى ثم يموت ."

طاغور

فى مقدور الحشيش ان يحدث عددا كبيرا من ظواهر الادراك الحسى العارضة . والحق ان جماع تأثيره فى الجهاز الحسى ، والمزاج ، وعمليات التفكير من امتع مواضيع البحث فى مجال طب الامراض العقلية التجريبى .

والقصد من هذا البحث هو عرض وايضاح بعض المجالى الرئيسية لهذا الاضطراب دون اطناب لا محل له فيما ينشأ عن التغييرات الفردية من قضايا أو مواضيع اخرى أرحب أفقا .

على انه لا يخلو من الفائده ، ان نلم المامة قصيرة - قبل الخوض فى فسيولوجية الجهاز العقلى بعد التسمم بالحشيش - بالجذور التاريخية "والاجتماعية - الثقافية" للمشكلة .

واذا توخينا الدقة - وبقطع النظر عن "آثاره الضارة على الفرد والمجتمع" - لايمكن ان تسمى عادة تعاطى الحشيش من

---

* من تقارير المكتب الاقليمى لشرق البحر الابيض المتوسط
منظمة الصحة العالمية ٣٠ أغسطس ١٩٥٨م
(الاصل بالنجليزية)

الناحية الفنية ادمانا ، اذ انها تخلو من ثلاثة عناصر أساسية لهذا التعريف ، هى انه : ليس له احتمال متزايد ، وليس له اشتهاء خاص ، حتى مع تعاطيه مدة طويلة ، واخيرا ليس له اعراض تظهر على العاكف عليه عند امتناعه عن تعاطيه ، على ان هذه نقطة فنية ثانوية ٠

وما زالت الحاجة ماسة حتى اليوم الى بحث العوامل الجسمانية والعنصرية والثقافية التى تهيىء لادمان المخدرات لأنه بينما تنصرف دول فى الشرق الاوسط الى انتاج المخدرات وتصديرها (دون تعاطيها على الاطلاق) ، اذا بجارات لها تستهدف لادمان المخدرات ٠ كذلك يجب النظر فيما بين الخمر والمخدرات من علاقة ، اذ بينما تنجح الخبرة فى الخارج الى الغموض ، اذا ببعض الباحثين يذهب الى انه تحت القيود التى تفرضها الشريعة الاسلامية ، يحدث ان الحافز الى احتساء المشروبات الكحولية – فى المجتمعات ذات الثقافة المتخلفة على الاقل – كرد فعل لهذا الضغط ، يسهل تحويله الى المخدرات ، اذا سمحت الظروف ٠ وقد كانت تلك خبرتنا فى عيادة ترعى طائفة من يمارسون الملاحة ، ثم ان امكان تحويل الحافز على احتساء المشروبات الى اشتهاء للمخدرات ، هو ايضا حقيقة واقعة فى رأيى بالنظر الى ان الاوهام السيكولوجية القوية تنعكس فى الفولكلور وفى الشعر الصوفى والعلمانى ٠ وعلى ذلك ، فلا عجب ان يعطى الخمر فى كتب اللغة والادب العربية مائة اسم ، والواقع ان كتاب "حليه الكميت" قد جمعها بين دفتيه ١٣٠ أسما ، الامر الذى له – بطبيعة الحال – اهميته ومغزاه من الناحية السيكولوجية ٠

فى ما بين ايدينا من الكتب التى الفت فى القرون العشرة الاخيرة ، اقتصر ذكر الحشيش على الاطباء والعشابين والجغرافيين ، لكن جدير بالذكر ان المؤلف الوحيد الذى لا ينتمى الى الطب وأشار اشارة عابرة الى الحشيش هو المؤرخ ابن أياس ٠

جاء فى كتاب هذا المؤرخ الموسوم "بدائع الزهور فى عجائب الدهور" : ان النيل فى ٩٢٢ هجرية حين عجز عن الفيضان فى الوقت المناسب ، وجه حاكم المدينه نداء الى الاهالى حثهم

فيه على التماس رحمة الله بالصلاة فى المساجد والامتناع عن تعاطى الحشيش والخمر ثلاثه ايام ، فاستجاب الاهالى لندائه ، وفى اليوم الثالث شرع النيل فى الفيضان - وقد القت الدوافع والاغراض السياسية وشبه الدينية على التاريخ المتأخر للحشيش ظلا من الشك وغير قليل من الغموض • وقد بالغ كثيرا فون هامر فى الحديث عن الدور الذى لعبه الحشيش فى سرعة ارتفاع شأن بعض الحركات الدينية المزعومه وسرعة تدهورها •

فى بعض جهات الشرق الاوسط ، بالنظر الى تراث اجتماعى وتاريخى خاص ، اتخذ أهله حيال الحياة موقفا قدريا ، حالة من الاستغراق مصحوبه برغبة ملحة فى التنبيه والاشارة من أى نوع • وفى مثل هذه المجتمعات يبلغ الدافع الى ما يثير الاستخفاف اقصى مداه • هذا والفكرة التى سادت ذات يوم ، ومؤداها ان الحشيش انما يلجأ اليه - بادئ ذى بدء - كناعوط (= باهى - مقولٍلباه) تعكس هذه الحالة أى حالة الكف واللامبالاة •

ان ظاهرة الادمان ، ككل ظاهرة اخرى اجتماعية وسيكولوجية ، لها جذور ثقافية (فولكلورية) وصلات واشجة ينبغى ان يكون الباحث قادرا على التعرف عليها وتمييزها وتقديرها بالنسبة الى العوامل الاخرى • وتوضيحا لذلك ، نسوق المثال الآتى لطرافته : فقد وجدنا - مثلا - فى السودان ، وبين قبائل البدو والرحل خاصة ، ان الطفل الذى يسرق من داره يغلب أن يكون مجرما اكثر مما يصير اليه الطفل الذى يسرق من خارج داره • أن بايولوجية الاضطرابات العقلية (=طبيعة الامراض العقلية واسبابها) لهاتين الحالتين تختلف احداهما عن الاخرى كل الاختلاف • فالسرقة من خارج الدار من رواسب العادات القبلية التى كانت تمجد هذا الصنيع من الناحية الاجتماعية فى الماضى ، ولكن السرقة من الدار كانت فسادا خلقيا •

واخيرا ، لاينبغى ان يغرب عن بالنا ذلك التغيير الذى يوشك ان يطرأ على الاساليب "السيكولوجية - الثقافية" فى مجتمعاتنا تحت وطأة الاساليب الاقتصادية - الاجتماعية

المعاصرة ، وعلينا ان نذكر قول سيجاريست : "ان كل تغيير يطرأ على الاحوال الثقافية ينعكس قرعه بصورة حاسمة على الامراض السائدة اذ ذاك" .

فسيولوجية الجهاز العقلى بعد التسمم بالحشيش ؟

من المرغوب فيه وضع منهج علمى يستخدم فى دراسة متناسقة لموضوع غير متناسق فى جوهره ، وانى لاقترح - لاغراض الشرح والبيان فحسب - الانتفاع ببعض عناوين مألوفة لتدبيج هذا البحث . على انى اعترف بأن مثل هذه الوسيلة - وهى طريقة الوصول بواسطة المذهب الآلى (المذهب الميكانيكى) - فى سداها ولحمتها ، ستفشل فى ابراز العلاقات الحقيقية التى بين القوى (العلاقات الديناميكية) ومختلف الحوادث السيكولوجية التى يطلقها التسمم بالحشيش .

تغيـــيرات المـــزاج

النشوة الوقتية والشعور المتزايد بحسن الحال هما اسبق التغييرات وأدومها ، وهما يتجليان بوضوح بعد التدخين بوقت قصير ، ثم ينزعان الى المزيد من الفضول مع مضى الوقت . وأحيانا بتطورات الى استغراق (= انجذاب او وجد) يكاد ان يضارع الاستغراق الباطنى فى شدته ومداه .

وعندما يشتد الاستغراق ، تميل العبارات والاشارات وأوضاع الجسم والتكلف الى الافراط موغله فى الغرابة والشذوذ وعلاقتها بالمضمون الوجدانى واضحة ، ومن الجلى انها رموز تمثيلية واستعراضات دراماتيكية تعبر عن المزاج والشعور فى التو واللحظة .

وفى اناس آخرين ، تميل الى ان تسود خلال فترات الاستغراق ، تفاعلات تشبه السبات مع - او بدون - جمود عن الحركة والحس أو اصطناع اوضاع جسمانية شتى تحدث منتظمة او متعاقبة مع قلق وحركة مفرطة .

وفى بعض الاحيان ينطلق القلق او الكآبة او الخطيئة او حتى الذعر ، كرد فعل اولى فى اناس عندهم او ليس عندهم اى

شذوذ فى كيان الشخصية بصرف النظر عن اية عوامل تتصل بشدة التسمم ومدته .

عمليـــات التفكـــير

يتزايد اتجاه العقل الى المادية بمعنى ان تدبير الرموز واستخدامها يستبدل بالتفكير المبنى على التصورات الحسية . والحالة الشعورية الراهنة الاخرى تدرك على هيئة تصورات حسية بصرية . انها قد زيدت كما هو واضح زيادة كافية بواسطة عملية تكثيف مماثلة للاحلام .

ومن المتناقضات ، ان بعض الحالات تنجح الى اظهار ميل شاذ نحو تكوين الافكار . ويصبح سلوكهم هذا حتميا ، ويميلون الى استعمال الافكار والرموز عندما يتطلب الموقف نظرة واقعيـــة .

هذه التغييرات فى اتجاه العقل هى اساس الانتاج الفكاهى والابتداع الشائع فيما يتفوه به المدمنون .

اضطرابات الادراك الحســى

الهلاس شائع جدا بعد تدخين الحشيش . وهذه الهذيات تكون فى المراحل المبكرة بسيطة ، ويبدو انها تنشأ على اساس وهمى ونوعها الوجدانى مسل ومطرب فكه الى حد بعيد .

من السهل والعين مغمضة استدعاء الصور التلوية ذات الطبيعه المجسمه المهيئة . انها تكون مجلوة زاهية وقد تكون ايجابية كما قد تكون سلبية ، وفى الاغلب الاعم تكون مغلقة فى اطار من الوان تبهر الانظار . على ان بعض الاشباع تبدو فى صورة رسوم فسيفسائية او شبكية أو اشكال هندسية ذات الوان واصباغ شتى ، تبدى جميع صنوف الحركات ـ حركات الاجزاء وحركات الاشياء كاملة .

اما الهذيانات المعقدة التركيب فليست كثيرة الشيوع . وكثيرا ما تكون محتوياتها مشوشة ولها سمات الاحلام وصفاتها

المميزة • وانها لتتكرر فى حالات قليلة فى صورة مجسمة ، فاذا فعلت ذلك فكثيرا ما يكشف تحليل المحتويات عن انها فى طبيعتها رموز استعلاء ات وتكشيفات لبعض تجارب الحياة العارمة الجارفة • وقد تقع هذيانات ذوقية يقل فيها الفضول كثيرا ، ويحدث احساس مصاحب [1] فى نسبة مئوية صغيرة جدا من الحالات • انها تستدعى بالصوت وبالصوت وحده • وهى بصرية وتأخذ اشكالا مختلفة من نماذج مبداعية ذات الوان زاهية سريعة التغيير • واحيانا يقع الاحساس المصاحب شهوانى أو ذوقى فى طبيعته •

اضطراب الشعور بالزمن

ان تقدير مرور الزمن حق قدره داخل الانسان عملية معقدة غاية التعقيد تنطوى – الى جانب اشياء اخرى – على تطبيق مقاييس من الذاكرة • ثم ان الافكار المجردة عن الماضى أو الحاضر أو المستقبل وتقدير وقوع حادثة قبل او من او عقب حادثة اخرى ، وظيفة اخرى يضطلع بها الادراك الحسى والذاكرة •

ان الاوهام والتخيلات التى تصاحب التسمم بالحشيش شديدة التعقيد وتنطوى على نواحيه الكمية والنوعية • فمرور الزمن قد يدرك ويحس كأنه سريع فى منتهى السرعة وبطىء فى منتهى البطء ، وقد يشعر الشخص كأنما توقف الزمن او ان التجربة لا اول لها ولا آخر • ويصف آخرون اوهاما وتخيلات غريبة عن انعكاس الزمن وارتداده او اقتحامات ايقاع عجلة مسننه تؤثر على مجراه •

---

(١) ترجمت فى قاموس النهضة لاسماعيل مظهر "التنبيه النقلى" ولكننا آثرنا نقل الكلمة كما هى مترجمة عن اليونانية وتعريف المصطلح هو : "احساس ثانوى يصاحب ادراكا حسيا أى الاحساس فى مكان من جراء تنبيه وقع فى مكان آخر – وكذلك الحالة التى تنشأ عن تنبيه فى حاسة تدركها حاسة اخرى مثل احداث الصوت لاحساس بصرى باللون".

وتحدث اضطرابات اكثر تعقيدا فى ذروة التسمم ، فالقدرة على تجريد حادثة من ارتباطاتها وسياقها فى مجرى الامور وتصورها على اعتبار انها وحدة من الحاضر منعزلة بالنسبة للشعور الراهن بالزمن ـ هذه القدرة كثيرا ما تختل وتختبل . ومن ثم فقد اتضح ان هناك عجزا عن جعل الحاضر الذى زج به فى الماضى واقعيا مما يؤدى الى نشوء الشعور "بالرؤية السابقة " .

اضطراب المسافة

تبدو الاشياء والاشكال على غير حقيقتها ، فربما بدت اصغر أو اكبر من حجمها الحقيقى وجرمها الواقعى . وقد تكون دانية جدا وقد تكون ابعد مما هى عليه . ان صفاتها المكانية قد يلحقها الاضطراب . وقد ترى الاشياء العمودية كانها مقوسه . والاشياء الثلاثية الابعاد قد تبدو متحركة . انها قد تتذبذب وقد تبعد عن المراقب وقد تدنو منه .

وقث تبقى الالوان الطبيعية على حالها ، وربما اتخذت الاشياء الوانا شتى .

اختلاق الشخصيات

قد يحدث ان يشوه نسق الجسم . فقد يحدث التخليط بين اليمين والشمال مع ـ او مع عدم ـ القدرة على تحديد مكان اجزاء الجسم او توجيهها .

وفى بعض الاحيان ، قد تبرز اطراف جسمانية وهمية ، فى صورة ايد اضافية او قرون . وقد يكون احيانا معنا رمزيا واضح كل الوضوح او مستخفية هونا ما .

وقد وصفت التخيلات التى تصور فى الوهم رؤوساً تتضخم وتنمو او تصغر وتتضاءل ، وأطرافا قد طالت او قصرت ، وهى كذلك عن الميول والاحوال الداخلية .

الأثر الشهوانى

تنشأ رؤى شهوانية تلقائيا او نادرا استجابة للاحساس

المصاحب وتزداد المقدرة الجنسية فى البدء • ويقوى اضطراب الشعور بالزمن ، من تصور استمرار سورة الشهوة ساعات أو اياما • ثم ان اضطراب الصور الجسمانية قد تنعكس على القضيب فيحس كأنه قد ازداد قطره أو طوله •

الخلاصة

اوردنا فى هذا البحث نبذة عن اوصاف الحشيش وسماته المميزة ووصفنا تأثيره فى عمليات التفكير ، لكن يعالج البحث نظام الاعراض وعلاقتها بالفطرة والمزاج وخاصة التصور الحسى •

إدمـــان المخدرات (٢)

الحشيش

مهبىء رهيب للفردوس الوهمـــى*

أن استعمال الحشيش (الذى يتعاطاه مائتا مليون فى انحاء العالم) قد ازداد ، بقدر محسوس ، منذ الحرب العالمية الثانية ، رغم مضاعفة الاجراءات التى اتخذت على الاخص فى شرق البحر الابيض المتوسط - للقضاء على تجارته ومنع استهلاكه • وهو - بناء على رأى لجنة المخدرات التابعة للامم المتحدة ، واحد من اكثر المواد المخدرة استعمالا فى الوقت الحاضر • وان انتشاره بين شباب بعض البلدان ، وأثره فى تحبيذ الجريمة (كلمة قاتل الاوربية Assassin مشتقة من حشاشين)، واتساع نطاق تجارته غير المشروعة ، تجعل منه خطرا اجتماعيا على اعظم جانب من الاهمية •

وباعتبار الحشيش مشكلة صحية تتسم بالحدة فى مختلف قطاعات شرق البحر الابض المتوسط ، فان المكتب الاقليمى للهيئة الصحية العالمية يضفى عليه اهتماما خاصا ، ويتهيأ ليدرس ، عن كثب ، ما يمت اليه بصلة من المعلومات الخاصة بطب العقول والطب الاجتماعى ، كيما يحسن توجيه معركة بلدان الشرق الادنى فى نضالها ضد هذا الوباء •

ان كاتب هذا المقال يسهم فى الامر بقسط وافر ، اولا ، بوصفه خبيرا من ابرز خبراء الصحة العقلية وادمان المخدرات، وثانيا ، باعتباره مستشارا للصحة العقلية بالمكتب الاقليمى لشرق البحر الابيض المتوسط التابع للهيئة الصحية العالمية • وهو يوضح هنا ما وصلت اليه الآراء بصدد الحشيش ، ويستعرض آثاره النفسانية والحسية والذهنية وغيرها مما يملى على مدمن الحشيش سلوكا مغايرا تماما لسلوك مدمن الافيون أو أى نوع آخر من المخدرات ، الامر الذى تصوره بوضوح تام قصة فارسية قديمة تقول أن ثلاثه رجال قدموا الى اصفهان وكان الوقت ليلا وأبواب المدينة مغلقة وكان احد المسافرين الثلاثه

---

* مقال فى سلسلة مختارات للمكتب الاقليمى لشرق البحر الابيض المتوسط ، منظمة الصحة العالمية • ١٣ اغسطس ١٩٥٩م

يدمن الخمر (وهى ايضا مخدر) ويدمن الثانى الافيون اما الثالث فكان مدمن حشيش ٠ واخذ كل منهم يقترح حلا للاشكال ، فقال مدمن الخمر "فلنحطم الباب" وقال مدمن الافيون "دعونا ننام حتى الغد" اما مدمن الحشيش فقال "فلنمر من ثقب مفتاح القفــل" ٠

"أفى غير مقدورك ان تشارك فى فرحة هذه الايقاع المبهيج؟
وان تترنح وتتحطم وتغنى فى دوامة هذا السرور الرهيب" ٠

رابندرايت طاغــور

"أن تعاطى الحشيش هو احدى العادات الضارة ٠ فهو ، على احسن الفروض يجرد الفرد من القدرة على اصدار حكم صحيح على الاشياء ـ وأسوأ ما فيه انه يدفعه نحو الافراط فى العلاقات الجنسية وخشونة الطبع ، والجريمة ، وأخيرا يوءدى به الى الجنون" ٠

بسكـــور

هذان القولان يظهران بجلاء ازدواج الآراء الخاصة بتعاطى الحشيش من وجهة نظر بعض التقاليد الشرقية العريقة ، ومن ناحية المعاينات الاكلينيكية والمشاهدة الاجتماعية كما هى ٠ ونلاحظ ، كرة واحدة ، ان الآراء المتعارضة ـ على هذا المنوال ـ يمكن ان تنطبق على معاقرة الخمر ٠

ومن الجلى انه لا يمكن ـ فى نطاق هذا المقال المحدود ـ القاء الضوء على جميع نواحى جدل لا يمكن ان يقتصر مجاله على معلومات المختبر الوحيدة الجافة (مهما كانت حاسمة) أو أن يحلق فى سماء الشعر أو التصوف (مهما بدت الاخيلة " حقيقة " فى هذا المضمار) ، أو أن يواجه بالادراك البسيط او السلوك العادى حيث ان ذلك كله لا يهيىء معيارا محددا يمكن الاخذ به فى هذا الصدد ما دام خاضعا للتغير البين تبعا لاختلاف الزمان والمكان والظروف المهيأة ٠

ويمكننا ، على اقل تقدير ، ان نحاول تركيز الجدل تركيزا صحيحا ، دونما تبيان لمداه او تعديل فى متفرعاته

المنطقية ، وبوساطة عرض امين لكنه الآثار النفسانية والحسية والذهنية وغيرها من آثار الحشيش ، كما حسر عنها النقاب طب العقول التجريبى ، ثم بوساطة تعقيد وتنوع ما تنطوى عليه من انطباعات بالنسبة للفرد والمجموع •

ويجب ، بادىء ذى بدء ، الاعتراف بالحقيقة المؤيدة لنظرية ان ادمان الحشيش ظاهرة ذات اهمية ثانوية – وهى نظرية لها معتنقوها حتى فى الاوساط العلمية – وتتلخص فى ان الاعتياد على تعاطى الحشيش لا يمكن – من الناحية الفنية – اعتباره ادماناً على المخدرات اذ ان هذا التعريف يتضمن فى الواقع ثلاثة عناصر لا تتوافر فى حالة تعاطى الحشيش ، فهو ، لا يصاحبه تحمل متزايد ، ولا يثير اشتهاء متسلطا حتى عند الاشخاص الذين يواظبون مدة طويلة على تعاطى هذا المخدر أو ما يماثله ، واخيرا ، فان الكف عن تعاطيه لا يستتبعه اى عرض من اعراض الحرمان •

ورغم اهمية هذه الملاحظة سواء بالنسبة للمشرع او للطبيب فان السطور التالية ستوضح ان تعاطى الحشيش ليس – بأى حال – اقل ضررا من كثير من حالات ادمان المخدرات المقرره – وعلى الاقل من ناحية انتشاره وتوسيع نطاق ذلك الانتشار •

واذا انتقلنا الآن الى وصف آثار التسمم بالحشيش ، سنجد انفسنا حيال الصورة الاكلينيكية التالية :–

بعد التدخين بوقت قصير ينتاب المدخن شعور بالغبطة • ثم يتزايد الشعور بالخفة وحسن الحال حتى يستحيل الى استغراق (انجذاب أو وجد) وفى سياق هذا التحول ينمو الانسجام والايماء ات والمحاكاة ، والسلوك ، نحو التشكل والمبالغة والتشويه ، ومن ثم ، يتزايد ظهورها ، لا كاستجابة لالحاح الحقائق الظاهرة ، بل كرموز تمثيلية واستعراضات دراماتيكية تعبر عن المزاج والشعور الداخلى الوقتى العارض •

ويكون نتيجة هذا التسمم لدى بعض الافراد انجذابا صوفيا (وخاصة عندما يكون هذا هو هدفهم ، وسوف نعود فيما بعد الى هذا المفهوم القصدى ، لما له من اهمية) ، الا اننا نجد

اناسا آخرين يكون شعورهم بالغبطة ورغبتهم فى الانطلاق فى الكلام (الثرثرة) والاثارة الحركية ، تتعاقب مع فترات الكآبة والسبات التى تؤدى احيانا الى التشنج ، وقد يحدث ايضا ، ان تتبدل تماما حالة الوهن هذه ، طوال فترة النشوة ، فتصبح تعاظما واستخفافا (شعورا بالخفة وحسن الحال) • واخيرا ، فان الحشيش قد يتسبب فى اطلاق القلق أو الشعور بالخطيئة او حتى الآثار الاستجابية للذعر ، فى نفوس المصابين بشذوذ فى كيان شخصيتهم سواء بسواء من ذوى المظهر الطبيعى •

وتصاحب مختلف حالات الاستخفاف والكآبة تخيلات هى فى واقع الامر ابرز مظاهر النشوة المعزوة الى الحشيش • وهذه الاطياف الوهمية هى اساس الغبطة التى ينشدها المدخن الذى اذا ما تشوشت احلامه يلتهب سلوكه المأمون العاقبة ، فجأة ، متخطيا كل الحدود ، ويرتكب اعمالا تتسم بالعنف ، وتدل على عمق انطماس المعنويات ، وانعدام التأثرية •

فاذا ما امكن تجنب هذه الاحداث ، ولم يتعد الاستهلاك مقدارا معينا ، فان آثار التسمم تختفى سريعا ويعود المدخن الى حالته الطبيعية • اما اذا كان المقدار ضخما ومتعاطوه ميئوسا من اصلاحهم فاننا غالبا ما نشاهد انهم فى آخر الامر يبدأون ثورة هذيان وهتر تكون ذروتها نوبة مسهبة من الخبل الغاضب ، مما يترك المصاب فى حالة ارهاق تام تنتهى بالموت ، احيانا •

فاذا ما انتقلنا الآن من الاعراض الخارجية للتسمم بالحشيش الى دراسة فسيولوجيته النفسية البحته (وهو احد موضوعات البحث الشيقة فى ميدان الطب العقلى التجريبى) لوجدنا تغيرات ذات مميزات بارزة فى تطور سير الذاكرة والشعور • ونحن نقتصر هنا على ذكر بعض هذه الشواهد الشاذة المأخوذة من بين اكثرها نموذجية أو فردية •

التخيلات

وهى شائعة جدا تحت تأثير الحشيش • وتكون على صورة اخص ، عنيفة واضحة تغلفها الوان زاهية تبهر الابصار وهى فى الغالب مسلية وينجم عنها نتائج فكهه تدل على ذهن متوقد •

وهى عادة ما تكون عارضة مشوشة تحمل سمات الاحلام وصفاتها المميزة ، وفى عدد قليل من الحالات ، يتكرر حدوثها فى هيئة مجسمة ، وحينئذ ، ينجح تحليل فحواها الى كشف ما فى طبيعتها من تركيز وتفخيم ورمز لبعض تجاريب الحياة العارمة .

وفى مراحل أخرى من مراحل التسمم بالحشيش ، قد تظهر فى هيئة أشكال هندسية بسيطة من نقوش عربية وفسيفساء أو نماذج مبداعية ذات ألوان زاهية سرعان ما تتغير .

تهيــوءات غريبة

أن أوهام الشعور بالزمن التى تعتبر من آثار الحشيش موجبه للاهتمام بنوع خاص فهى توءكد النسق الذى تتضمنه والذى تشوش آثار المخدر نظامه تماما .

ومرور الزمن قد يدرك بالحس كأنه سريع غاية السرعة او بطىء بطئا ملحوظا أو لا وجود له على الاطلاق . ويصف بعض المدمنين أوهاما وتخيلات غريبة عن انعكاس الزمن . واحيانا لا يكون فى مقدور مدخن الحشيش ، وهو فى ذروة التخدير ، أن يجرد حادثا من مغزاه ويتصوره على انه ذو ذاتية منعزلة ومن ثم يرد أحداث الحاضر الى الماضى مع الشعور "بالروءية السابقة " .

كما يلحق الاضطراب الاوصاف المكانية ، وتبدو الاشياء والاشكال اكبر أو اصغر من طبيعتها ، وقد تبدو قريبة جدا أو أبعد مما هى عليه . وتزداد تشويها ويرى المستقيم منها كأنه مقوس ، والثابت كأنه متحرك .

الآثــار الشهوانيــة

يتخيل البعض انهم ذوو سلوك شاذ . ويعتقدون انهم مزودون بأطراف أو زوائد على هيئة ايد أو قرون . ويزعم آخرون أن روءسهم تتضخم أو تتضاءل وأن سيقانهم أو أذرعهم ازدادت طولا .

وقد يحدث ازدياد فى الاستثارة الجنسية لدى بعض مدخنى الحشيش عن بدء التخدير بيد أن هذه الظاهرة ذاتية أكثر منها موضوعية . ويقوى اضطراب الشعور بالزمن تصور استمرار سورة الشهوة ساعات أو اياما . وقد يوءثر اضطراب الصور الجسمانية

على عضو التذكير مما يشعر بأن حجمه قد ازداد من حيث قطر أو طوله • وسواء اكان الاعتقاد فى الاثر الشهوانى للحشيش حقيقة أو وهما ، فأنه واسع الانتشار ، ويعتبر كثير م المدخنين انه احدى مميزات المخدر التى تضفى عليه اغرا وسحرا •

إدمـــان المخدرات (٣)

القـــات

(كاثا أيدوليس فورسكـــال)

دراســة تمهيديـــة *

القـات وقهوة البن صنوان تربطهما وشائج مشتركة فى التـاريخ والـواقع ، لا من حيث مطابقة وذاتية طبيعة التراث الجغرافى والطبوغرافى الذى يجمع بينهما فحسب ، بل أبعد من ذلك ، ولعله أهم ، من حيث سمة واتجاه الاحداث الاجتماعية والاقتصادية التى تسير جنبا الى جنب ، والتى يمكن مقارنتها عن كثب والتى اتسم بها ظهورهما معا ، وكذلك فى تعاقب هذه الاحداث وفى انعكاساتها الواسعة النطاق فيما عدا ذلك ٠

وأكثر ما يقال عن القات ينطبق على قهوة البن ٠ وفضلا عن ذلك فان قصة القهوة كما هى ثابتة تاريخيا ، وكما فسرت بالفعل فى ضوء تأثيرها على الميدان الاجتماعى والحقل الاقتصادى ، واخيرا على المجال الافسح للسياسة والدين ، قد تهيئ من بعض النواحى ، بل من كثير منها فى الواقع ، استعادة قصة القات ٠

ومن ثم قد لا يكون من الحكمة المجازفة بتناول مسألة القات (تاريخيا أو فنيا) دونما سعى الى التماس العون من بعض الشواهد الاخبارية والتفسيرات الممكن استخلاصها من سلسلة الاحداث التاريخية فيما يتعلق بقهوة البن ٠

فكلا النبتين موطنه الاصلى اثيوبيا والشاطئ الشرقى لافريقيا ٠ وكل منهما نشأ وعاصر الاخر فى نفس البيئة الجغرافية والطبوغرافية ٠ فعلى ارتفاعات معينة تزرع شجيرات البن لتقى من تقلبات الاحوال الجوية غير المواتية ، وفى اماكن اخرى تجتث شجيرات البن لكى تفسح المجال لنمو مزيد من القات نظرا لقيمته الاقتصادية الافضل ٠ اما فيما يتعلق

---

* من تقارير المكتب الاقليمى لشرق البحر الابيض المتوسط ، منظمة الصحة العالمية ٥ أغسطس ١٩٦١ (الاصل بالانجليزية)

بطريقة استعمالهما الشائعة ، فقد كان البن يمضغ فى اول الامر ثم استعمل فيما بعد كمشروب ، بينما بدأ استخدام القات كمشروب قبل ان تصبح عادة مضغه هى السائدة دوما • وأخيرا فان مادة الكافيين تفضى الى تدعيم وزيادة مفعول القات •

وتلا ذلك ، زراعة كلا النبتين فى مرتفعات اليمن • وهناك من الدلائل ما يفيد بأن ادخال القات واستنباته كان سابقا على البن •

وان تشابه المعالم بينهما يذهب الى اعمق وأبعد من ذلك فالاسماء الساريه التى تطلق على النبتين ، أى "القهوة" و "القات" يرجع اشتقاقهما الى اسم الموطن الذى نشأ فيه والمعروف بأسم "كافا" من اعمال اثيوبيا حيث ازدهر ، زد على ذلك ان هذا الاشتقاق ينطبق على اللفظ العربى "قهوة" ، كما ان القات فى لهجة الجالا قد اشتهر بأسم "قوفا" وهو على ما يبدو الاصل الذى ترجع اليه الكلمة العربية "كفته" التى كانت تطلق على اوراق القات •

ونجد فى الوثائق التاريخية ان كلمة القات كانت تطلق للدلاله على الشجرة وأوراقها على السواء بينما يبدو ان لفظة "كفته" كانت تقتصر على الاشارة الى الاوراق فحسب ، وعند ذكر الاوراق الجافة نجد ان كلمة "كفته" كانت اكثر شيوعا بين الكتاب الذين اشتهروا بمراعاة الدقة فى الوصف • وفيما تلا من العصور ، نجد ان لفظة "كفته" اصبحت اقل انطباقا على مفهوم القات عموما وأكثر انطباقا فى دلالته على الاوراق الجافة وخاصة المشروب الذى يصنع من غلى الاوراق • وبذا تحدد مفهوم هذا اللفظ • وأخيرا ، فان كلا من التسميتين "شاى العرب" و "قهوة القاتية" اصبحا مترادفين للتعبير عن المشروب الذى يعد من غلى اوراق القات • وفى هذا الصدد ، يوجد من الادلة التاريخية ما يؤيد بقوة ان القات عند تعاطيه كمشروب (يحضر من غلى الاوراق) كما كان استعماله سائدا فى اول الامر ، كانت آثاره قطعا اخف وطأة من تلك الناشئة عن مضغ اوراقه • وخلا هذا فانه ليس من الممكن الجزم

بما اذا كانت هنالك فوارق نوعية فى مجال اثره • وقد ذهب "ديرليو" الى ان استعمال القات كمشروب كان اكثر شيوعا فى داخلية البلاد ، وقد ادى عجزه عن النطق السليم للتعبير العربي "القهوة القاتية" الى ان يعبر عنها فى كتابه ب "كالمات الكاتيات" • وقد كان هذا المشروب القاتى شائع الاستعمال قبل ان تنتشر شجيرات القات فى المرتفعات الداخلية وعندما كانت القوافل تنقل القات فى طريقها الى داخل البلاد كانت اوراقه تتعرض لعوامل الجفاف الامر الذى دعا الى ضرورة استحلابه بغلى اوراقه كطريقة لا بد منها لاستخراج عناصره الفعالة • ولربما ترتب على جفاف الاوراق وغليها تلف جزئى أو كلى لبعض عناصره الفعالة •

ونجد ان اول اشارة تاريخية الى القات قد وردت فى الموسوعه الضخمة المسماة "مسالك الابصار" لابن فضل الله العمرى (١٣٠١–١٣٤٨م) الذى نشر المجلد الاول منها عام ١٩٢٠ • وفى سياق سرده لقصة الحروب التى وقعت بين الملك صبر الدين ملك "اوفات" ، والملك الاثيوبى "امدا صيون" الذى حكم من عام ١٣١٢ الى عام ١٣٤٤ ميلادية ، يصف العمرى كيف ان صبر الدين فى غمرة انتصاره قطع على نفسه عهدا ، والزهو والتفاخر يملآن جوانبه ، بأن يهدم "مرعدى" مقر الملك امدا صيون حتى يسويها بالارض ويجعل منها مزرعة للقات • وتوجد القصة السابقة بالتفصيل مع بعض الملاحظات العابرة عن القات فى كتاب "فتوح الحبشة" لمؤلفه شهاب الدين احمد بن عبدالقادر الجيزانى المكنى بفقيه العرب • وقد عاش فى القرن السادس عشر الميلادى •

وخلال البحث والتنقيب والدراسات التى اجراها هذا المكتب فيما يتعلق ببعض النصوص التاريخية ذات الصلة بالموضوع اتضح ان هنالك اشارة الى القات اكثر اهمية وأسبق مما عرف الى الآن توجد فى مخطوط فريد من "كتاب الاقرباذين" (العقاقير المركبة) نسخ فى عام ٦٣٥ هجرية (١٢٣٧ ميلادية) كما هو مبين فى خاتمته • وفى هذا الكتاب اورد المؤلف نجيب الدين السمرقندى (المتوفى عام ١٢٣٠ ميلادية) اول ذكر للقات

حتى الآن ، فى وصفه طبية تحدث الانعاش والنشوة والفرح ، يقول المؤلف انها مفيدة فى علاج الملانخولية وحالات الكآبة . وتوجد على هامش الكتاب بجانب النص حاشية من الواضح ان كاتبها شخص سواه ، وجاء بها ان القات شجيرة تنبت فى كلوى (بشرق افريقيا) ، وفى اليمن تعرف باسم الكفته . بيد انه تنبغى الاشارة الى نسخة خطية اخرى من هذا الكتاب نفسه كتبت فى القيروان بوساطة طبيب فى عام ١٦٨٠ ميلادية ، وجاءت خلوا تماما من هذه الملاحظة الهامة الخاصة بالقات .

ولما كان النص فى النسخة الاصلية قد حقق ووثق (تمت مقابلته) بوساطة الناسخ ، كما كان مألوفا فى جميع الكتب الهامة ، وحيث انه ليس هناك من دليل واضح على ان النص فى النسخة الاصلية قد تناوله دس أو زيف فان الباحث ليميل الى اعتبار ان النص المشار اليه فى نسخة القيروان ربما كان محرفا . وفى واقع الامر ، يوجد بهذه النسخة بعض التحريف الجوهرى فى الاستطرادات التى حذفت بغية الاختصار خاصة وكانت تتصل بسياق الوصف الذى اورده المؤلف فيما يتعلق بالعقاقير المنستجلبة لا المستوطنة فى شمالى افريقيا .

ويقول المقريزى (١٣٦٤-١٤٤٢ ميلادية) فى كتاب "الالمام فيمن بالحبشة من ملوك الاسلام" فى صدد ذكره لاوفات من ارض الزيلع ان بها شجرة يقال لها "جات" لاثمر لها . ويؤكل ورقها ، وهى تشبه النارنج . وهى تزيد فى الذكاء ، وتذكر المنسيات وتفرح ، وتقلل النوم . ولأهل تلك البلاد فى أكل هذه الشجرة رغبة كبيرة لا سيما اهل العلم .

وابن بطوطه الرحالة الطنجى الذائع الصيت من بلاد المغرب الذى عاش فى القرن الرابع عشر ، بعد رحيله عن مكه بعد آدائه لفريضة الحج عام (١٣٣٠ ميلادية) وبعد تجواله فى انحاء اخرى من الساحل الشرقى لافريقيا ، وجنوبى بلاد العرب ، والخليج من بلاد فارس ، وصف فى رحلته ما رآه خلال اقامته فى ظفار (جنوبى بلاد العرب) وفى مقديشيو (الصومال) . جاء فى ذلك ان عادة مضغ التانبول (وهى اوراق نبات متسلق يعلك مع جوز الفوفل مع جزء من تراب النورة) كانت سائدة بين جميع

طبقات الشعب الذين اعتادوا العكوف على ممارسته . واستطرد يقول انه كان من المصطلح عليه اعتبار تقديم اوراق التانبول للزوار من تقاليد الحفاوة بالضيف وتكريمه . وزاد على ان هذا كان ظاهرا بوضوح فى قواعد "الاتيكيت" المرعية فى بلاط الملوك حيث يقدم لذوى الشأن من الزوار بعض من هذه الاوراق لمضغها عنوانا لمكانتهم . وفى رحلته التالية الى الهند اسهب فى الكلام عن عادة مضغ التانبول (المعروف محليا باسم بان) المتبعة هناك .

بيد انه يبدو ان الرحالة العظيم قد اختلط عليه الامر تماما بالنسبة للقات والتانبول . فان ما ورد وصفه فى جنوبى بلاد العرب وفى مقديشيو كان بغير شك لا ينطبق على التانبول بل ينطبق فى واقع الامر على القات . ودليلنا على ذلك انه ذكر من بين خصائص هذه الاوراق ادخال البهجة على النفس الامر الذى لا يمت الى التانبول بصله .

زد على ذلك ان التانبول ، لم يكن موطنه اطلاقا شرقي افريقيا او جنوبى بلاد العرب ومما لا شك فيه ان ادخال زراعته جاء فى وقت متأخر كثيرا عن ذلك . كما ان مكانته التى احتلها فى المنطقة كانت قاصرة على قيمته النباتية دون اية صفة شعائرية او اجتماعية مهما كان نوعها ، بخلاف الحال فى موطنه الاصلى بالهند وسيلان . وقد ذكر فتزجرالد كما ذكر بيرس بعض معلومات عن التانبول فى كتابيهما "رحلات فى افريقيا الشرقية البريطانية ، زنزبار" (١٨٩٨) و "زنزبار" (١٩٢٠) على التوالى .

وكان البيرونى الخوارزمى النشأة (٩٧٣-١٠٤٨ ميلادية) ذا معرفة بالهند لا تبارى، وقد وصف التانبول فى كتابه عن الهند بأن القات قابض للثة وواق من تلف الاسنان كما انه يساعد على الهضم لتأثيره المفيد للمعدة . ولم يرد ذكر لأى مفعول له فى ادخال البهجة الى النفس . ومن بين اعمال البيرونى التى خلفها كتاب عن الصيدلة (الصيدنه كما سماها) يقف دليلا على لوذعيته وتعمقه فى العلم .

ونجد هذا الالتباس يكتنف الآراء بشأن القات والتانبول

بشكل اكثر وضوحا فى مخطوط فريد مدبج مزدان بالصور الملونه للنبات جميل الشرح فى حوزة مكتبة بلدية الاسكندرية ثبت انه جزء من الكتاب الضخم "مسالك الابصار" للعمرى الذى سبقت الاشارة اليه • نجد تحت عنوان التانبول يقول المؤلف "انه يرتقى فى الشجر وما ينصب له وهو مما يزدرع ازدراعا باطراف بلاد العرب من نواحى عمان • وطعم ورقه طعم القرنفل ورائحته طيبة الناس يمضغون ورقه فينتفعون به فى افواههم فيطيب النكهة ويزيل الرطوبة المؤذية ويحدث فى النفس طربا وأريحية ويقوى البدن واللثة والاسنان والمعدة وخاصة تقوية الفم وقوته قابضة مجففة فلذلك يمنع من النزف ••• واذا اكل ورقه وشرب بعده الماء طيب النفس وأذهب الوحشة ومازج العقل قليلا وأهل الهند يستعملونه بدل الخمر يأخذونه بعد الطعام فنفرح نفوسهم وتذهب احزانهم • ولاحظ ان اولئك المستهدفين لعوامل السأم والضجر ، والمعرضين لنوبات فقدان المزاج ، يجدون فى هذه الاوراق لا مخلصا من هذه المشاعر فحسب بل ايضا احساسا ايجابيا بالغبطة والهناء • وتجدر الاشارة الى ان مثل هذه الموجه الدافقة من النشوة والسرور والروحنه قد بعثت الفكرة القائلة بأن السعادة البشرية تنبثق من الفطرة وترجع الى القيم الذاتية فى داخلية النفس دونما صلة بالقيم الخارجية (كالثراء مثلا) كما ادى كذلك الى الرأى القائل بان الجنة حال وليست مقاما (مكانا) • وهذه الفكرة الاخيرة ليست جديدة اذ انها احد المفاهيم التى وضعها زرادشت واعتنقها اتباعه •

اما عبدالقادر الجزائرى (١٥٥٩ ميلادية) مؤلف "عمدة الصفوة فى شرب القهوة" وهو أقدم وأشهر ما كتب عن تاريخ قهوة البن ، فقد ذهب الى ان الفضل فى دخول وتخليد قهوة البن كمشروب فى عدن يرجع الى رائدها ومحبذها شهاب الدين الذبحانى (المتوفى عام ١٤٧٠ ميلادية) • وهو داعية ومتصوف وصاحب كرامات عظيم • وبوصفه هذا كان له نفوذ بالغ على الناس ، وفى غمار ولائه لقهوة البن كان معينا على وضع تقليد احتذاه معاصروه بتقوى وورع •

وهناك ناسك آخر ذو صيت رنان ، واتباع عديدين ، اصبح تعلقه بشرب قهوة البن مضرب المثل ، هو على بن عمر الشاذلى (١٤٤٢ ميلادية) المتصوف اليمنى المشهور الذى مات فى هرر . وتبعا للاخبار المأثورة فان الشاذلى لم يكن له الفضل فى انتشار قهوة البن فحسب ، بل ايضا فى احلالها محل القات . وينبغى ان نوضح فى هذا المقام ان القهوة كانت ولا زالت تجهز من قشر البن لا من حبوبه . ويصدق هذا القول على اليمن وبعض انحاء بلاد العرب وأثيوبيا . ويطلق على هذا المشروب اسم "القهوة القشرية" وهى حلوة المذاق مقبولة الطعم وتأثيرها المنشط يفوق تأثير قهوة الحب . كما انها تفضل القهوة العادية فى كثير من النواحى . وقد خلد اليوم اسم الشاذلى بوصفه حامى حمى قهوة البن . وللدلالة على بطولته ، يطلق على القهوة اسم "الشاذلى ابو الحسن" فى بعض البلدان ، ومنها السودان .

وان صفات الطرب والنشاط والتنبيه التى تكمن فى القات جعلت منه آداة مثالية للمتصوفين والباحثين كما ان الاحساس بالطرب ، وما يشيعه فى النفس من نشاط فتحا الطريق لتجربة الاستغراق والوجد وهما الوسيلة والغاية فى سلوك الطريق عند الصوفية .

وان اوجه الشبه الغريبة بين التجربة التى تميز فعل العقاقير المخدرة من ناحية ، ومميزات المشاهدة فى التجربة الصوفية من الناحية الاخرى ، والعلاقات الوظيفية المشتركة بينهما ، لأمر بالغ الاهمية ، ونستطيع ان نضرب امثلة عديدة فى هذا الصدد لما يحدث فى مجال ما يحصل تحت أثر المسكال (عقار يستعمله الهنود الحمر فى مناسبات طقوسية) والقنب الهندى (الحشيش) لتفسير ذلك . فقد درس اخيرا فى البرازيل وبعض انحاء امريكا الجنوبية ، الاستعمال الشعائرى لبعض انواع عيش الغراب الذى ينجم عنه تشكيلات هلاسية ملونة . وانه لمن العجيب ان الدوس هكسلى فى كتابه "ابواب الادراك الحسى" وصف تجربته الشخصية تحت تأثير المسكال الذى تناوله على سبيل التجربة بانها "حالة من حالات التجلى والوجد فى اعلى ذروتها"

ويعيد القات نفس القصة ويحكيها فنشوة الطرب التى يحدثها هى بمثابة الانطلاقة الى الاجواء الصوفية حيث تمتزج تجارب العقل والنقل تمام الامتزاج • ومن ثم يصبح القات مصدرا للقيم الجمالية والخلقية ، وذا الهام ومضمون صوفى بالغ لدى بعضهم •

ولا عجب اذن ان راجت الاساطير تحكى عن وجود قوة ازلية وراء اكتشاف القات • وكيف ان هذه الغاية قد تحققت بهذا الاكتشاف • وكانت هذه القصص وغيرها هى هدف وبوءرة اهتمام الرحالة خلال القرون الاخيرة الماضية • ومن بين هوءلاء كان "برتون" الذى لا يتطرق الشك الى سعة اطلاعه وتضلعه فى العلم ، وقد كان له ميل واتجاه يجذبانه الى كل ما هو غريب معجب شاذ الاطوار من الاخبار • فلم يكن يرى سوى ما هو غريب الشكل بل انه كان يراه بجلاء ووضوح • وكان يدق طبوله وينفخ فى ابواقه كلما اشتم رائحة خبر شاذ • كما ان تآليفه التى امتازت بجمال الاسلوب وسحر العبارة كانت نتيجة لتوقد حسه الذى ينبثق من "انف من الشمع امكنه ان يوجه ارنبته حيث شاء" • بيد انه يجب الا يغرب عن بالنا ان هذه الاساطير ذاعت فى عصر كان الناس فيه يرون الروءى والمشاهدات الغيبية فيما يجرى وراء الحس ، وكانت جميع ظواهر الطبيعة والعقل البشرى تتجسد لديهم وتتجلى فى روءى قدسية •

وقد افرد موءلف "رحلة الى بلاد العرب السعيدة" (١٧٣٢ ميلادية) فصلا كاملا عن تاريخ قهوة البن وقد اعتمد فى ذلك على ترجمة جالاند لكتاب "عمدة الصفوة فى شرب القهوة" مع بعض تعليقات قيمة لآخرين • وفى هذه الرسالة ، اشاد جالاند بان احدى فضائل قهوة البن "انها توءهل الرجال للدخول فى وثاق المجتمع وفى تبادل المعرفة من اى شئ آخر" • وهذه اول ولعلها ايضا اهم اشارة الى الاثر الذى مهد السبيل اليه قيام تلك الموءسسة الجديدة بفضل انتشار هذا المشروب والى ما ادى اليه تجاوبها من احداث لا فى الميدان الاجتماعى والاقتصادى فحسب بل ايضا فى الميدان السياسى ، وأهمية ذلك فيما يتعلق بالقات سوف تفسر فيما بعد •

ولعله من المهم ان نذكر ان بدء ظهور "المقاهى" فى عواصم المدن كالقاهرة ، ومكة ،ودمشق ، واستنبول ، ادى الى بعض الاحداث الهامة فى الميادين السياسية والاجتماعية والدينية ، وهذه المقاهى من حيث هى ، كانت بمثابة نوادا اجتماعية تجرى فيها الاحاديث والمناقشات السياسية والاجتماعية . وكانت نتيجة ذلك ان انبثق منها تدريجيا الرأى العام والوعى السياسى . واتخذا بالتدريج شكلا واضحا معينا ، وقد ادى ذلك فى آخر الامر الى تغيرات خطيرة فى وجه ومعالم الادراك السياسى . وقد شكلت هذه الاحداث المنذورة بالسوء تهديدا حقيقيا للهيئات الحاكمة التى كان تصرفها حيالها هو اللجوء الى الاساليب العنيفة من القهر واتباع الاجراءات القاسية بغية وأدها فى المهد . ولا شك ان الحكام فى موقفهم الدقيق للقضاء على هذه الحركة قد استعانوا بفتاوى دينية . زيفوها كأداة استخدمت لفرض عقوبات ضد قهوة البن . وكان لرجال الدين والفقهاء فى هذا العصر دور ايجابى فى تحبيذ تلك الاجراءات ايثارا للعافية .

وقد ذكر العالم التركى كاتب شلبى ، المكنى حاجى خليفه (توفى عام ١٦٥٧ ميلادية) فى كتابه "ميزان الحقيقة" بعض البيانات العابرة والوصف الواقعى للاحتمالات الدينية والاجتماعية التى انطوى عليها انتشار المقاهى فى تركيا . الا انه يمكن العثور على كثير من الانباء الخاصة بهذا الموضوع من كتاب "الكواكب السائره بأعيان المائة العاشرة" للشيخ نجم الدين الغزى المتوفى سنة ١٠٦١ ميلادية ، وهو معجم موسوعى يضم تراجم جهابذة القرن العاشر الهجرى . وقد وصف المؤلف كيف كان يعامل اصحاب المقاهى وروادها . فقد كانت تفرض عليهم عقوبات صارمة (منها تجريسهم بتعليق العظام ونحوها على اعناقهم واطافتهم فى الاسواق والشوارع بتلك الهيئة ونحوها مما يقتضى كسر النفس) ، وقد تصادر املاكهم ، وقد يحكم عليهم بالاعدام احيانا . ويذكر "لين" ان المدخنين الذين يضبطون متلبسين فى المقاهى كانوا يجبرون على اكل غليون التدخين المصنوع من الطين وابتلاع محتوياته المتقدة

• وقد وصف مؤلف "الكواكب السائرة" كيف ان الشاذلى ، حامى حمى قهوة البن اثناء حالة تجرده الصوفى وتقشفه فى الجبال الموحشة عثر على حبوب البن ، وكيف انه اثناء تنسكه استعملها كمادة غذائية ، وكيف ان ذلك ادى به الى اكتشاف آثارها المنبهة المنشطة •

وغالبا ، وبدرجات متفاوتة ، قد يخلق النفوذ التاريخى والثقافى اتجاهات قومية تميز الطبع والمزاج القومى تفصح عن نفسها فى نماذج ظاهرة • فمثلا ، اوضح الدكتور "كلوت" ان الافيون كان اكثر ملاءمة لطبيعة وميل الحكام الاتراك ولتكوينهم الشخصى فى عصره منه لطبيعة الشعب المصرى عامة • وأضاف ان الحشيش اكثر ملاءمة للعقلية المصريه اللماحه الذكية الالمعية ولفضولهم وسعة خيالهم الطبيعى ، كما يبدو ايضا ان روح الفكاهة الغريزية المتأصلة فى نفوسهم زد على ذلك ما اشتهروا به من ميل الى الخيال ، والى كل ما هو عجيب ومستغرب بالاضافة الى الروح القدرية التى تسيطر عليهم نتيجة للصراع التاريخى المرير الذى طال مداه ، قد تكون فى واقع الامر من بين العوامل المهيئة لذلك •

وثمة اشارة هامة الى القات وردت فى رسالة قصيرة كتبها فى عام ١٨٩٩ ميلادية محمد قناوى وهو من رجال الدين بالازهر ، وموضوعها عن مضار قهوة البن ، والتبغ والافيون • وقد تناول المؤلف تاريخ قهوة البن بتوسع كبير مع الاشارة بنوع خاص الى دخولها مصر والى ما اثاره ذلك من مشكلات دينية خاصة • وقد اشار الى بعض المراجع التى استقى منها اخباره وتحويها قائمة مليئة •

وقد ذكر نزيه العظم ، وهو رحالة وأديب من دمشق فى كتابه "رحلة الى بلاد العرب السعيدة" نشر فى عام ١٩٣٦ ، وصفا مسليا لحفل قات شهده • قال انه عند قدومه فى عصر باكر ذات يوم ، كان عامل الناحية مع صفوة القوم من الموظفين وذوى الجاه جالسين على ارض غطتها البسط فى غرفة فسيحه اغلقت نوافذها لكى يحجب عنهم الضوء والصوت ، وعندما دخل لم يستطع الرؤية بادىء ذى بدء فقاده احدهم الى رب الدار

وكانوا يدخنون التبغ من نارجيلة تدار عليهم بينما كانوا عاكفين على مضغ القات • فقدموا اليه بعضا من اوراقه وطلبوا اليه مشاركتهم • فبدأ يمضغ الاوراق • وحكى ان طعمها كان غريبا لم يذقه من قبل ، ولم يشعر بشيء غير عادى نتيجة لهذه التجربة الاولى •

وذكر انه بعد مضغ الاوراق يبصق الثقل رغم ان بعض الناس يبتلعونه • وفى هذا الصدد فانه من الهام جدا ان نقول اننا لاحظنا ان هؤلاء الذين يبصقونه فى العادة ولا يبتلعونه يحدث لهم نفس تأثير القات كالاستغراق الخ ••• وقد يشير ذلك الى ان العنصر الفعال فى القات ، مهما كانت طبيعته ، يمكن بسهولة امتصاصه عن طريق الغشاء المخاطى للفم وهذه ناحية جديرة بالاهتمام •

وتصويرا لما كان للقات من مكانة رفيعة فى نفوس الناس، ذكر المؤلف نزيه العظم ان قطاع الطرق والعيارين الذين دأبوا على اعتراض القوافل ونهبها ، ابان الحكم العثمانى ، لم يتعرضوا قط لأحمال القات التى كانت تنقلها القوافل • بل كانوا يسمحون لها بسلامة المرور وبساط احمر • وهذا فى اعتقادهم عمل يتصل بتقاليد مهنتهم •

وقد ذكر الاب انستاس مارى الكرملى من دير القديس الياس ، وهو رجل دين عراقى وعالم لغوى ، فى تعليقاته بحواشى كتاب "بلوغ المرام" لحسين بن احمد العرشى اليمنى ، الذى نشر فى عام ١٩٣٩ ، بعض ملاحظات هامة عن مختلف انواع القات وغيرها من ملاحظات متنوعة •

كما ذكر سبنسر تريمنجهام في احد كتبه اشارات عديدة علق فيها على ما جاء فى بعض المصادر الاساسية فى هذا الموضوع • وقد توسع فى الاشارة الى الاستعمال الجماعى للقات، وعلى الاخص فى المناسبات والاحتفالات الاجتماعية والدينية • كما اشار الى ما قرره بريكتى من اهمية الاساطير المتواترة التى تؤكد المكانة الرفيعة التى اسبغت على القات قديما •

ومنذ وقت قريب ، وصف كاتب مشهور كيف ان لشبح من اشباح السحر اسما وذاتية ، وكيف أن له اعتبارا فى وظيفته كحام

للقات ومتناوليه • وقد جرت العادة على ان يستدعى هذا الشبح لعون النساء عند تعسر الوضع ، وعندئذ يتقمص وسيطا بشريا ويحل فيه ، فيصبح الوسيط آداة له • فيبدأ بمضغ اوراق القات ، وعندما يتم ذلك يبصق محتويات فمه على الاعضاء التناسلية للمرأة وهى فى حالة المخاض • ويقول الكاتب ان هذا ـ تبعا لمعتقداتهم ـ كان بمثابة سوط نارى يلهب ظهر الروح المشرفة على عملية الوضع •

وفى شرح تاريخه عام ٩٨١ هجرية للاميات ابن الوردى كتبه موءلف مجهول ، تبعا لما كان شائعا من العرف الدينى فى ذلك العصر ، قال الشارح فى ذم القات ما قاله مالك فى الخمر ، وأدرجه فى قائمة المحرمات كالخمر والحشيش والافيون • ووصف ١٢٠ شرا يصيب الروح والعقل والبدن وعزاها الى استعمال هذه العقاقير • وقد اوردنا ذلك للدلاله على ان مثل هذه الموءلفات قد تكون بالغة الضرر بالنسبة للصحة العقلية بأثارتها للمخاوف والشعور بالخطيئة والاثم مما قد يكون سببا فى نشوء آثار استجابية قد تلحق ضررا سيكولوجيا بالنفس •

وفى الرسالة المعروفة ب "تحذير الثقات عن اكل الكفته والقات" وتضم ثمانية آلاف كلمة ، (ونشرت فى كتاب الفتاوى الكبرى) ، نجد ان الموءلف ابن حجر الهيثمى ، وهو عالم دينى وفقيه ضليع من المدرسة الاستقرائية (توفى عام ١٥٦٧ ميلادية) ، فى محاولة لايضاح مركز القات من الناحية الطبية الشرعية ، وقد أسهم اسهاما ماديا ، ابلغ اثرا فى منهجه منه فيما توصل اليه من احكام والوثائق التى استشهد بها بهمة ونشاط كانت تمثل احسن وأوفى ما كتب فى عصره ، وما وصل اليه ، من جملتها بعض رسائل شخصية وصلته من صنعاء وزبيد فى اليمن •

وقال الموءلف انه كان ينشد دونما طائل أى خبر متواتر عن هذا الموضوع الا انه لم يتمكن حتى من العثور على اشارة عابرة فى موءلفات عصره • وكذلك لم يعثر على شىء فى المعاجم وكتب اللغة المطولة التى توصل اليها ، بل لم يكن هناك تلميح الى أى شىء مثله بالاسم • "وأننى لأعتقد اعتقادا راسخا بأن هذا فى جملته وتفصيله عائد الى ان القات عرف وتقرر

استعماله فى عصرنا ، والموضوع طريف وليست له سوابق تاريخية يمكن الارتكان عليها • ومن ثم ، فان عدم وجود الوسائل التاريخية يدفعنا الى اللجوء الى طرق الاجتهاد" ، وقال "اننى سألت بعض اهل الخبرة ممن اتيحت لى الفرصة لاستشارتهم فقالوا ان ادامة استعمال القات تؤدى فى النهاية الى ان يورث مضارا منها تصفير الوجه وتقليل الطعام وتفتير الباه وادامة نزول الوذى عقب البول فقلت ما مستندك فى ذلك قال اخبار المستعملين • وقال انه استعمله ، لما رحل الى زبيد وتعز ، نحو ثلاثين سنه فلم يجد له ضررا يوجه لا فى رطبه ولا فى يابسه ، بل وجد منه نشاطا وطيب خاطر لا ينشأ عنه ضرر بل ربما كان منه نشأة ومعونه" •

وقال فقيه آخر من مكة انه فى بداية تجرده الصوفى فرض على نفسه نظاما صارما دقيقا فى الزهد والتنسك ، وحاول تدعيمه اكثر بتعاطى القات على زعم ان القات سيمكنه من التخلص من الرغبة فى الطعام والشهوة الجنسية • واستعمل لهذا الغرض كثيرا من الاوراق الجافة طوال فترة تجرده • وفى ضوء تجربته الخاصة ، تأكد تماما من ان القات لا يؤدى الى ضرر أو أذى • كما انه لا يحدث تخديرا ولا غيبة عقل أو يفضى الى اضطراب الفكر • ومن ناحية اخرى قال احد فقهاء الحنفية "قابلت يوما بعض متصوفة اليمن فنصحنى واعطانى قليلا منه (القات) وقال لى تبرك بأكل هذا فانه مبارك يبارك فأكلت منه فوجدت فيه تخديرا • وأدركت منه التخدير ودوران الرأس ، ولا أعود لاكله ابدا" •

وتروى القصة التالية حالة اخرى لها اهميتها الخاصة من الناحية السيكولوجية ، حدثت لفقيه ينتمى الى المذهب الشافعى ، روى انه كان يتعاطى القات لسنوات عدة دون ان يصاب بمكروه فى عقله أو بدنه • بل على العكس من ذلك كان يشعر انه كان شافيا ناجحا مفيدا لصحته • بيد انه ، نتيجة لما انتابه من وساوس ادت به الى التشكك فى اباحته وتحليل تعاطيه من وجهة نظر الدين ، بدأ يعانى من حالة من الكآبة خيمت عليه مشفوعه بالمخاوف والقلق مما دفع به آخر الامر الى

ان يقلع عن العادة وينبذها . وهذه الحالة توضح بجلاء تام كيف تؤثر العوامل السيكولوجية على الوظائف العضوية ، وكيف ان العقيدة قد تؤثر على مضمون الشعائر .

وفى حالة اخرى ، ذكرها المؤلف ، قال راويها انه كان فى بادىء امره يشعر بالسعادة والرضى عن النفس نتيجة لمضغ اوراق القات ، وكانت هذه الحالة تستمر لديه فترة تقرب من ساعتين . الا انه كان يعقبها دوما انفعال ملحوظ يتحول خلاله الى عكس ما كان عليه من قبل ، فيصبح شرسا سىء الخلق عازفا عن الناس بشكل عجيب لعدة ساعات . وهذه الحالة الاخيرة كان يصاحبها ايضا نوع من الخمول والعجز بحس بفداحة اى جهد عقلى او جسمانى مهما كان طفيفا . واستمر يقول ان هذا بالاضافة الى الارق ، وفقدان الشهية ، وخروج المذى جعل منه احدى التجارب الوبيلة عليه . وقد ثبت للمؤلف من بعض حالات قليلة ان العقار ادى الى حالة تتسم بفقدان الشعور وتغطية العقل (الغيبوبة) .

وفى ختام سرده لهذه الحوادث ، رأى المؤلف ان هنالك من الادلة الكافية المستخلصة من هذه الحالات ما يؤيد النظرية القائلة بان تباين واختلاف هذه الاعراض فى متعاطى القات لا يمكن تفسيرها الا على اساس الاستعداد الذاتى لا على اساس يرتبط بفعل العقار وفسيولوجيته . ولفت الانظار الى انه على الرغم من ذلك فأن القات عندما يؤخذ على خلاء (فى حالات الجوع) قد تنجم عنه بعض الاعراض المزعجة اكثر مما لو كان تعاطيه بعد وجبة دسمة . وأبدى رأيه فى ان حالة النشاط الواضحة التى يطلقها القات ليست صادقة أو أصيلة انما هى زيف وأوهام . وهى فى سداها ولحمتها تعبير مصاحب لظاهرة الانتعاش التى تتصل به اتصالا وثيقا .

وزد على ذلك ان الطرب والروحنة قد لا يكونان من صفات القات نفسه ،بل هما جزء لا يتجزأ من المظهر العاطفى للعادة فى انطلاقها وفى وصولها الى غاياتها لأن العادة طبيعة ثانية .

وفى مجال بحثة لتوثيق آرائه فى مجال القات ، ذهب الى بحث الادمان فى حالات الافيون والحشيش ، فوصف كيف ان بعض

العقاقير ، فى حدود آثارها الفسيولوجية الواضحة قد تكون بديلا لغيرها بشكل مرض • وذكر كيف ان ابن سينا قد اشار الى ان العقار المعروف باسم "السنبل" يمكن ان يكون بديلا يقوم مقام الحشيش اذا ما كان تعاطيه بالقدر الملائم ، بيد انه حذر من ان الافراط فى تعاطيه قد يسبب ضررا بليغا للرئتين •

وتوضح هذه الرسالة كثيرا من النقاط الهامة •

اولا : كون ان جميع من ادلوا بشهاداتهم وكانوا ينتمون لطائفة ذات رأى دينى مقرر ، قد اجمعوا على وصف نمط يكاد يتفق من جميع وجوهه ، وان هذا ليوضح اهمية العوامل السيكولوجية ويفسر كيف ان العقيدة فى مظهرها العاطفى ، قد تؤثر فى طبيعة واتجاه الانفعالات الجسمانية بتعديلها أو قلب اتجاهاتها •

والقصة التى اشار اليها من ان احدهم قد انقلب فعل القات وأثره عليه عندما انتابته الوساوس والمخاوف التى نشأت من تشككه فى اباحته ، تبين ما ذهبنا اليه من أثر العقيدة على التجربة •

وفى دراستنا للقطاعات الاجتماعية المنحدرة الوظيفة وما لها من اثر على بعض ظواهر الاعراض الهامة فى ميدان الحشيش والخمر ، امكننا الوصول الى ان سببية بعض الاعراض التى تؤثر على الكفاية قد تكون فى جوهرها ومضمونها وظيفة للمنحدر الاجتماعى كما تعبر عنه القيم المستمدة من القانون والعرف ، وطبيعة ذاتية الفرد فى محيط الجماعة أو جماع الحكم على القيم الاخلاقى بنوع شامل • وبمعنى آخر ، أن سببية هذه الاعراض لا تمت بصلة الى أى اثر فسيولوجى ينشأ من طبيعة العقار نفسه •

ومضمون هذا من الناحية النظرية غير محدود المعالم • وهذا يعنى ، على سبيل المثال ، اننا اذا قطعنا جازمين بان القات عقار مخدر فان هذا الحكم ، من حيث هو ، سيضفى على استعمال القات قوة سيكولوجية يكمن وراءها الخطر دون ان يكون فى اصله وطبيعته ما يؤدى الى ذلك • ويجب اعتبار ذلك تحذيرا موجها لنا معشر الاطباء بأن اتخاذ آراء جازمة قاطعة

فى مثل هذا الامر الحيوى قبل الحصول على ادلة وشواهد معتمدة امر جد خطير • وقد قرر المؤلف نفسه فى البداية ان معرفة الامور وتقديرها هى الخطوة الاولى التى تسبق النتائج الحكمية • وقال احد الكتاب "اننا اذا كان موقفنا من الامور ينحصر فى تحقير ما يحقره العامه ، فليكن نهجنا نهج الهجائين • وغرضنا غرض ذوى الغفلة والحمق" • وهذا تعبير مجازى عن الخطر الكامن الذى ينطوى عليه افتقارنا الى موهبة النقد الذاتـــــى •

والنقطة الثانية ذات الاهمية التى اشارها المؤلف هى ان القات اذا اخذ على خلاء قد يسبب اعراضا مكدرة سرعان ما تزول • وهذا حق اثبتته تجربتنا • فالقات ، فى الواقع قلما يؤخذ فى غير مصاحبة وجبة غنية بالسكريات والدسم • وهؤلاء الذين يتعاطونه بمفرده لماما يعانون من رتل من الاعراض تعزى الى نقص جلوكوز الدم (هيبوجليكيميا) • ويذهب البعض الى ان للقات تأثيرا وقائيا ضد مرض السكر ، وهناك فكرة شائعة ليس فى وسعنا توكيدها أو نفيها وهى ان مرض السكر ليس بالشائع بين من يتعاطون القات • وما هذه سوى فكرة عرضت ينقصها التمحيص •

وهناك ما يؤيد تمام التأييد ان القات يقلل الشهية للطعام • بيد انه يتضح من تجربتنا ان التأثير المبدئى للقات فاتح للشهية لفترة قصيرة ثم يتلو ذلك بدء العزوف عن الطعام ، كما هو الحال فى مجال الجنس • وفى هذا الشأن ، يبدو ان القات ، مثل الحشيش ، ذو أثر مبدئى عارض يتبعه اثر عكسى لازم بالنسبة لشهية الطعام • وانه لمن الصعب ربط هذا بالتغيرات التى تطرأ على مدى تركيز سكر الدم أو على افرازات الغدد الصماء بوجه عام • ويبدو ايضا ، كما سبقت الاشارة اليه ، ان قهوة البن والتبغ بل والشاى بوصفها منبهات للجهاز العصبى المركزى يبدو انها تضاعف ، مجتمعة كانت أو منفردة من تأثير القات • والشائع ان يؤخذ القات مصحوبا بقهوة البن او التبغ وكما انه فى حالات عديدة لوحظ ان العطش قد يصاحب القات عند بلوغ مفعوله ذروة قواه • وفى العادة يتناول العاكفون عليه كميات كبيرة من السوائل ،

ويبدو ان هذا قد يضاعف مفعول القات • ويمكن ملاحظة ظاهرة العطش هذه وكثرة الشراب تحت تأثير الامفيتامين (بنزدرين) • وفى كلتا الحالتين قد يكون هذا نتيجة لبعض التغيرات التى تطرأ على توازن السوائل داخل الجسم • ويصف بعض العاكفين على استعماله مرحلة مبدئية يحدث فيها احتقان الجلد واحمراره مع احساس بالحرارة فى جميع اجزاء الجسم • وهذا فى تجربتنا اثر استجابى اشبه بالاثر الذى يطرأ من استعمال الحامض النيكوتينى •

ومنذ قديم الى يومنا هذا ، عرف ان للقات حاجزا يصد التنبيه اى ان هنالك فترة كمون (مدة حضانة) تسبق الاستجابة لاثره تختلف من اسبوعين الى سته اسابيع قبل ان يصبح مفعوله ظاهرا ، وواضحا يحس به العاكف عليه • وهذا يخالف تجربة الافيون والحشيش ، واثرهما السيكولوجى الوقتى العاجل دون ابطاء • وفى هذا الشأن ، نجد قهوة البن ، والشاى ، والتبغ تبدى نفس الكمون الذى هو احدى الوظائف المترتبة على خصائص العقار • ولزيادة الايضاح يمكن القول ، على سبيل المثال ، بأن الافيون اذا ما اعطى لشخص لأول مرة ، فانه يحدث فيه نفس الآثار الفسيولوجية المميزة ، مثل الاخدار (فقدان الاحساس بالالم) ، والتنويم ، الخ ••• ومن ناحية اخرى فان ممارسة مضغ القات للمرة الاولى لا تنتج فى البداية اثرا ما ، اذ ان التأثير يظهر بعد فترة كمون من الواضح ان يحدث خلالها اضطراد لا شعورى يصل فى النهاية الى درجة الحس والادراك •

وتوضح فترة الكمون هذه بعض الفوارق الجوهرية بين القات وبعض العقاقير الجالبة للادمان مثل الأفيون • وفوق ذلك فان القات لا يحدث اى اعراض خطيرة تظهر على العاكف عليه عند امتناعه عن تعاطيه ، حتى ولو كان هذا الامتناع كاملا وفجائيا •

وبعد فترة الكمون ، تظهر اول مرحلة لمفعوله على متعاطيه فى شكل مجموعة من الاعراض تنحصر فى الاستخفاف (الشعور بالخفة وحسن الحال) ، واليقظة (المصحوبة بالارق) ، وزيادة عوامل التحريض والاثارة والطموح ، وجميع هذه النتائج

ترتبط ارتباطا عضويا لا انفصام له ، اذ ان معالمها تتحدد وتتعدد نتيجة لعملية تنشيط المخ ٠

وأول معالجة علمية للقات جرت فى الغرب ، بدأها عالم النبات الدنمركى م٠ فورسكال ٠ ووسع نطاقها فيما بعد كارستن نيبوهر ٠ فى كتابه المسمى "وصف بلاد العرب" الذى كان أول ظهوره بالالمانية فى عام ١٧٧٤ ميلادية ٠ ويؤكد نيبوهر ان شجرة القات (القاد) قد انتقلت زراعتها الى اليمن من اثيوبيا ٠ وفى الترجمة الانجليزية التى قام بها هيرون (١٧٩٢ ميلادية) جاء ان "العرب معتادون على مضغ براعم هذه الشجرة التى كانوا يسمونها القاد ٠ وهم فى ادمانهم لهذه العادة يشبهون الهنود فى ادمانهم للتانبول ٠ ويعزون الى "القاد" فضل تسهيل الهضم وتقوية البنية ضد الامراض المعدية ٠ بيد انه عديم المذاق ولذا فانه لا يوحى باطوائه على فعل شفائى غير عادى ، والتأثير الوحيد الذى شعرنا به نتيجة تعاطى هذا العقار هو ان النوم قد جفانا وعز علينا ٠"

وقد اشار سير رتشارد بيرتون فى كتابه "الخطوات الاولى فى شرق افريقيا" (١٨٤٤ ميلادية) عدة اشارات هامة استقاها من كتب سابقة معروفة ومن كتب "دى ساسى" الذى نقل بدوره قدرا كبيرا من الكتاب العربى "عمدة الصفوة فى شرب القهوة" ونقل ايضا عن دربلو الذى اشار الى إن استعمال القات فى شكل مشروب مستحلب كان اكثر شيوعا بين الناس فى داخلية اليمن ٠ وفى رأيه ان مفعول هذا المشروب يشبه مفعول الشاى الاخضر الثقيل ٠ وهذا هو السبب فى اطلاق اسم "شاى العرب" على القات ٠

وانه لمن المهم ان نشير اشارة عابرة الى ان الشاى كان معروفا فى منطقة الخليج الفارسى قبل قهوة البن بوقت طويل ، حيث ان اول اشارة الى الشاى خارج حدود بلاد الصين وردت فى كتاب وضعه اثنان من البحارة من صيرف هما سليمان التاجر وأبو زيد الصيرفى ، اللذان قاما برحلة الى الصين فى عام ٩٥٠ ميلادية ٠

ولعله من الاوفى ان نذكر هنا انه يمكن الاعتقاد بان

اوراق القات الموجودة فى الوقت الحاضر تختلف من حيث النوع عما كانت عليه فيما مضى بسبب ما اعتراها من عمليات الاختيار والتهجين ، فاذا ما اسلمنا بصحة ذلك فلربما كان له اثره فى تكييف عوامله الفسيولوجية ٠ ويقول الاسحاقى المؤرخ ان التبغ اول ما ادخل الى مصر فى اوائل القرن السادس عشر ، كانت له آثار قوية بشكل ملحوظ ، الامر الذى قضت عليه عمليات الاختيار والتهجين والتوليف (المزج) التى خضع لها على مر السنين ٠ وقد حدث نفس الشئ عند دخول قهوة البن الى مصر فى اول الامر ٠ ويبدو اننا نتناول مادة خضعت لعملية تطور زكتها عملية انتخاب طبيعى ٠ ولعله من اهم الامور ان نذكر ان التبغ وقهوة البن بدآ ظهورهما فى مصر بين شيوخ الازهر وطلابه ، ثم تفشت بينهم عادة تعاطيهما ٠ وقد دخل التبغ مع الطلبة القادمين من شمالى افريقيا (بلاد المغرب) ، اما القات فكان اول ظهوره فى رواق اليمن ٠ وان الاثر المنبه لقهوة البن ومفعولها المطرب اللطيف ، وصفتها المذهبة للوسن ، كانت بمثابة توفيق من الله اسبغه على روح التفانى فى العلم ، التى كانت شائعة بين الطلاب والباحثين فى ذلك العصر ٠

وننتقل الى عوامل الاستعداد النفسى ، فنجد ان بعض المجتمعات تميل اكثر من غيرها الى الادمان ٠ وهذا عامل لا يمكن حسمه على اساس عوامل الاستعداد السيكولوجى أو العوامل البيولوجية وحدها ، فهناك بالقطع عوامل X تاريخية وجغرافية واجتماعية واقتصادية وثقافية ، حيث ان الاستهداف للادمان لا يمكن تفسيره على اساس وحيد بل على كوكبة من العوامل العديدة مجتمعة ٠ فالفينيقيون مثلا ، الذين اشتهروا بالجرأة والاقدام ، كانوا روادا للملاحة فى فجر التاريخ واتخذوا التجارة سبيلا لهم فحذقوها ونبغوا فى ميدانها ، ولا يصح عقلا منطقا ان يكون موقفهم من الحشيش موقف المستهلك له ، بل موقف المتجر فيه والمروج له ٠ وهذه حقيقة تاريخية توضح طبيعة الاستعداد للادمان التى تنبثق من العادة والميول والتجارب وطبيعة النشاط وفلسفة الحياة المميزة لمختلف الشعوب ٠

X اصبحت الناحية الدولية هامة للغاية

وان عملية التغير الاجتماعى والاقتصادى التى غيرت وجه المجتمع فى هذا القرن ، مقرونة بتغير العادات والنظم القيمية التى تشكل فى العادة الاساس المكين فى اكتساب الاذواق ، قد اتت بعوامل جديدة واحتياجات جديدة • وفوق ذلك، فان التطورات التى حدثت فى الكيمياء التحليلية والتركيبات المختبرية كانت هامة فى انتاج انواع جديدة من العقاقير ، وهى اكثر بروزا على الاخص من الناحية المختبرية التى تتناول المستحضرات الكيمائية والتى ادت الى بعض المشكلات الجديدة فى ميدان الادمان • ومن الواضح ان مجتمعا ما فى اخذه بسبيل التطور يكون اكثر انعطافا الى استعمال بعض انواع العقاقير التى تؤدى الى انتاج اشياء جديدة تواكب المستوى الجديد للتطورات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية • ويجب ان تنبهنا هذه النقطة وتكون لنا نذيرا حيث ان المشاهد فى بعض البلدان ان انواعا معينة من العقاقير المحضرة كيمائيا قد تحل تماما محل الحاجة الى العقاقير التقليدية كالحشيش مثلا • ومن ثم ، فانه ينبغى الا تركز الجهود على المشكلة فى حالتها الراهنة فحسب بل ايضا على مصيرها فى مستقبل الايام •

وقد تكلم زويمر فى كتابه "بلاد العرب مهد الاسلام" عما اسماه "ثقافة القات" • وان الفكرة الثابتة التى ينطوى عليها مضغ القات فيما يتعلق بالمجتمع ، يجب ات تعتبر جزءا لا يتجزأ من مجموعة المؤسسات فى اخذها للاشياء فى ظواهرها الجموعية لا فى فرديتها المنعزلة • وعادة تعاطى القات ، كمؤسسة حية ، تربطها صلات مباشرة بالحقائق الاكلوجية (البيئية) والتاريخية والثقافية وبعلاقاتها المتبادلة ، بوصفها عللا ومعلومات يؤثر كل منها على الآخر • ويزداد نمو الادراك الاجتماعى بان لجميع المؤسسات وحدة اساسية دينامكية فى طبيعتها • وهذا يهيىء الزعم سلفا بانه يستحيل القضاء على اية مؤسسة دونما تناولها لا من حيث معالمها المحدودة بل فى نطاقها العام للعلاقات مع غيرها من المؤسسات ، سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية الخ••• وفى الوقت الحاضر ، يبدو ان الناحية الاقتصادية لا

الصحية هى التى تظهر فى الافق واسعة النطاق بالنسبة للقات بوصفه اهم مشكلة مباشرة فى البلدان المستهلكة له • وفى المجلة الجغرافية (الجمعية الجغرافية الملكية ، بلندن) ، المجلد ١٢٤ ، جزء ١ ، مارس ١٩٦٠ ، تناول كلارك بروك ناحيتى انتاج وتجارة القات وذكر بعض الحقائق فيما يتعلق بتكاليف استيراد القات فى احد البلدان المستهلكة له ، والتى تقرب من نصف مليون جنيه سنويا ، وهذا موقف جد خطير ، والحق يقال• وبالمثل جاء فى تقرير عن "علوم الشرق الاوسط" (١٩٤٦) انه "من المؤكد ان جزءا عظيما من تجارة الركن الجنوبى الغربى لشبه جزيرة العرب يعتمد اساسا على القات • ولما كان القات اكثر المحاصيل الزراعية انتاجا سواء فى التجارة الدولية وفى التصدير ، فان مدير الزراعة فى ••• وجدان جهوده لاغراء الزراع بانبات مزيد من المحاصيل الزراعية تذهب هباء وان كل حقل جديد يروى ويصبح صالحا للزراعة يزرع قاتا • ولما كان القات من النباتات المعمرة (غير الموسمية) فانه يشغل الارض لسنوات عديدة على اقل تقدير ، مسببا خسارة كبيرة فى انتاج الطعام الذى تمس الحاجة اليه بشكل خطير فى ذلك البلد • وتمضغ اوراق القات النضرة التى تشبه الاسفانج (السبانخ) ، ويكون اثر مضغها عظيما اذا ما تخلله شرب الشاى •

ونعترف هنا ان معالجة النواحى الاقتصادية الفنية البحته للقات لا تدخل فى نطاق اختصاصنا ، بيد انه اقرب الى غرضنا ان تظهر النواحى الصحية للعبء الاقتصادى للقات من حيث اثقاله لكاهل متعاطيه وأثره على عائلته وكذلك على المستوى القومى بشكل عام •

وان ما يسببه القات من ضياع لساعات عديدة تخصم من وقت الحياة العملية للأمة أمر له شأن خطير • اذ انه يشكل عجزا ذا بال فى اية عملية للتطوير الاقتصادى فى مجال الزراعة او الصناعة حيث تعتمد عملية التطوير على دليل الانتاج الفردى •

وللقات فى وقتنا المعاصر ناحية اقتصادية هامة بالاضافة الى اهميته الاجتماعية والثقافية المتأصلة العميقة الجذور فى حياة المجتمع المتعلق بعادة تعاطيه • وهو كمؤسسة اذا

ما سمحنا لأنفسنا باستعمال هذا التعبير ، فان القات وظيفة جماعية لها قيمها النابعة من النفس والجديرة بالتقدير ٠ وقد كان ولا يزال عاملا حفازا فى جمع افراد المجتمع على الصداقة والود ٠ وهو ذو أثر ايجابى في توسيع نطاق روح التعاون وشعور الجماعة كما يحبط ويصد اظهار السلوك العدائى او اللا اجتماعى ، وتتسم اجتماعات القات على العموم بطابع مميز بالمآدب الودية الحافلة بالعلاقات الأنيسة ٠ والجريمة لا أثر لها مع القات بعكس الامر بالنسبة للخمر والحشيش حيث قد يحثان على ظهور نوازع المشاغبة والانحرافات النفسية ٠ ومن ناحية اخرى يختلف مع الافيون حيث يعتاد العاكف عليه الاعراض عن الآخرين لكى يجد البهجة فى تخيلاته وحدها ٠ واننا لا نجانب الحقيقة اذا قلنا ان القات قد اسهم فى الماضى فى استقرار وتضامن المجتمع فى وقت كان ما يعمله الناس قليلا نسبيا ، ومن ثم كانت مشكلة ازجاء وقت الفراغ حافلة بامكان حدوث منازعات وفتن ونضال ٠ كما انشأ موءسسة اجتماعية نظمت وقت الفراغ وكيفيته بأحسن وسيلة ممكنه ٠ وبهذا قضى على الملل والسأم وأدى الى فرض السلام بوساطة السلبية التى يفرضها ، ان لم يكن بوساطة امور اكثر ايجابية واسهاما ٠ وكما هى الحال بشأن ادمان المخدرات فى كل مكان ، اصبح القات خطيرا بغير داع من الناحية الدولية ٠ بيد ان الموءسسات التى تخدم المجتمع فى الظروف العادية قد تصبح هى نفسها ضارة به فى مجموعة من الظروف مغايرة ٠

كما انه من الصعب ان يوائم القات الاحتياجات الاقتصادية للقوة العاملة ، وفوق كل شئ ، المستلزمات الواقعية بالنسبة لتطوير الأمم ٠ كما ان القضاء على هذا النمط الذى تأصلت جذوره من التسلية ، او ما تطلق عليه ما شئت من الاسماء ، لا يتأتى اذا ما عولج فى نطاق ما تسمح به حدود فلكه الضيق ٠ وينبغى الاستعانة بالحذق والخيال فى وضع تخطيط للميدان افسح وأوسع مجالا ٠ وان فكرة التأهيل يجب ان تتضمن ،كهدف رئيسى ، النهوض بالمجتمع من النواحى التعليمية والاجتماعية والاقتصادية والصحية ٠ كما ينبغى ان ينشأ برنامج ملائم يوحى

ويدفع الى بلوغ اهداف جديدة للمواطن والمجتمع وللأمه فى مجموعها •

والقول بان القات عقار مخدر ومكون لعادة تعاطيه ، مازال محل اخذ ورد من حيث الناحية الاقرباذينية • ولم يصل الى علمنا حتى الآن سوى ان العنصر الفعال الوحيد الذى امكن عزله منه هو د- نربسيودوفيدرين ، وهوغير كاف لادراج القات فى زمرة العقاقير المكونة للعادة أو المجلبة للادمان • والفكرة الاقرباذينية رغم الاعتراف بأهميتها ، ليست هى كل ما فى الامر • ويجب ان يوزن هذا القرار بالنسبة للنظرة المكتملة الشاملة •

وما زال المكتب الاقليمى يتابع دراسة القات فى مختلف الميادين الوبائية والاكلينيكية ، والسيكوباثولوجية ، والثقافية • والمأمول ان يتهيأ مزيد من المعلومات المادية للعرض على اللجنة الاقليمية فى اجتماعها القادم • وان البيانات المجموعة حتى الآن مستقاه من مصدر أو مصدرين لا اكثر ، وينبغى ان نركز الدراسة على بلدان اخرى ، منتجة ومستهلكة •

وقد صور الشاعر "تنيسن" في قصيدته "أكلة اللوتس (عرائس النيل أو زهرة البشنين)" الى حد ما الاسباب الجذرية للهروب من الحقيقة القاسية الى الخيال البهيج الذى تبعثه احلام العقار المخدر ، فقال :-

" دعونا نقطع على انفسنا عهدا لا حنث فيه
الا نبرح ابدا مثوانا فى هذه الارض
أرض اللوتس التى لا يعرف الهم سبيل من لاذ بحماها
حيث نستلقى فى ذرى روابيها ، كالآلهة
غير عابئين بما يجرى من قدر على بنى البشر
وبين ايديهم صنوف الرحيق ، والسهيمات تتراشق
بعيدا تحت اقدامهم فى الوديان النضيرة
والسحب تحوم بثناياها الساحرة فى لين حول
منازلهم الذهبية والعالم المتألق يطوقها

حيث تمس البسمة الحالمة شفاههم
وهم متطلعون الى الأرض الضائعة
الحافلة بالآفات والمجاعات ، والطاعون والزلزال
وصخب الأمواج ، ووهج الرمال وصليل النضال
وتألق المدائن ، والسفن الغارقة والايدى المبتهلة فى خشوع "
وأخيرا ، نختتم بقول جلال الدين الرومى (١٢٠٧-١٢٧٣ ميلادية)
الشاعر الفارسى المتصوف العظيم ، فى رباعياته :

عاقر الخمر واعكف على القنب
واحتمل وزرا ، وعارا ، لمأرب
علك تنسى الحياة بحلوها وبمرها
أو أن تلوذ للحظة ، منها ، بمهرب

الصحة العقلية فى ليبيـــا[x] (١)

١) الهـــدف

كان هدف هذه الزيارة متابعة التقدم الذى طرأ على مشروع المستشفى الجديد الذى اوشك على التمام وكذلك مناقشة بعض المسائل الادارية والفنية المترتبة علي ذلك ٠

٢) المقابلات والاجتماعات

وصلت الى طربلس قادما من جنيف فى ساعة متأخرة من مساء يوم الاثنين ٣٠ يونيو ، وفى المطار قوبلت بالترحيب من مندوب نظارة الصحة ٠

وفى يوم ٢٢ يونيو ، تشرفت بمقابلة سعادة السيد/سالم الصادق ناظر الصحة بطرابلس ٠ وبعد مناقشة بعض الموضوعات المتصلة بالتقرير الخاص بزيارتى السابقة ، أعرب سعادته عن اهتمامه البالغ ، بما يتعلق بالاتجاهات الخاصة لتطور خدمات رعاية الصحة العقلية للمجتمع فى طرابلس ٠ وفى رأيه ان هذه الخدمات تعمل فى اطار ينقصه التعاون الوثيق بينها وبين خدمات الصحة العامة ، مما ادى الى خلق بعض الصعوبات والاقلال من فعالية هذه الخدمات جميعها ٠ وكان رأى الدكتور شرينو مطابقا لهذا الرأى ، كما ان تجربتى المحدودة تؤيد ذلك تمام التأييد ٠

ونتيجة لذلك ، فقد عبر سعادته عن رغبته فى أن يكون هذا التقرير مركزا على هذه المشكلة ، وعلى كيفية علاجها من الناحية الادارية والاكلنيكية ٠

وفى اجتماعاتى التالية مع الدكتور شرينو ، ازدادت هذه الانطباعات تأكدا ، كما أن احساسه الذى اتفق معه فيه يشير الى ان الخدمات الطبية على العموم ، وخدمات الصحة العقلية على الخصوص ، ليست صريحة الوضوح فى مسلكها نحو توثيق عرى

---

x تقرير عن زيارة طربلس (ليبيا) فى المده من ٢٠-٢٣ يونيو ١٩٦٠ مستشارا اقليميا للصحة العقلية ، المكتب الاقليمى لشرق البحر الابيض المتوسط منظمة الصحة العالمية ٠

التعاون والمساعدة على تكامل العمل ٠

وفى لقاء مع الدكتور خاطرى مدير عام خدمات الصحة العمومية ، نوقشت ـ على نطاق واسع ـ موضوعات شتى ذات أهمية خاصـــة ٠

وتمشيا مع خبرته الواسعة بمختلف الثقافات الاجتماعية ، كان اهتمام الدكتور خاطرى ينصب على تتبع التغيرات السريعة التى طرأت على المجتمع وعلى ما لذلك من اثر على الاتجاهات الادارية والفنية لهذه الخدمات فى المستقبل ٠ وقد كان على حق عندما اشار الى أن اكتشاف البترول قد يغير بوجه عام ملامح ومنطق التخطيط الصحى الذى يجب ان يعاد النظر فيه ، وبالتالى يفسر فى ضوء الحقائق الجديدة للوضع الاجتماعى والاقتصادى ٠

وبفضل الدكتور شرينو ، تمكنت من مقابلة الدكتور ميليلا فنشنزو طبيب صحة الاقليم ، بطرابلس والاقليم الغربى ٠ والدكتور فنسنزو رجل صحة عامة ذو خبرة واسعة بالمجتمع ٠ وهو ملم الماما ايجابيا بطاقات الصحة الكامنة فى اى نسق يتضمن تكامل الخدمات تكاملا فعالا ٠

وسنحت لى الفرصة ايضا للاجتماع بالسنيور دى لوشيا ، المهندس المعمارى بمصلحة الاشغال العمومية ، المنوط به التهيئة المعمارية لمبانى المستشفى ٠ وكان لشرحه الواضح على الخرائط فضل تمكينى من تتبع مختلف مراحل بـــزوغ المبنـــى ٠

٣) مستشفى الامراض العقلية الجديد فى طرابلس

فى يوم ٢٢ يونيو سرنى أن التقى مرة اخرى بالبروفسير فليتشى الذى تلطف واصطحبنى فى جولة بالمستشفى ٠ وقد كان واضحا مبينا فى شرحه وفى تأكيده للاهمية التى يعلقها على تهيئة المبنى بحيث يلائم الاحتياجات الجديدة ٠

والمبانى (التى كانت معدة فى الاصل كموءسسة تأديبية) بدأت تتخذ مظهرا وظيفيا محددا ٠ والتعديلات المعمارية ، التى تدعو فى حد ذاتها الى الاعجاب ، يبدو انها قد استنفدت

فى محاولة لتقديم جميع انواع الاحتياجات والتسهيلات المعتبرة ضرورية من الناحية الاجتماعية والعلاجية ، دون مراعاة تامة لضرورات طابع الثقافة الاجتماعية للشعب الطرابلسى ، الامر الذى ادى الى اضطراب نسبى اصاب التناسق بين الضرورات الاجتماعية ولوازم العلاج .

وبناء على مشاهداتى ، وعلى ما سمعته من البروفسير فيليتشى يبدو ان "الطابع المميز" لهذه الموءسسة ينحصر فى ابرازه للعوامل التى تقوم على اسس التقسيم التشخيصى . فمثلا توجد عنابر منفصلة لكل من حالات التهيج الحاد ، والمعتدل ، والحالات التى ينتابها الهياج بين الحين والحين . وتبعا لهذا المنطق اوجدت عنابر لمختلف درجات الحالات المزمنه التى تختلف باختلاف درجات الهدوء والهياج وما بينهما (الهادئة وذات التهيج الحاد ، والمتقطع ، والمصابون بعته بالغ) وما الى ذلك ، ونتيجة لهذا اصبح المستشفى بأكمله مجزءا الى اقسام محكمة تكاد تكون مستقلة بذاتها . ورغم ان اللجوء الى مثل هذا الاسلوب من "الحراسة" يمكن استساغته . فقد بولغ فى تنفيذ هذه الفكرة لدرجة قد تجعلها ضارة بالاهداف العلاجية وخاصة بالنسبة الى التأهيل وأنواع العلاج الاجتماعى الاخرى للمرضى الموءمنين .

وربما يعطى ذلك الفكرة الخاطئة بان فلسفة العمل تتجه نحو التركيز على الامراض لا على المرضى ، او انها تهتم بالوسائل دون الاهداف . وان مثل هذا النمط الذى يبالغ فى احكام التنظيم قد يصبح فى المدى الطويل ضحية لتعدد مزايا هذا التنظيم .

وزيادة على ذلك فان السياسة البالغة الحزم التى رسمها البروفسير فيليتشى فيما يختص بزيارة المرضى مستقبلا ، والتى تقضى بنقل المريض من حجرته الى قاعة خاصة منفصلة حيث ينتظر الزوار ، وما يسفر عنه ذلك من قيود تمنع اتصال الجمهور بالحياة والعمل فى المستشفى ، قد توءدى الى ضرب حجاب بين المجتمع والمستشفى وبالتالى الى عزل النزلاء فى بيئة ذات ثقافة اجتماعية ما زال فيها للشعور العائلى الايجابى والروح

القبلية اثر عملى فعال فى شؤون ومسائل الفرد بل انها تؤدى الى ان يفقد المستشفى عطف المجتمع واهتمامه وتخمد جميع امكانيات التثقيف الصحى الملازمة للعلاقات والمعاملات المتبادلة بين المجتمع ومستشفاه . وهذا العمل التثقيفى ، فى رأيى ، لم يعد ينظر اليه كعرض بل كجوهر بالنسبة للبرامج الصحية فى المجتمع .

والان ، نسوق المقترحات والتوصيات التالية كعلاج :ـ

١) اوجه النشاط الاجتماعية فى المستشفى يجب ان تتصل بالمجتمع من نواح عدة وبأساليب تنم عن الفطنه ، وبطريقة تعكس الانماط الثقافية والاجتماعية ، والقيم الصحية التى يتضمنها تراث المجتمع نفسه دون الاخلال بالمعايير الفنية كما ان ادخال البعد الانثروبولوجى عن طريق تأميم وتبسيط الوسائل فى العلاج الترفيهى والمهنى والجماعى قد يجعل هذه الوسائل اكثر فعالية بوساطة تقريب الفكرة العلاجية للطب الى ذهن المريض .
اما اسهام هيئات المتطوعين "داخل الجدران" فقد يهيىء فرصا قيمة كما ان اختيار افراد متنورين من الجمهور للعضوية الفعلية بمجلس ادارة المستشفى قد يكون مجزيا . وقد اشير فى تقرير سابق الى عوامل تنمية اخرى كاستعمال لغة مشتركة للتخاطب والالمام بالثقافة الاجتماعية .

٢) الامكانيات الواسعة التى يمكن تحقيقها عن طريق خدمات العيادات الخارجية "خارج الجدران" لا يجوز اغفالها لان فى ذلك عائقا خطيرا لفعالية الخدمات . وتمشيا مع ملاحظاتى التى اوردتها فى تقريرى السابق ، ما زلت اشعر بوجوب منح هذا الموضوع اهتماما خاصا تطبيقا للتوصية المقترحة فى ذلك التقرير .

٣) يجب القضاء على المفاهيم المعيارية المتزمته غير المثمرة والسلوك المضاد للنهوض بالعمل الجماعى وروحه .
أما العلاقات بين الصحة العقلية والصحة العامة والوشائج الراسخة التى تربط الصحة العقلية بالمجتمع على

وجه عام فيجب احياؤها واستخدامها فى تعريف وتدعيم الوسائل والتطبيقات الفنية للعلاج وتكاملها ٠

ويمكن للعاملين فى ميدان الصحة العامة ان يقوموا بتوجيه نافع للعاملين فى حقل الصحة العقلية بالنسبة لموضوعات هامة كثيرة مثل توضيح التراكيب والنظم الشكلية للخدمات "خارج الجدران" على العموم ، والمنزلية منها على الخصوص واتصال البحث الاجتماعى بالبيئة ونقده وصلاحيته ، وكذلك "النواحى الصحية" العامة لعوامل الصحة العقلية فى الحياة المدرسية وفى عالم الصناعة الخ ٠٠٠ والعاملون فى حقل الصحة العامة يسهمون كذلك فى تعميق مفهوم الدراسات التى تقوم على الطرق الاحصائية الوبائية التى بدأ استعمالها حديثا فى ابحاث الصحة العقلية ٠

وبالمثل ، فان السلطات المدنية ، قد تكون ذات اثر فعال فى المساعدة والارشاد بطرق شتى فى شؤون المجتمع ٠

ويجب الا تغفل شخصية العامل فى حقل الصحة العقلية وحدود صلاحيته الطبيعية للعمل الجماعى عند استطلاع السياسات التى تتبع ٠ ولا بد من الاشارة الى ان هناك الزاما ادبيا على العاملين فى ميدان الصحة العقلية يحتم عليهم ان يتعاونوا وان يتصفوا باليقظة والبداهة وحسن التدبير وبالقدرة على الاثارة الايجابية لروح التعاون بين الآخرين٠

٤) يجب الاهتمام بنوع خاص بالطبيعة الاعتبارية التطورية لعمل الخدمة الصحية وقدرتها على التغير لتستطيع ملاءمة الظروف الجديدة ٠ ويجب ان يهتم التخطيط بالمشكلات فى المدى الطويل من ناحية علاقتها بالحاضر ، اذ ان مستقبل ليبيا من الناحية الاقتصادية حافل بامكانيات هائلة ربما تخلق احداثا صحية جديدة ٠

٥) من الواجبات الاساسية للمستشفيات فى هذا العصر رسم برامج لتدريب موظفيها داخل المستشفى ، الامر الذى يجب ان يكون جزءا من العمل الروتينى ٠ فالطبيعة الاقليمية لبعض المشكلات الصحية تجعل هذا التدريب الاولى ضروريا ، بيد ان حاجز اللغة قد يقضى على امكان ذلك ٠

يضطلع المكتب الاقليمى لشرق البحر الابيض المتوسط ، حاليا ببرنامج للتدريب الاقليمى فى شوءون التمريض • وعندما توضع الخطة فى صيغتها النهائية فسوف يكون للموقف فى ليبيا اعتباره الكامل • ويمكن للمرشحين ان يعملوا كمعلمين محليين لدى عودتهم بعد التدريب •

٦) انه من الجوهرى ان نوضح أن مفهوم الصحة العقلية ليس مفهوما طبيا خالصا • وانه ليس مطابقا لمفهوم الطب العقلى او مرادفا له • وقد يكونان منفصلين فى حدهما من بعض النواحى كما ان حقائق احدهما قد لاتصلح لكى تكون صكوكا للآخر • وبعض مشكلات الصحة العقلية قد لا تكون فى الواقع فنية من وجهة النظر الطبية المحضة •

فالطب العقلى قسم من اقسام الصحة العقلية ، وليس الامر بالعكس • وتشمل الصحة العقلية فيما تشمل دائرة واسعه من عوامل النشاط الاجتماعى والاقتصادى ومظاهر العاطفة الروحية فضلا عن الجوانب الطبية الخالصة • ومغزى ذلك انه يجب ان ينظر الى الصحة العقلية كجزء لا يتجزأ من المجتمع، والاحداث الاجتماعية نفسها لا يمكن فصلها عنه ولا تعريفها دون الرجوع اليه • وهذا يدعو مع غيره الى ان ننظر الى الصحة العقلية وديناميكيتها ، لا من حيث علاقتها بما "هو كائن" فى المجتمع بل بما سوف يكون فى المستقبل •

٤) ليبيا ٢ ــ تعليم التمريض

بفضل رعاية الانسه هيلدا حكيم ، تمكنت من زيارة مدرسة التمريض بطرابلس ، وحرمنى حلول يوم عطلة عامة من مشاهدة المدرسة اثناء العمل ، الامر الذى كان يستحوذ على اهتمامى نظرا لما لاسهام التمريض من اهمية خاصة فى تنمية الرعاية الصحية على وجه العموم • بيد ان قيامى بجولة فى انحاء المبنى اعطانى فكرة حسنة عن مستوى العمل •

وباستعراض المنهج مع الانسه هيلدا حكيم سرنى ان اجد رأيى على اتفاق مع رأيها فيما يتعلق "بضرورة تنسيق التدريب

بالنسبة للاحتياجات" ، ومغزى ذلك من ناحية تخطيط التدريب والتمريض لا يكون فعالا كوظيفة طبية اجتماعية الا اذا ارتبط مستواه ونوعه فى تآلف مع مستوى الخدمات الطبية عامة ، ومع مستوى الانماط الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع على وجـــه العمـــوم ٠

الصحة العقلية فى ليبيـا[x] (٢)

١/ وزارة الصحـــة

فى الساعة العاشرة من صباح يوم الاثنين ١٧ أغسطس تشرفت وسعدت بلقاء سعادة السيد/أبو بكر احمد ، وزير الصحة بالمملكة الليبية ، بحضور الدكتور سعد الدجانى ، والسيد/ عمر عباس ، والدكتور صلاح عطية • وخلال مناقشاتنا التالية ، اعرب سيادة الوزير عن ادراكه للاحتياج الحالى الى خطة اساسية للصحة العقلية يجرى اتباعها بالنسبة لنمو الخدمات فى ليبيا ، وعبر عن رغبته فى ان يتمكن المكتب الاقليمى لشرق البحر الابيض المتوسط التابع للهيئة الصحية العالمية من الشروع فى تحديد هذه المشكلات والاحتياجات على اساس اولويتها وتكوينها وغير ذلك من التفصيلات المتعلقة بها • وأثناء المناقشات الاخرى التى اسهمت الى حد كبير فى توجيهى وتزويدى بالمعلومات ، تمكنت من ان استخلص بوضوح ما اعتبره أساسيا وأكثر استعمالا وربما تطلب اهتماما فوريا ، وهو ما اوافق عليه تمام الموافقة • وختاما ، اقترح سيادته ان تضمن طرابلس فى خط سيرى لما قد يكون لذلك من فائدة ، وقد وضعت فورا الترتيبات بكل ارتياح •

٢/ برقـــــة

فى نظارة الصحة ، زرت السيد/عبد المجيد بن سعود ، ناظر الصحة بولاية برقة • وخلال المناقشات عن الحالة العامة للصحة العقلية بالنسبة لبرقة ، اعطى سيادته صورة واضحة لمشكلات واحتياجات الولاية • وأشار الى ان رسم المكتب الاقليمى لخطة تنمية مبنية على توحيد الحقائق التى تسفر عنها هذه الزيارة ، سوف يحظى بتقدير عظيم • وتناول التشريع باعتباره رائدا ضروريا للمعونة العلاجية بالنسبة لاسهامه فى الوقاية والعلاج زيادة على اختصاصه الاول لحماية المجتمع والمريض كليهما • وقد تسلمت فيما بعد قانون الصحة العقلية الذى اقره المجلسان والذى اصبح بالتالى قانونا مقررا • والمشروع

---

[x] من تقارير المكتب الاقليمى لشرق البحر الابيض، منظمة الصحة العالمية ، ١٩٦٠

موضع دراسة دقيقة ، وسوف يرسل الى سيادته فى الوقت المناسب نوع اسهامه فى معونة الصحة العقلية • وقد ردد الدكتور فيرنتى نفس الشعور تقريبا بالنسبة لخطة النظارة وكان عونا فى اعطائنا معلومات وطيده عن مشكلات الصحة العقلية فى المستوى العلاجـى •

(أ) معهد المساعدين الصحيين ومعاونى الصحة

كان الدكتور صلاح عطية مدير المعهد بالنيابة ، كريما اذ خصص جزءا كبيرا من وقته ليساعدنى على استيعاب اهداف المعهد ومنهجه ووسائله والتطبيقات الفنية للدراسة كما هى مطبقة • بيد اننى نظرا لغياب الطلبة فى الاجازة ، لم اتمكن من مشاهدة المشروع اثناء العمل ، وتمكنت والدكتور عطية من استعراض القسم الخاص بالصحة العقلية فى المنهج ، وتشمله عشر محاضرات ، وتلبية للطلب الذى ابداه ، وافقت ، كخطوة اولى على ان ازوده بملخص للمحاضرات الملائمة لمدى وأهداف الدراسات الواردة بالمنهج والتى يجب ان تتكامل مع البرنامج برسوخ تام وكمرحلة ثانية ، وعدت بأن اعد بمعونه غيرى من الباحثين فى الاقليم (من الهيئة ومن مختلف اقطار الاقليم) نصا عربيا كاملا للاستعمال الدائم • ويجب ـ بغير شك ـ تركيز الاهتمام على تكامل الصحة العقلية مع الصحة العامة •

واننى اعتقد ، وقد لا يكون هناك ما يبرر ذلك تماما ، ان المنهج بوجه عام ينقصه التدريب العملى بالمستشفى •

(ب) مستشفى المرج للامراض العقلية

فى ١٨ أغسطس ، زرت المرج على بعد مائة كيلومتر فى الجبل الاخضر لأشاهد مستشفى الامراض العقلية • وهذا المستشفى موجود بالمرج منذ عامين • وقد انشىء فى عام ١٩٥٣ فى مكان يسمى (ماسا) ثم نقل الى موقعه الحالى لملاءمته ولصلاحية موضعه • وهو يشغل مبنى كان يشغله قبلا المستشفى المدنى الذى نقل الى مبنى فندق مزود بتسهيلات احسن كثيرا • وسعة المستشفى مائة سرير (٧٠ للرجال و٣٠ للنساء) • ويديره الدكتور بروفيريو وهو طبيب عام يعمل به لبعض الوقت لمدة

ساعتين يوميا • ورغم أن العلاج يسير بطريق الهواية البحته بغير تخصص فان المرء لا يملك الا ان يعجب بشعور الدكتور بروفيريو بالواجب ، الامر الذى ينعكس على اهتمامه وكفاحه ليتزود بمزيد من العلم من اجل المرضى بعقولهم • وهذا فى حد ذاته يذكر فيشكر •

وفى الوقت الحاضر لا توجد عيادة خارجية ، ولعل ذلك من وجهة نظر الصحة العقلية اقل ضررا من وجود معونة قاصرة يحتمل ان تجلب المتاعب لدى علاج المرضى الذين لايمكن ان تحل مشكلاتهم بهذه الطريقة • ومن ثم تستبعد اخطار الياتروجينية (الاضطرابات الارتكاسية التى يثيرها الطبيب فى نفس المريض) •

وحالة التمريض موءسفة كما فى انحاء اخرى كثيرة بالاقليم ولم تنظم تماما ، بعد الاعمال الخاصة بالمرضى •

(ج) المستشفى العام بالمرج

سعة هذا المستشفى مائة سرير ويعمل كمستشفى عام (لجميع الامراض) لمنطقة المرج والمناطق المحيطة بها ، ويديره الدكتور عثمان الكاديك الذى عاد توا من المملكة المتحدة بعد ان نجح فى امتحانات دبلوم صحة الطفل • والدكتور الكاديك ، الذى أتم تدريبه تحت رعاية المكتب الاقليمى لشرق البحر الابيض المتوسط ، باحث قدير يوءهله عمله كأخصائى اطفال لان يكون فى المستقبل عاملا مهما فى حقل الصحة العقلية • وليس لدى شك فى انه لن يمضى وقت طويل حتى يتولى دوره الكامل كأخصائى اطفال لكى يتمكن من متابعة دراساته ولكى يفسر كيان وديناميه (تفاعل) الصحة العقلية فى العائلة الليبية ، وخاصة بالنسبة للطفل • واتعشم ان يكون قادرا على ان يحدد لنا خطة مواجهة التثقيف الصحى العقلى عن طريق طب الاطفال فى العائلة الليبية • ومن الهام جدا انه بدأ عمله بين البالغين قبل الاطفال لما للاباء من تأثير عظيم على الابناء ، واننا لنهنىء الادارة على ذلك اذ انه من المحقق تماما اليوم انه فى كثير من الاضطرابات السيكولوجية بين الاطفال قد يكون الابوان فى حاجة الى العلاج اكثر مما يحتاج الطفل الذى يكون دوره فى هذه الحال سلبيا ليس الا •

(د) المستشفى العام ببنغـــازى

فى زيارة لهذا المستشفى ، ناقشت مع المدير الدكتور كوسيناس امكانيات اقامة عيادة خارجية لمعالجة المصابين والذهانيين (المرضى بالامراض العصبية على العموم) فى المراحل الاولى خارج الجدران ، واحتمال تبادل المرضى والاتصال الوثيق مع مستشفاه ويبدو ان اكبر مشكلة بالمستشفى هى مشكلة التخاطب ، فالعائق اللغوى الموجود بين الاطباء انفسهم وهم ذو ثقافات متباينه ، وبينهم وبين المرضى ، ظاهر الاثر • ويمكن ان نتخيل بسهولة اثر ذلك على علاقة الطبيب بالطبيب ، وعلاقة الطبيب بالمريض •

توصيـــات خاصة لبرقـة

(١) تعيين مستشار من قبل الهيئة الصحية العالمية لانشاء عيادة خارجية للامراض العقلية فى بنغازى • وهذه العيادة مع استقلالها اداريا وفنيا ستعمل فى اتصال وثيق مع المستشفى العام • وسوف تقوم بعلاج الحالات المبكرة من العصاب والذهان • وكمشروع استرشادى ، سوف يكون طليعة لخدمات الصحة العقلية فى المستقبل • ويعاون فى تقييم مدى انتشار وحدوث الاضطرابات العقلية ، مما هو لازم للتخطيط فى المستقبل ، واخيرا ، اثناء قيامه بعمله المعتاد كمركز اكلينيكى سوف يعهد اليه باختيار وممارسة الوسائل والتطبيقات الفنية الملائمة للمجتمع • ويمكن ان يدبر له مبنى من اربع او خمس غرف فقط ولن تكلف الآلات والمعدات كثيرا • ويقوم المستشار الاقليمى للصحة العقلية الآن بانجاز الخطة بأكملها •

(٢) منح احد الاطباء الليبيين الشبان بعثة دراسية من بعثات الهيئة لمدة سنتين وثلاثة أشهر لتمكينه من التدريب بمعهد طب الامراض العقلية بلندن • والمعروف ان هناك طبيبين يمكن اختيار احدهما لهذا التدريب • ولما كانت السنة الجامعية تبدأ فى أكتوبر فانه من المهم اضفاء

بعض العجلة على هذه الفقرة لضمان الاتصال المبكر بالدكتور ديفيز عميد مهد طب الامراض العقلية ٠

(٣) كتدبير موءقت ، اوصى بمنح الدكتور بورفيريو التسهيلات اللازمة لبعثة قصيرة الامد (لمدة شهرين) بمستشفى ولاية روكلاند ، ببيرل ريفر، بنيويورك، اما نوع الخبرة التى يقدمها هذا المعهد المتخصص فى بحث ودراسة الاثر العقاقيرى فى الامراض العقلية (المهدئات ، والمسكنات والمنومات الخ ٠٠٠) فسوف تكون لها قيمة لا تقدر بالنسبة لعمله بمستشفى المرج للامراض العقلية ٠ ويمكن ترتيب ذلك بسهولة مع الدكتور ناثان كلاين حيث ان هناك تفاهما سابقا بيننا بخصوص مثل هذه الاحتياجات ٠

(٤) ارسال خبير لأمد قصير من قبل الهيئة لقضاء ثلاثة اسابيع بمستشفى الامراض العقلية بالمرج لاعادة تنظيمه ٠ وسوف تتيح له هذه الفرصة ادخال علاجات جديدة ومعاونة الدكتور بروفيريو فى تناول جميع المشكلات فى مكانها على الفور ٠ وأوصى بأن يعهد بهذا العمل الى الدكتور مانوجيان مدير مستشفى العصفورية ، ببيروت ، أو الدكتور وجدى ، او الدكتور جرجس من وزارة الصحة بالجمهورية العربية المتحدة ، بالقاهرة ٠ ومع ذلك اذا لم يتيسر ايفاد خبير ، فانه لا مانع لدى من الذهاب حوالى شهر يناير لأعاون فى هذا العمل ٠

وانني اوافق تماما على اقتراح المستشار الاقليمى للتعليم والتدريب بأن يصطحب مستشار الهيئة معه احدى الممرضات ٠

٣/ طرابلس

فى ٢٠ أغسطس تشرفت بمقابلة السيد/سالم الصادق ، ناظر الصحة بطرابلس ٠ وقد اعرب سيادته فى المناقشات التمهيدية عن الحاجة الملحة الى اعادة تنظيم خدمات الصحة العقلية فى طرابلس حتى تصبح فى مستوى يتناسب مع حاجة المجتمعات الحديثة ٠ وكان سيادته ملما تمام الالمام بالتغيرات السريعة

التى طرأت على حالة الصحة العقلية فى مجتمع سريع التطور ٠ وكان نيل الاستقلال حافزا لخلق اتجاهات صحية واحتياجات جديدة ٠ وقد ناقش سيادته ومديره الدكتور شرينو برنامج تحويل (وبكلمات الدكتور شرينو "تهيئة ") معزل فورتينو "ب" للاستعمال بمثابة مستشفى للامراض العقلية ليحل محل المستشفى القديم ، وهذه فى رأيى خطة سليمة لاغبار عليها ، واوافق عليها تماما ، اذ ان المبانى التى عاينتها فيما بعد كانت جديدة وملائمة للغرض تمام الملائمة ٠ وفى سياق مناقشاتنا مع الدكتور شرينو اثناء زياراتنا الصباحية تفضل فاعطانى صورة واضحة للصحة العقلية فى نطاق الصحة العامة من وجهة نظره كمدير للصحة العامة ٠ وعلى ما اذكر ، فان الاتجاه الذى عبر عنه هو تطوير الصحة العقلية بشكل يجعل كلا من الصحة العامة والصحة العقلية تتمم احداهما الاخرى ٠

(أ) المستشفى العام بطرابلس

ان الخدمات التى يوءديها هذا المستشفى خدمات عظيمة وعلى درجة عالية من الكفاءة ٠ ومما يوءسف له عدم وجود خدمات عيادة خارجية للصحة العقلية فى نطاق خدمات هذا المستشفى ٠

(ب) مستشفى الامراض العقلية بفشلم

يشغل هذا المستشفى بناء ثكنة تركية سابقة احسن تحويلها ٠ وسعته ثلثمائة سرير الا انه كان يستوعب يوم زيارتى ٤٨١ مريضا ٠ اما القسم النسائى الذى ادخلت اليه فقد كان نظيفا مرتبا ذا جو صحى ايجابى ٠ وكان ترتيب الاسرة مرضيا للغاية ٠ وفى وقت زيارتى كان المرضى جالسين فى الهواء الطلق تحت ظلال بعض الاشجار فى واحة صغيرة ذات رقعة ضيقة بالنسبة للاعمال العادية ، ومن الموءكد انها تضيق اكثر بالنسبة للاغراض العلاجية ٠

ومدير هذا المستشفى هو البروفسير فيليتشى من الاخصائيين النابهين فى طب الامراض العصبية والعقلية ، وقد

خلقت قدرته ومعلوماته الفنية جوا من الاستاذية غير خاف فى المستشفى . وقد كافح البروفسير فيليتشى فى وقت ما ليحصل على وضع مستقبل للصحة العقلية ، وقد نال مراده اخيرا . ورغم ان هذا مما يدعو الى الاعجاب الا انه موءسف الى حد ما بالنسبة للظروف الخاصة للخدمات الصحية فى طرابلس ، وفى سياق المناقشات التى جرت بينى وبين البروفسير فيليتشى احطت علما بغزارة معلوماته فى ناحية تخصصه وأهليته وجدارته كباحث مدقق . وفى رأيى انه يمثل من بعض النواحى المدرسة الايطالية الكلاسيكية ومثلها العليا ، وهو يعيد الى الاذهان نوعا ما صورة لفيروزو ، وتانزى وغيرهما من الباحثين .

وربما تكون الصعوبة الكبرى التى تواجه البروفسير فيليتشى فى عمله هى العائق اللغوى اذ انه ومساعديه الشابين مضطرون الى القيام باعمالهم الاكلينيكية الخاصة بالمرضى عن طريق المترجمين من افراد هيئة التمريض . وهذا بالطبع غير مرض وقد يوءدى الى تضييق خطير فى نطاق العمل وربما الى تحريف فى الترجمة . ورغم ان ذلك لا ينطبق فى واقع الامر على البروفسير فيليتشى ومعاونيه ، الا انه من المعروف بوجه عام ان كفاية اى عمل يوءدى عن طريق الترجمة تتصل اتصالا مباشرا بكفاية المترجمين انفسهم . وانني مقتنع فى هذا الشأن بوجوب حافز لدى المغتربين لكى يتعلموا لغة القوم الذين يتعاملون معهم ، اذ ان هذا النقص قد يحرم الباحث من ادوات هامة جدا للبحوث والعلاج . فضلا عن ان عائق اللغه يخلق عائقا سيكولوجيا فى علاقة الطبيب والمريض ، كما ان تشخيص الامراض العقلية فى حالات كثيرة يعتمد اساسا على وصف المريض وتعبيره عن احواله .

والنقطة الهامة الاخرى التى اود ان اوجه اليها الاهتمام هى ان نحو خمسين فى المائة من اسرة المستشفى يشغلها مصابون بالصرع . وأقول الحق ، اننى غير مقتنع بالتفسير الذى ساقه الدكتور فيليتشى فى دفاعه عن خطته ، ولا زلت على يقين من ان عددا كبيرا من هذه الحالات يمكن اخراجه من المستشفى وعلاجه فى عيادة خارجية مما قد يجعل العلاج اكثر نفعا وفعالية .

وان وضع المصابين بالصرع داخل مؤسسات لا يلجأ اليه الا كأجراء اخير ما لم تكن قدرتهم على التجاوب مع المجتمع قد ضعفت الى حد خطير .

وآخر نقطة اشير اليها وأود أن اركز عليها بشدة هى ان هذه المستشفى لا يقدم آيه تسهيلات خارجية للجمهور فيما عدا بضع ساعات صباح كل يوم جمعة . وهذا غير مرض اذ ان الخدمات الخارجية التى تقدم للمرضى قد اصبحت الهدف الرئيسى لرعاية الصحة العقلية الذى يتسع مداه على مر الايام وذلك بالنسبة للفوائد العديدة الناجمة عن تقديم تلك الخدمات للمريض نفسه وللمجتمع والدولة ايضا ، ان نحو ٩ فى المائة من الحالات المبكرة للاضطرابات العصبية يمكن علاجها فى العيادة الخارجية دون حاجة الى دخول المستشفى . ومن ثم ، فانه من الاهمية بمكان تخصيص مواعيد يومية ثابته للعيادة الخارجية على ان يكون ذلك فى مكان قريب من المستشفى المركزى وعلى صلة وثيقة به . كما ينبغى العمل على تشجيع تبادل المرضى .

(ج) مركز صحة الام والطفل

فى صباح الجمعة ٢١ أغسطس ، بعد مقابلة قصيرة لسيادة الناظر شرحت خلالها انطباعاتى ، تناول سيادته شئون التشريع ومكانه فى نطاق الخدمات الصحية وتلا ذلك زيارة لمركز صحة الام والطفل فى طربلس بصحبة الدكتور نورى الهمالى . ولما كان اليوم يوم عطلة عامة ، فقد شاهدت الحجرات فقط وفحصت المعدات وأحطت بأهداف ووسائل المركز . وطبيعى ان هذا المركز يثير اهتماما عظيما بين العاملين فى حقل الصحة العقلية نظرا لما يكمن فيه من قدرات للتثقيف الصحى العقلى. والدكتور نورى الهمالى اخصائى اطفال ذو خبرة وروح عالية فيما يختص بالعمل الجماعى المشترك ، ومعلوماته عن مجتمعه وعاداته سوف تكون ذات قيمة بالغة فى الكشف عن تفاعلات الصحة العقلية فى العائلات الطرابلسية .

(١) اعادة تنظيم الخدمات الموجودة واعادة تهيئتها للعمل كمراكز وثيقة الصلة بالمجتمع . والحاجة ملحة الى انشاء خدمات عيادة خارجية على اساس مستشفيات نهارية تعمل فى تعاون وثيق مع المستشفى العام . وزيادة على ذلك ، فانه من الضرورى تناول مشكلة المصابين بالصرع حتى لا يثقل كاهل المستشفى بمسئوليات خارج ميدان الصحة العقلية فى هذه المرحلة من مراحل التطور ويمكن ان يخصص عنبر فى المستشفى العام للمصابين بالصرع الذين تجرى عليهم ابحاث اما باقى الحالات فيمكن ان تتردد على العيادات الخارجية للعلاج بانتظام . على ان تحجز الحالات الميئوس منها والحالات غير العادية لاضطرابات الشخصية .

(٢) اوصى بايفاد الدكتور باش ، مستشار الهيئة الصحية العالمية الى طرابلس لقضاء ثلاثه او اربعه ايام لبحث مشكلة الصرع هذه ، وليسدى مشورته بوصفه خبيرا فى الموضوع ، على الاخص فى النواحى الاجتماعية واذا دعت الحاجة ، والناحية الفنية لرسم الدماغ الكهربى .

(٣) منح احد الاطباء الليبيين الشبان بعثة دراسية من بعثات الهيئة لمدة سنتين وثلاثة أشهر لتمكينه من التدريب بمعهد طب الامراض العقلية بلندن واننى اعلم انه لا يوجد فى الوقت الحاضر طبيب ميسر لهذه المنحة .

(٤) تعيين خبير من قبل الهيئة الصحية العالمية لانشاء عيادة خارجية فى طرابلس تعمل كطليعة لخدمات الصحة العقلية الاجتماعية فى المستقبل . ويجب ان يكون الباحث قادرا على تحقيق الاتصال الفعال بجمهور مرضاه عن طريق المامه بلغتهم .

(٥) نظرا لاهمية التمريض فى خدمات الصحة العقلية فى ليبيا بوجه عام فانه من المهم اتخاذ خطوة عاجلة فى سبيل التدريب . وخلال اقامتى فى طرابلس سرنى ان قابلت خليفة

المسلاتى الذى قضى ثلاث سنوات يتدرب فى معهد المساعدين الطبيين بالسودان والذى يعمل الآن - كما علمت - مع فريق التطعيم بالبى سى جى • واقترح ان يوفد المسلاتى او اى شخص ملائم غيره فى بعثة دراسية لمدة ثلاثة أشهر سواء فى مستشفى الامراض العقلية بالعباسية ، بالقاهرة او بمستشفى العصفورية ببيروت ، ليتدرب على خدمات تمريض الصحة العقلية ، ولدى عودته يعمل معلما لتمريض الصحة العقلية • ويمكنه ان يعطى محاضرات وارشادات للمشتغلين بالتمريض حتى فى حالة عدم وجود مركز تدريب منظـــم •

(٦) الاهتمام بخلق حافز لدى المشتغلين بشؤون الصحة العقلية لدراسة لغة البلاد كما يوجه اهتمامهم لدراسة عادات الشعب وتقاليده وأسلوب حياته خاصة فيما يتعلق منها بمفاهيم الصحة •

شـــــكر وتقديـــــر

انه لمن دواعى غبطتى ان انتهز هذه الفرصة لأعبر فى هذا التقرير عن شكرى العميق لما لقيته من استقبال كريم وتعاون وثيق من جميع الموظفين الذين اتصلت بهم اثناء فترة اقامتى وهذه الصفات التى اعبر عنها ببساطه ودونما تكلف ما هى فى الواقع الا انعكاس للتقاليد العريقة التى تتسم بطيب المجاملة وحسن الذوق ، والتى يمتاز بها المجتمع الليبى بوجه عام واننى اشعر بانى مدين بالشكر على الاخص لسعادة السيد/ابوبكر احمد ، وزير الصحة ، والسيد/عبد المجيد بن سعود ، ناظر الصحة ببرقة ، والسيد/سالم الصادق ، ناظر الصحة بطرابلس كما اننى اتقدم بالشكر الى الدكتور سعيد الدجانى ، وكيل مدير عام الصحة ، ببرقة ، والدكتور شريننو ، مدير الخدمات الصحية بطرابلس ، والدكتور فيرينتى ، نائب مدير الصحة ، ببرقة ، والسيد عمر عباس السكرتير العام

لوزارة الصحة ، والدكتور كوسيناس ، والدكتور عثمان الكديك والدكتور بورفيريو . ويسعدنى ان اعبر عن امتنانى للبروفسير فيليتشى وموظفيه ، والدكتور الهمالى والسيد المسلاتى ولموظفى الخدمات الصحية فى طرابلس وبرقة الذين اتصلت بهم وأخيرا وليس آخرا ، أشعر بأنه لزام على ان اعرب عن شكرى للدكتور عطية والسيد/حديدى ببنغازى ولموظفى الهيئة الآخــــرين .

الخيل وأسماؤها فى الجاهلية والإســلام

وبعض اخبارها

المصادر

(١) كتاب أنساب الخيل لابن الكلبى المنشور بمدينة ليون بهولندا سنة ١٩٢٨ وبدار الكتب المصرية سنة ١٩٤٦

(٢) كتاب اسماء خيل العرب وفرسانها لابن الاعرابى الذى طبع مع الكتاب السابق (أنساب الخيل) بليون سنة ١٩٢٨

(٣) مخطوط كامل الصناعتين (البيطره والبيزره) المعروف بالناصرى تأليف ابى بكر البدر البيطار بخزانة الملك الجليل السلطان الاعظم الناصر محمد بن قلاوون المشتمل على أصول الخيل ونتاجها وانسابها وارتباطها وما جاء فيها من الاحاديث وأسباب عللها وعلاماتها ومداواتها و..... وهو أوفى ما كتب فى موضوعه

(٤) البيطرة والبيزره مخطوط لداود الانطاكى الضرير

(٥) كتاب الخيل للاصمعى طبع فينا (النمسا) ١٨٩٥

(٦) كتاب رشحات المداد فيما يتعلق بالصافنات الجياد للبخشى

(٧) مخطوط "التذكرة" لم يذكر مؤلفه فى حوزة أستاذنا البروفسير الدكتور النذير دفع الله وبعد الاطلاع عليه اتضح انه "تذكرة" الانطاكى ولكن يمتاز باضافات فريدة فى علم البيطرة مأخــوذة من البيطرة مع اضافات لا توجد بالنسخ المطبوعه ولا بالمخطوطه ...

اسماء لبعض الخيول السوابق الشهورة فى الجاهلية والاســلام

- زاد المسافر
- الهجيس
- العسجدى

- الديناري
- العصفري
- ذو الغفال
- مياس
- ذو الخمار
- الشموس
- الجمانه
- العباب
- ذات الدفوف
- الهطال
- شاهر
- سهرام
- الاغر
- الخطار
- الظليم
- الغراق
- الجون
- كاسر
- الادهم
- القريظ
- ذات الجناح
- المعلى
- الطلول
- غمامه
- القطراني
- غطيف
- الكميات
- الفياض
- الغمامة
- الصاوي
- هداج

- الخطار
- الاغر
- سميدع
- ذو الدفوف
- ظبية
- النهشلى
- الشعرى
- الهداج
- ساهم
- الصموت
- صاحب
- القداح
- حلوى
- الريشى
- العراده
- لاحق
- منازع
- ذو الوشوم
- رعش
- اشقر
- بهروان
- ناهب
- الاعرابى

بعض اخبارها (دون ذكر الاسانيد)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
"الخيل معقود فى نواصيها الخير الى يوم القيامة" وفى رشحات المداد: "واهلها معانون عليها والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة"

وقد اتخذ رسول الله الخيل وارتبطها وأعجب بها وكرمها

وحض عليها وجاءت الاحاديث متصلة عن الرسول (صلعم) فى شأن ارتباط الخيل وفضله ذكرها البلقينى فى (قطر السيل فى امر الخيل) • ويقول صاحب (انساب الخيل) و (رشحات المداد) وغيره ان رسول الله (صلعم) راهن على الخيل وجعل لها سبقة وتراهن عليها اصحابه •

وراهن رسول الله على فرس له يقال لها سبحه فجاءت سابقة فهش لذلك واعجبه •

وسابق الرسول بين الخيل المضمرة فارسلها فى الحفيا الى ثنية الوداع والمسافة بينهما سته اميال أو سبعة • وسابق بين الخيل غير المضمرة فارسلها من ثنية الوداع الى مسجد بنى زريد والمسافة بينهما ميل وسابق بينهما على حلل اتته من اليمن فاعطى السابق ثلاث حلل والمصلى حلتين والثالث حلة والرابع دينار والخامس درهما والسادس فضة وقال له بارك الله فيك وفى كلكم وفى السابق والنسكل (اى الاخر) • ويقول ابن الكلبى : "ثم أجرى رسول الله الخيل فجاء فرسا له ادهم سابقا واشرف على الناس فقالوا : الادهم ، الادهم فجثا الرسول على ركبتيه ومرن الفرس وقد انتشر زيله وكان معقودا فقال : "انه لبحر" فقال عمر بن الخطاب كذلك الخطيئة اذ يقول :

ان جياد الخيل لا تستفزنى

ولا جاعلات العاج فوق المعاصم

لو كان احد .... من الخيل لكان رسول الله (صلعم) أولى بذلك فالخيل اكرم الدواب وأفضل الركائب واثبتها فى الملمات وأقواها على العدو •

نقد لقاموس حتي الطبي*

بعد الاطلاع على القاموس المعروف بقاموس حتى الطبى الذى نشر عام ١٩٦٧ بمناسبة العيد المئوى للجامعة الامريكية يسعدنى أن أسجل بعض ملاحظاتى العامة اليكم وانه لواجب على قبل ان اضطلع بهذا العمل أن اهنىء الدكتور يوسف حتى على هذا الجهد ٠ لان اعجابى بجهده يفوق اعجابى بالبحث الذى صرف فيه سنينا طوالا فى البحث والتنقيب ٠ على ان ذلك لن يصرفنى من مهمة النقد التى أوكلتموها الى وهى تنصب على مبدأ الترجمة وأسسها أصلا وثانيا على أصالة مراجعه وطبيعتها التى يذكرها والتى يمكن حصرها من نصوصه عامة ومن مفرداته ٠

(١) ان المؤلف الكريم لم يشر الى مصادره ولعله لم يحظ بقراءة بعض المؤلفات العربية مطبوعة أو مخطوطة التى تعد اليوم مصدرا من مصادر الاصطلاحات وخاصة الكتاب الملكى والقانون لابن سينا ، والحاوى وغيره من كتب الرازى ٠ كما لم يشر الى المعاجم العربية التى لجأ اليها او حتى نشرات المجمع اللغوى العلمى العراقى ٠ كذلك قد شذ شذوذا واضحا فى استعماله لكلمات انجليزية لامراض قد اتفق على تسميتها وحدد اصطلاحها وخير مثال سفلس وغيره ٠
ان هذا سيضع عبئا ثقيلا على كاهل المتصفح او الناقد الذى لا يجد مندوحه عند تتبعه للمفرادت ان يحاول ان يبحث عن مصدرها ونشأتها وصيرورتها عبثا فالكلمة لها تاريخ ـ مولد ونشأة وتطور وتغير من المعنى وصيرورة لم يشر المؤلف الفاضل اليها ٠

(٢) أن تأليف المعجم وتوليف ألفاظ المصطلحات وتحديد

* نظن ان هذا المقال كتب لمجمع اللغه العربية بالقاهرة والمقال مكتوب باليد وغير مصحح ولا مكتمل وبدون عنوان ٠

معانيها يتطلب أولا وقبل كل شئ ان يكون المؤلف مالكا لناصية العربية ملما بمفرداتها ضليعا فى اشتقاقاتها . سريع الادراك للفروق اللغوية والمعنوية وما جرى عليها من سنة التطور والنشوء لان فقه اللغة وتريخها من احوج المواد لعالم اللغة وخلا ذلك فعلم النحو هو ميزان للغة بلا مراء وكذلك علوم البيان والبديع والمعانى . على ان معرفة المصادر هى بحق نصف المعرفة ولذا فان من مقومات اللغوى :

(١) معرفة المعاجم العربية واسسها وما أئتلفت عليه وما أختلفت ومؤلفوها .

(٢) كتب الادب وفقه اللغة والتاريخ وعلم النحو والاشتقاق (أوزان).

وعلى الناقل الا يقل معرفة للغة الأجنبية التى يأخذ عنها التعريب . كذلك يجب عليه ان يكون واسع الاطلاع ممارسات لموضوع الترجمة ضليعا فيها فهما للمعانى الدقيقة وأصولها . على ضوء هذه الحقائق سوف نسير فى تصفحنا لهذا القاموس .

(١) المؤلف طبيب قد أفنى حياته فى دراسة الطب وممارسته ولا أعلم الا أنه يمارس الطب ممارسة قد شهد له فيها بالكفاءة النادرة دون أن يكون له ميل او تخصص ظاهر معروف فهو لهذا اجدر الكتاب للتصدى للتعاريف العامة . وأعلم أن له كفاءة عرفت فى مجال اللغة عامة ولا أدرى مبلغها وميدانها .

(٢) واعلم انه ملم بتاريخ الطب العربى ولكننى اجهل مدى ماحازه ولم يصل الى ما استطيع الحكم به .

(٣) ان هذا القاموس الذى يحوى بين دفتيه ماينوف على خمسين ألف كلمة لهو فى الحقيقة يمثل مجهودا واضحا وان المتصفح له ليعجز عن كشف بعض الأثار الواضحة فى النقل من المعاجم الأخرى كما يبدو فى مثله من المعاجم المعاصرة . ولعل هنالك ظاهرة أحق وأولى بالنقد فى هذا القاموس تحتل المكان الأول فى نظر الناقد . ان المؤلف لم يعنى ولم يحاول ان يسجل

مراجعه اللغوية والفنية وقد توخى ايجازا مخلا فى
تعريفه للاصطلاحات الفنية بصفة عامة أو خاصة ولا
بآراء المدارس المختلفة ومفهومها فى عالم النفس
كذلك لم يشأ ان يشير الى الأصول والأشتقاقات
اللغوية أو الى بعض المصادر الهامة الخاصة بالشواهد التى
جرت على ألسنة كبار الاطباء أو التراجم • ولعله كذلك قد
أفرط فى أصطلاحاته وخاصة فى بعض المفاهيم البالية للطب
ونظرياته فى مواضيع عدة لم نسمع بمثلها اليوم ولا فى الماضى
ولا يعرف لها مصادر او أصول •

وأنه من الواضح فى بعض أقسام العلوم الطبية أنه لم يعن
بتفهم المفهوم ذاته • وأن ظاهرة الارتجال متفشية فيه ولا
تخلو منها صفحة من صفحاته • و أنه يصعب على القارئ أن
يفسر الكثير من المرتجل على اساس منصف له رغم أنه من
الواضح الذى لا يستطيع القارئ اغفاله أنه قد زج بنفسه زجا
فى مثل هذا العمل الذى لم تهيوء له تجاربه الطويله •

ان موءلف المعجم لا يمكن أن يكون هاويا أو ناقلا وأن
أخطر الملكات لهى ملكة التفاوءل والعجز عن ادراك القصور
لدى الأنسان فى ناحية من نواحى فطرته وسليقته الادبية •

أن العمل العلمى ليس مشروعا تجاريا يتحين الكاتب او
الناشر أن قيمته العلمية قد تقرر مدى أسهامه • وقد ينجح
مثل هذا القاموس ويروج ولكن من يقراه يوما لا يرجع اليه
ابدا •

فالقاموس لم يصبح اكاديمية للافراد ولكنه عمل يحتم
مسئولية أدبية أستطيع ان ادرجها فى العبارة الاتية :-
ادب الفكر والمفكر ونقد الذات والاستعانة باصحاب الكفاءة
والفكر فى كثير من أقسام العلوم التى قد يكون المامنا بها
محدودا •

ولربما كان من المبررات لمثل هذا العمل الهزيل ظروف
خاصة نعجز عن كشفها • وقد يصعب على العاكف على مثل هذه
الموءلفات ان يحصى أنواع العجز والقصور وقد يبدو اسهل لديه
مرارا ان يكشف تبيان صحيحه لا غلطه • رغم ذلك فاود أن أورد
أمثلة ناطقة لهذا المجهود الضخم فى النشر ان لم يكن فى
المعرفة والعلم •

نشأة المؤسسة الطبية فى مصر القديمة*

مصر ام الحضارة وتاريخها رائد التاريخ وشعبها قائد الشعوب ودليله وحضارتها اصل تفرعت منه حضارات الانسانية ٠ وفى مصر نشأ الطب كتجربة عابرة ٠ وفى مصر اصبحت التجربة موءسسة شامخة ورثها الانسان ٠ ولرب قائل يقول وكيف نشأ الطب من مقام التجربة وكيف وصل الى ان اصبح موءسسة ٠ والجواب ان الطب لم يقم فجأة لانه يقوم على تكامل موءسسات عديدة لكى ينهض من مستوى التجربة الى حيز الموءسسات لان مفهوم الصحة لا ينحصر على مفهوم الطب فحسب بل على مفاهيم هامة فى النواحى الاجتماعية والثقافية والتاريخية اى ان مفهوم الصحة يشمل كل ما يسعه مفهوم الانسان ٠

ففى مصر استيقظ الضمير الانسانى لاول وهلة وفيها سنت الشرائع الاولى وفيها ارتفع الفكر حتى وصل الانسان الى وحدانية الخالق دون رسالة ٠ وفى مصر مجد الانسان وفيها اشرق ضوء العلوم والمعارف ، وفيها قامت المجتمعات الكبرى التى فوق المجتمعات الاسرية المحدودة النطاق ٠

على اساس هذه الخبرة الانسانية المتكاملة قام الطب كموءسسة انسانية ترعى المريض وتكفل الطبيب وتثبت دعائم المجتمع ولا تقوم مهنة الطب الا على اساس تنظيم وتدعيم الصلات وتقنينها بين افراد هذا الثالوث — المريض والطبيب والمجتمع ٠

وكان امحتب اول طبيب جاء ذكره فى التاريخ ، كان وزيرا وطبيبا ومهندسا بارعا غريقا فى معرفته للدين وكان هو الملهم بهندسة وبناء هرم سقارة المدرج ويعكس هذا فيما يعكس مفهوم الصحة فى اوسع مجالاتها واشمل معانيها وان الصحة

---

*هذه الورقة لم تحمل عنوانا وكانت مقدمة لموضوع ما ٠ وجدنا صفحتين من المسودة نثبتهما هنا ٠

وظيفة من وظائف المجتمع فى كل مستوياته سواء منها الاجتماعى والاقتصادى والتاريخى لان الصحة وظيفة من وظائف الحياة المتكاملة بمفهومها البيولوجى التى تستمد كيانها من ينابيع الحياة التى تقوم على المأكل والملبس والمسكن وكل ما يسهم فى نمو الجسم وتناسق الفكر ٠ وفى هذه الناحية بالذات نجد ان العلاقات الانسانية من اهم وظائف هذا المفهوم الايجابى للصحة ٠ ولم تمض اكثر من مائتين وخمسين عاما حتى ارتفع شخص امحتب الى مقام الآلهة وكان هذا دليلا على ادراك ذلك الشعب العريق فى تلك القرون السحيقة ما لهذا التمجيد للطبيب الاول من فعالية ترفع من مكانة المهنة ومن قوة اثرها وكان الطب فرعا من فروع الدين تحلى بفضائله وبشمائله اقتدى واهتدى وبلغ الارتباط بين الدين والطب وخاصة من الناحية الاخلاقية مبلغا جعل المهنه وقفا على الكهنة وحدهم خوفا من ان يصل اليها من ليس اهلا للفضل ولا موءلا للاخلاق من عامة الناس الذين لم يختبرهم الدين ويدخل التجربة التى تسفر عن اصالة النفس وسمو الخلق ونقول اضطرادا ان مصر القديمة قد اعطت قبل غيرها من الشعوب ابلغ عناية لمكانة الاخلاق فى الحياة العامة للانسان حتى بلغ الحال الى ان يفشل المرء فى وجود مثل واحد لميدان الفنون يمثل الجسد البشرى خاليا مما يتطلبه الاحتشام والرزانه وحتى فى تمثيل الالهة نجد ان اكثر صور الاخصاب خالية من العضو التناسلى الذى يظهر به فى صورة واحدة وفى حالة واحدة ٠

ظل هذا شأن الطب وعصر الاسر وقد سجل هذا فى الكثير من اوراق البردى التى ضاعت ولم يبق منها الا القليل الذى يعكس عظمة ذلك التراث مثل بردية أبر وأدوين سميث وغيرهنا من البرديات وهكذا الى حين عصر الاسكندرية التى بلغ فيها الذروة واصبحت جامعتها كمنارتها التى اشتهرت بها يشع منها ضوء العلم والمعرفة فيضيشان ما ترى الآفاق ونرى لزاما علينا ان نقف هنا لحظة لكى نتأمل ولكى نرى كيف ان جامعة الاسكندرية كانت اول جامعة يحق لها ان توصف بانها كانت دولية وقد جذبت العلماء والفلاسفة وطلاب العلم والمعرفة لا من

حوض البحر الابيض المتوسط فحسب ولكن من بين كل شعوب الشرق القديم • كان ذلك كذلك فى عهد تلاشت فيه الحضارات او كاد مما ادى الى ان هاجر اليها العلماء وذوى المعرفة وطلابها من كل شعوب الشرق لينهلوا من مواردها العذبه ويستظلوا من فيء البطالسه الذين خلفوا الاسكندر الاكبر وقد ازدادوا تمصرا وتطبعا باهل مصر وبما جبلوا عليه من حب للمعرفه وللعارف وبطالبها وقد جمع بطليموس الاول العلماء واغدق عليهم النعم وراج العلم حتى اصبحت الاسكندرية لا يضاهيها مركز آخر وزاد بطليموس الثالث من اهتمامه بها حتى حوت مكتبتها ما يزيد على نصف مليون من المجلدات •

من كلمة نيابة عن الجمعية الطبية الســـودانية

في واد مدني

يسعدني ان التقى بكم جميعا في هذه المدينة الخالدة ودمدني عاصمة الجزيرة الفيحاء . في هذه الارض العريقة في التاريخ التي اطلق عليها الجغرافيون والخرائطيون اسم جزيرة مروى . وعرفها وجاب ارجائها الرحاله الاقدمون ومشت فيها مواكب التاريخ .. واصطدمت جحافل الغزاة والمغيرين والمدافعين والمناضلين وخفقت فيها رايات الملوك ، واشرقت شمس ، وافلت شمس عروش يحتضنها النيل الخالد حابي الاله واهب العطاء والخير والنماء . تودع قرص الغروب ونيلها الابيض يرقب نجوم الليل . نيل الاساطير والخرافات والعجائب الذى اعيا المستكشفين والرواد والمغامرين هابطا من فراديس السماء متدليا الى جبال القمر يشق بطحاء هذا الوادى نحو الشمال . وفي شرقها يشرق قرص الشمس على نيلها الازرق الهادر الثائر يشق الوعر والوهاد الى ارض الشمال .

الجزيرة التي تحفها القباب البيض والمآذن الصاعدة الى عنان السماء تظلل الراقدين تحت ثراها من العلماء والمتصوفين والحكماء والشعراء والمنشدين والقراء الذين زينوا تاريخها وعطروه . الراشدين المرشدون .

ويصمت التاريخ ولكن لم تخبو تلك الجذوة في النفوس الحية .. من يستطيع ان يقف بين الانسان والحرية والطموح . ان عزائم الرجال تهد الجبال .

وجاءت الثورة الزراعية انبثقت من ارض الجزيرة واطلقت الثورة الفكرية الاقتصادية والثورة السياسية .. وخرج تيار الوعي فأستقطب الافراد والجماعات .. وكان من الامر ما كان .

(لقد اصبحنا غرباء فى ديارنا ••• شىء غريب ان نوطن انفسنا
على هذه الغربة النفسية ••• لكن ان يكون الحق غريبا بيننا
فهذه نهاية المطاف) •

التجانى الماحى

خطاب الدكتور التجانى الماحى
عضو مجلس السياده

(فى الإحتفال بذكرى باندونق)*

اننا نعيش اليوم فى ظل احداث جسيمه ولم يكن من مصادفات القدر ولا من فلتات التاريخ ان تكون هذه الاحداث على موعد مع الذكرى العاشرة لموءتمر باندونج . انه لمن عبر التاريخ وحتميته ان يقع عيدها العاشر فى خضم هذه الاحداث التى تكون تجربة رهيبة وامتحانا قاسيا لمبادىء باندونج .

ولكن اسمحوا لى ايها السادة ان اقول ان مبادىء موءتمر باندونج ما زالت فكرة مجردة وشعارات لم تنفذ ولم تخرج الى حيز الوجود ولم توضع موضع التنفيذ والممارسة . انها عقائد بلا طقوس . ففى خلال العشرة اعوام الاخيرة عاشت هذه الفكرة مجردة بلا وطن ولا هوية ولا شخصية ولا دعامة عملية تسيرها وتفسرها . ليس لها نعت ولا كيف ولا كم ولا صيرورة فى الواقع ومن ثم اصبحت فكرة يلهو بها اللسان ونديا رحبا لكل من شاء بلا عهد ولا ميثاق ولا التزام .

دعونى اردد للمرة الثانية ان مبادىء باندونج ما هى الا روح بلا جسد . وليست لها من مظاهر الحياة والنشاط من الوسائل والغايات ما لغيرها من المبادىء العملية . بل ظلت فكرة قابعة فى النفوس لم تخرج بعد الى حيز الزمان والمكان والحركة .

اننى ايها الساده اوءمن بالواقع لا بالخيال اننى اذهب الى ابعد من ذلك فاقول ان مبادىء باندونج قد اصبحت شعارات تعوق العمل وتجرد النفس من دوافع الطموح بل قد تصبح هذه الفكرة مأوى لكل متخلف متنكب من جادة الكفاح ورغم ذلك فانى اعلن تمسك بلادى وحكومتى بالعهد الذى قطعته فى الوقوف مع

---

* نشر الاصل بالانجليزية فى جريدة اندونسيا هرالد اليومية بجاكارتا فى العدد الصادر يوم ١٩٦٥/٤/٢٣م

مبادئ باندونج جماعات ووحدانا .

فلنجعل من هذه الذكرى العاشرة لمؤتمر باندونج ولتداعى هذه الاحداث التى تكتنف هذه الذكرى معها . لنجعل منها ملهما لتحقيق ما تفتقت عنه عبقرية زعيمكم الدكتور سوكارنو من الامكانيات للالتقاء الافريقى الاسيوى .

ولكن ما رآه الرئيس وما ادركه بحسه قد أنشأه وقومه واخرجه الى حيز الوجود . ان الامر لا يحتاج الى فطانة وروية لكيما ندرك ان مفهوم القوات المتحرره النامية وما شيد لها لتخريج امكانياتها انما هو مطابق فى معناه ومبناه وفى وظائفه وموارده واسبابه وعلاقاته لجملة ما نسعى الى تحقيقه فى المجال الافريقى الاسيوى من الناحية العملية ولعل هذه المؤسسه التى وضع حجرها الاساسى خلال زيارتنا سوف يقتصر نشاطها اولا وبادئ ذى بدء على اعتبارها ناديا افريقيا اسيويا ولكن مجرى الامور فى المستقبل سوف يقرر فتح بابها على بمصراعيه لكل الشعوب النامية المحبه للسلام التى تتفق مبادؤها مع المبادئ الانسانية لشعوب افريقيا وآسيا سوف تفتح ابوابه لكل هذه الشعوب اينما كانت سواء من ارجاء العالم القديم او الجديد . اننا نأمل ان هذه الفكرة - التى كان زعيمكم اول من صاغها - تستطيع ان تتصدى لاستيعاب المشكلات الافريقية والآسيوية فى شتى صورها ان ذلك سوف يمنح الامم المتحدة عطلة طويلة للراحة لكيما تجدد نشاطها وتسير فى ركب الزمن الذى تخلفت عنه طويلا . ان اولى مشاكل الامم المتحده هى من خلقها وصنع يدها . لقد جنت على نفسها براقش وجنت عليها وكالاتها التى اسهمت ولم تزل تسهم بنصيب وافر من الاخطاء والاغلاط الجسيمة التى اصبحت مشارا للنقد والتعنيف المرير الذى استهدفت له الامم المتحدة . ان ما فعلته هذه الوكالات لا شد نكاية على المنظمة الام مما تعرضت له من اشد نقادها وخصومها . ان هذا لينطبق تمام الانطباق على منظمة الهيئة الصحية العالمية التى اصبحت مسئولة الى الله وحده ولا لغيره فى كل اعمالها وافعالها ونواياها .

واهم من ذلك ان يكون هذا النادى همزة وصل بين الشعوب

الافريقية والاسيوية من وظائفه تبادل الرأى والمنافع والخيرات وانشاء هيئات للتقصى والتحكيم . كما يجب ان يكون قادرا وكفأ وجريئا فى ميادين الاستثمار والتبادل الاقتصادى .

دعونا ايها الساده نعود الى نظام المقايضات لقد ضقنا ذرعا باساليب النقد وتقييمه الدولى . انه نظام فاسد مصطنع ووسيلة من وسائل التحكم الدولى لا يمكن تفسيرها منطقيا ولا اقتصاديا ولا واقعيا . انها يد السياسة فى عالم الاقتصاد .

انها اغلوطة ابو الهول المشهورة فى التاريخ وقصة هرقل الذى سبقته السلاحف ،،،،،،،

من الفلكلور الليبـــي

حبيبتي خضرة

أسنان من العاج في فم من الشهد

يانرجسة الصحراء ... خدودها كالدم المراق

ياخصرها ... كالاسد في الطراد

وخدرها .. كقوس قزح من حرير

من دخله فقد رأى الجنة عيانا

لو حال بيني وبينها مائة من الفرسان

لمرقت اليها مروق السهم

ولنفذت اليها نفوذ القدر

وطويتها طي الخز آمنة وراء ظهري ودرعي

وادرعتهم كما يدرع رمحي قميص الزرد ويخرج منه

كعوبة تتوهج اسلاكها تحت اشعة الشمس

وآها لها ما أشبهها بشعرك

ان الحب لا تخفيه العيون

ولكن الامور بيد الخالق .